كتاب الهلال

يوكيو ميشيما

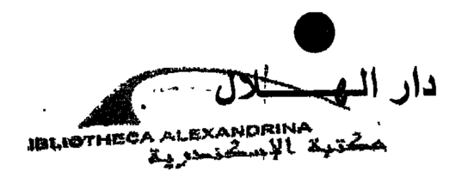
اعترافات قناع

يوكيو ميشيما

اعترافات قناع

ترجمة

كامل يوسف حسين



BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

مقدمة المترجم

هذا كتاب وحشى .

إن ميشيما يتدافع كقطع الليل ، يتدفق مثل قافلة مسرعة ، فى الطريق من الجحيم إلى الجحيم ، وأولئك الذين تتحصل فكرتهم عن مطالعة أدب الاعترافات فى أنها تشبه ، من قريب أو بعيد ، تناول الحلوى عقب طعام العشاء عليهم أن يسارعوا بتنحية كتابه هذا ، وإلا فإن عسر الهضم فى إنتظارهم !

الصفحات الناصعة ، الماثلة بين يدى القارىء ، ليست إلا جمرات تفحمت . السطور الرشيقة ملكات ، فى لحظة الانتحار . والغلاف يضم شرائح من انتفاء الأمل ، وفى الوقت نفسه من رفض الاشفاق على عالم ينهار ، دون أن تتكامل مقومات عالم آخر ينهض .

إنه كتاب يتصدى لليأس والموت والدمار ، من خلال محاولة اجتراح فهم أفضل للحياة ، ولم يكن من قبيل المصادفة رفض الناشرين الأمريكيين لسنوات طوال إصداره ، وإصرار الناشرين

الإنجليز والفرنسيين على تصدير طبعاتهم بكلمة تحذر من أثره الكلي المعتم ، القابض ، والغارق فى التعاسة والرعب واليأس .

فى ٢٥ نوفمبر ١٩٧٠ حزم كيميثاكى هيراوكا ، الشهير بيوكيو ميشيما أشهر أدباء اليابان فى القرن العشرين ، كليتيه بقطعة من النسيج القطنى ، وانتضى سيفه التقليدى القصير ، وبدون تردد أو وهن أغمده فى أحشائه ، منتزعا إياها فى إنتحار علنى . الكثيرون تساءلوا عما إذا لم يكن الرجل - فى تضحيته بحياته ليلفت انتباه مواطنيه إلى عمق خسارتهم بإهدارهم لتراث اليابان التقليدى - يحقق هاجسا راوده طوال عمره ، بأكثر مما يضحى بمبادىء آمن بها طويلا وعميقا . الكثيرون قالوا إنه - على أية حال - ماكان ليستطيع تجاوز نفسه ، وكتابة شىء يفوق رباعيته «بحر الخصب» ، التى وصل فيها إلى أعلى قممه ، حتى ولو عاش ربع قرن آخر . الكثيرون - أيضا - تساءلوا : ترى أهذه هى النهاية أم أنها البوابة حقا ؟ .

فى ١٤ يناير ١٩٢٥ ولد ميشيما ، فى طوكيو ، إبناً لعائلة تعبر مسيرتها عن الحراك الاجتماعى النسبى ، فى مجتمع يفتقر بصرامة للمرونة الاجتماعية ، كان أبوه أحد العاملين بالدولة وجده هو الحاكم العام السابق لمقاطعة كارافوتو . ورغم اعتزاز ميشيما بجده ذاك ، فإنه كان يلتزم الصمت بالنسبة للأصول الفلاحية التى

إنحدر منها ، ويؤثر الحديث عن جدته ، التى كانت تنتمى إلى طبقة الساموراى ، وربما كانت غرابة أطوار تلك الجدة ونوباتها العصبية هى السبب فى تزويجها من رجل يتدنى عنها فى السلم الاجتماعى.

بضغط من هذه الجدة ، ألحق ميشيما - «الجاكوسهوين» أو «معهد الأعيان» ، الذى كان الطلاب الذين لاينحدرون من أصول نبيلة يعاملون فيه معاملة الغرباء ، وفى رحابه عرف آداب اليابان التقليدية ، وتعلق بها إلى حدّ الافتتان ، الذى رافقه طوال عمره .

فى ١٩٤١ ، أى فى السادسة عشرة من عمره ، كتب أول عمل أدبى مهم ، وهو «هانازا كارى نوموري» أو «غابة مزهرة» ، ويدور موضوعه الرئيسى حول التواصل بين الأجيال ، فقد كانت قناعة ميشيما قوية بأن لنا عددا هائلا من الأجداد ، يرقدون فى أعماقنا أحياناً ، كحنين رائع ، ولكنهم قد يبقون على بعد مؤلم منا ، ويحافظون على بعدهم هذا بصرامة . يقول :

«يأتى الينا أجدادنا بطرق غريبة ، يشك الناس فى ذلك ، لكنه حقيقى» . ومن الجلى أن هذه الموضوعة سائدة فى الأدب العالمى ، وقد عبر عنها الكثيرون من الكتاب المعروفين ، والذين طالعوا بحب وتعاطف مذكرات العملاق اليونانى نيكوس

كازانتزاكيس سيجدون هذه الموضوعة التى فصلت فى صدر الفصول الأولى من المذكرات قادرة على العودة بحيوية وتألق ، لكنها عند ميشيما ترتفع إلى مستوى المتغير الأصيل ، الذى يؤثر فى كل ماعداه .

فى أكتوبر ١٩٤٤ ظهرت «غابة مزهرة» فى مجلد صغير ، مع مجموعة من القصص القصيرة ، ربما يرجع ما لاقته من إقبال إلى رغبة الجمهور اليابانى فى مطالعة أعمال لا تتناول الحرب ، بأكثر مما يرجع إلى جاذبية تألق ميشيما اللفظى فى كتابتها .

لم تظهر رواية ميشيما الكبرى الأولى إلا فى عام ١٩٤٩ بعنوان «ثوزوكى» أو «السارقون» ، وتدور حول نشوة الموت البالغة الحضور التى يحسها فتى وفتاة من أصول أرستقراطية ، فيقرران الزواج ، لينتحرا معاً فى ليلة زفافهما .

فى العام التالى ، ظهر الكتاب الماثل بين أيدينا هنا ، بعنوان «كامن نوكوكو هاكو» أو «اعترافات قناع» ، وإذا كانت رباعية «بحر الخصب» تعد أرقى القمم التى وصل إليها عالم ميشيما الأدبى ، فإن الاعترافات تقدم ، فى الحقيقة ، المفاتيح التى يستحيل دونها فهم أسرار ومغاليق هذا العالم .

لكن مأساة هذا العمل ، أو بالأحرى مأساتنا معه – وربما

كان هذا أيضا أعظم ما فيه – هو قابليته الفذة للتفسير على أكثر من صعيد واحد ، وعلى عمق كبير داخل كل مستوى على حدة .

كان ميشيما نفسه ينظر إلى هذا العمل باعتباره «تدريباً اسبرطياً للانضباط الذاتى » ، إنه هنا يتحدث فى تدفق وعفوية ، متخلصا من ولعه بالتراكيب الأدبية المغرقة فى الخيال والاستعارات المحوّمة ، ثم أنه يجالد الحقيقة عارية لأنها – ببساطة – الحقيقة ، ولا مهرب منها ، والمنهاج الأفضل هو فهمها ومواجهتها ، وهذا هو ما تضمه الاعترافات بين دفتيها .

والكثيرون من النقاد يرون فى «الاعترافات» شكلاً شديد الخصوصية من أدب الاعترافات ، فهم ينظرون إليه باعتباره تقليداً ساخراً للاعتراف ، ويعدونه الكتاب الأكثر تعبيرا عن ميشيما، لا لأنه صنع شهرته المدوية ، أو لأنه قمة شامخة فى أعماله ، التى تبلغ حوالى ١٠٠ عمل ، يضمها حوالى ٤٠ مجلدا ، وإنما لأنه الكتاب الأكثر إيغالاً فى فهم العالم الداخلى لمؤلفه . وإذا قبلنا تفسير «الاعترافات» على هذا المستوى ، فإن هذا الكتاب يجعل اعترافات أندريه جيد ، التى صدمت العالم لدى صدورها ، تبدو تأملات تلميذ برىء فى سيرته الذاتية ، وللذين قد تصدمهم صراحة ميشيما الدامية ربما يصح أن يقال أن أندريه جيد هو نفسه الذى قال فى دراسة له عن دستويفسكى – الذى صدّر

ميشيما اعترافاته بمقتطف مطول من أشهر رواياته – قال جيد : «إن المشاعر الجميلة تفرز فناً رديئا وبدون مساعدة من الشيطان لن يتم إبداع الفن » .

وهناك فريق من الدارسين يميلون إلى تصور أن البطل الحقيقي للاعترافات هو يابان مابعد الحرب نفسها ، اليابان فى عجزها عن الانفصال عن ماضيها ، ولكن فى الوقت نفسه فى افتقارها العنين للقدرة على التواصل مع المستقبل .

وثمة من يميل إلى النظر للاعترافات باعتبار أنها محاولة لتفسير الكل من خلال الجزء ، ورحلة تستهدف التوصل إلى تفسير كلى للوجود ، من خلال دراسة العلاقة بين البطل وقدره ، وتحديد هامش الحركة الانسانية الذى يتيحه هذا القدر للبطل ، فى حين يصادر شريحة ظالمة من وجوده . ويشير المتحمسون لهذا الفهم إلى أنه فى هذه الفترة بشكل خاص بدأ ميشيما يهتم بتعاليم «الزن» ، وبمجمل التأملات الفلسفية التى قدر لها أن تلقى أرقى تعبير عنها فى الرباعية .

ومن المحقق أن عملاً يقبل التفسير على مثل هذه الجبهة العريضة ، وبمثل هذا العمق ، جدير بمزيد من الاهتمام ، لكنه لم يكن بالنسبة لميشيما نهاية المسيرة ، وإنما بداية

المرحلة الواثقة الخطى منها .

النجاح المدوى الذى حققته الاعترافات لم يغر ميشيما بالتوقع فى إطارها ، وإنما قدم فى ١٩٥٠ «أى نوكواكى» أو ««عطش الحب» ، وهو عمل أدار فيه ظهره تماما للاعترافات والتجارب الشخصية .

«شيوزى» أو «هدير الأمواج» الصادرة فى ١٩٥٤ كانت ثمرة استلهام مصدر مختلف تماماً ، هو الأساطير اليونانية ، وبرهانا جديدا قدمه ميشيما على أن العمل الكلاسيكى ليس مطرودا – كمن حلت به لعنة – من رحاب الاهتمام الجماهيرى ، وإنما المسألة تتعلق فى الأساس بالأسلوب الذى يتم تبنيه لتقديم هذا العمل .

فى ١٩٥٦ خاض الكاتب اليابانى مغامرة جديدة فى روايته «الخيمة الذهبية» ، التى يرى بعض النقاد أنها أفضل أعماله ، فهو يتعرض لحريق معبد كيوتو الشهير ، وإذا كانت الخاتمة معروفة ، وجانب يعتد به من تيارات الموضوع معروف كذلك ، فقد كان التحدى متمثلا فى إمكانية تقديم عناصر درامية فى ركن من الدنيا تنتفى فيه الامكانية الدرامية ، وقد اجتذب ميشيما هذه العناصر من رحم بحثه عن «السبب» الذى دفع الراهب الذى

أشعل النار إلى اقتراف فعلته تلك .

ولـم تكن المسيرة الأدبية ناعمة دائما بالنسبة لميشيما ، فقد مُنى عملـه الموسـوم «كيـوكـو نواى» أو «دار كيـوكـو» والصـادر فى ١٩٥٩ بفشل مدوٍ ، رغم ما بذله فيه من جهد ، وما سخر له من موهبة .

تلك هى فترة الانهيار عند ميشيما ، غادر مكتبه ، محاولا النسيان فى خضم الحياة الواسع وعلى صدرها العريض ، لعب دورا فى أحد الأفلام ، غنى أغنيات البحر ، أمطر قنوات الإعلام ووسائط الكتابة السريعة الاستهلاكية ، غير أنه ماكان لكاتب فى مثل عبقريته إلا أن يفيق .

فى يناير ١٩٦٠ ، ووفقاً للتقاليد الأدبية اليابانية ، بدأ ينشر حلقات «أوتاج نواتو» أو «بعد الوليمة» . وفى يناير من العام التالى نشر «يوكوكو» أو «وطنية» عن شباب الثلاثينيات وتضحياتهم . وفى ١٩٦٣ أصدر واحداً من أكثر مؤلفاته إتقاناً ، هو «جوجو نوايكو» أو «البحار الذى لفظه البحر» . وفى ١٩٦٥ قدم درة مسرحياته الطويلة «سادو كوشاكوفوجين» أو «السيدة دى ساد» وأقصر هذه المسرحيات فى ١٩٦٧ «واجاتوموهينورا» أو «صديقى هتلر».

لكنه كان منذ سبتمبر ١٩٦٥ ، وحتى اليوم الأخير من حياته ، قد راح يدفع للمطبعة بعملٍ عمره : «هوجونو أوبى» أو «بحر الخصب» .

كان يؤمن بأن هذا العمل هو المحيط الذى يصب فيه نهر عمره ، والمشكاة التى تتوهج منها معارفه جميعا وخبراته ، ككاتب وكإنسان وكمفكر كافة ، وقد لفت انتباه أصدقائه إلى أنه عندما ينتهى من الرباعية لن يبقى له سوى عمل واحد : الانتحار . وفى ذلك اليوم من أخريات نوفمبر ١٩٧٠ كان قد قال كل ماعنده ، فسطر النهاية بسيفه .

فى توازٍ صارم معَ هذه المسيرة ، كان تطوره السياسى ، ومن ثم الفكرى ، كان قد انضم فى وقت مبكر من تطوره إلى المجموعة التى تنشر مجلة «كندى بوكاجو» أو «الأدب الحديث» وغالبية أعضائها من الكتاب اليساريين ، لكنه فى الواقع ظل بعيدا عنهم ، وحينما عرض عليه الانتماء إلى الحزب الشيوعى بدا له ذلك شيئا «سخيفاً» وإن كان طريفاً! وكانت المجموعة بالنسبة له أداة تواصل مع العالم – وهو الخجول المنطوى – لكنها أبدا لم تؤثر فى أفكاره السياسية .

ورغم ميوله المحافظة ، التى لم يخفها ،فإنه ظل بعيدا عن

الجماعة الرجعية المشبوهة ، بل كتب عنها بصراحة نادرة فى الرباعية وشارك كتاب اليابان اليساريين فى إلهاب ظهور السياسيين ورجال الأعمال بسياط النقد ، إلا أن الدوافع كانت مختلفة .

حين أعلن إيمانه بأن الامبراطور معصوم من الخطأ ، كان ذلك لأنه يرى فيه الرمز المجرد لليابان ، وفى منتصف الستينيات ، حين شدد على المفاهيم التى عدّها البعض فاشية ، كان جوهر ما يدعو إليه ، فى الحقيقة ، هو المحافظة على التقاليد اليابانية المحضة والروح الكامنة وراء هذه التقاليد .

من المدهش حقاً أن تلك هى الفترة التى شرعت فيها أفكاره السياسية فى الاغراق فى التجريد ، حتى أصبحت إمتدادا لجماليته ، لكنها الفترة ذاتها التى تدرب فيها سراً مع القوات اليابانية ، وكوّن جيشا خاصاً ، من مائة رجل ، عرف باسم «تات نوكى» أو «جماعة الدرع» وهدفها المعلن خدمة الامبراطور ! .

وأيا كان الأمر ، فليس المقام مقام دفاع عن ميشيما ، أو تهجم عليه ، وإنما المجال لتعرفه ، لفهمه ، ولاستيعاب العالم الذى صدر عنه .

ورغم الأسماء الضخمة التى لمعت فى مرحلة تالية ، مثل

شوساكو إندو وكوبوآبى وكينزابورو وغيرهم ، فإن ميشيما يظل الكاتب اليابانى الأكثر موهبة ، والأعمق عبقرية ، فى النصف الثانى من القرن العشرين . لقد تعذب طويلا وعميقا ، ثم عرف كيف يخلق من عذاباته فناً رفيع المستوى .

ولعل كاتب هذه الكلمات يعد ، الآن وهنا ، أولئك الذين عرفوا العذاب والرحيل بعيداً عنه ، من خلال الخلق ، والابداع ، بأن يرحل معهم فى القريب عبر عالم «بحر الخصب» .

المترجـــــــم

... رهيب هو الجمال ومروع ، رهيب لأنه لم يسبر له أبدا غـور ، ولا يمـكن أن يعـرف لـه قـط قـرار ، ذلك أن الله لا يطـرح علينا إلا أحـجيات ، وفي الجمال يلتقي الشاطئان ، وتتجـاور المتناقضات . لسـت رجـلاً صـقله الفـكر ، أيهـا الأخ ، لكننـي أمعنـت التفكـير فـي هـذا ، حـقا أن هـنـاك أحـجيـات بلا انتـهاء! عديدة هـي الأحجيات التـي تثقـل كاهـل الانسان على الأرض ، ونحـن نفكر فيها مـا وسـعنا التفكير ، فنصـدر عن الماء والجفاف يعلونا . الجمال ! ليس بمقدوري تحمل فكرة أن انسـانا نبيل الفـؤاد شـامخ العقل ينطلق بمثـال العـذراء ، وينتـهي بسـدوم مثـالا أعلـى ، أمـا ماهـو أشـد إثارة للفـزع فيكمـن فـي أن مـن يحـمل مـثال سـدوم في أعماق روحه لا ينبذ مثـال الـعذراء ، وربمـا كـان فـي أغـوار فـؤاده يتقـلب علـى جمر الغضـا ، وقـد شـفه الحـنين إلـى المثـال الجميل ، علـى نحـو مـا كـان أيام براءته اليـافعـة . أجـل ، رحـب هـو فـؤاد الانسـان ، بالـغ الرحـابة حـقا ، وددت لو كان أكثـر ضـيقا ، الشيـطان وحـده يعـلم مـاذا يصـنع به ! لكـن ماينظر إليه العـقل بحسبانه

مبعثا للشعور بالعار غالبا مايبدو للفؤاد بهى الحسن . أثمة جمال فـى سـدوم ؟ صـدقنى ، إن معظـم الرجـال يجدون جمالهم فى سدوم ، أتراك إطلعت على هذا السّر ؟ الأمر المروع هو أن الجمال ليس رهيبا فحسـب ، وإنما هـو غامـض أيضـا ، فالله والشـيطان يتجالدان هناك ، وساحة عراكهما هـى قلب الانسان . لكن قلب الانسان إنما ينشد الحديث عن وجعه فحسب . أصغ الآن سأحدثك بما يقول ..

دستويفسكى – الأخوة كرامازوف

الفصـــــل الأول

لسنوات عديدة ، زعمت أن بمقدورى تذكر أمور تراءت لى وقت مولدى ، وحينما كنت أقول هذا ، كان الكبار يضحكون فى بادىء الأمر ، ولكنهم بعدئذ ، وفى غمار تساؤلهم عما إذا لم يكونوا قد وقعوا ضحية حيلة ما ، ولكنهم كانوا يتطلعون باستياء إلى الوجه الشاحب لذلك الطفل البعيد عن روح الطفولة ، وكان يتصادف فى بعض الأحيان أن نقول ذلك فى حضرة بعض الزوار الذين لو يكونوا على صلة وثيقة بالعائلة . عندئذ كانت جدتى ، فى غمار خوفها من أن تظن البلاهة بى ، تقاطعنى بصوت حاد ، وتبلغنى بأن علىّ أن أمضى إلى مكان آخر وأن ألهو هناك .

كان الكبار عادة يشرعون ، ومازالوا على ابتسامهم إثر ضحكهم ، فى محاولة افحامى بضرب من التفسير العلمى ، ومجربين اختراع تفسيرات يمكن لعقل الطفل استيعابها ، كانوا دائما يبدءون بالثرثرة فى غير قليل من الحماسة المفعمة بالتظاهر

، فيقولون إن عينى الطفل الوليد لا تكونان مفتوحتين بعد لدى الميلاد ، أو إن الطفل الوليد لا يحتمل أن يكون بمقدوره - حتى وإن كانت عيناه مفتوحتين تماما - أن يرى الأشياء بوضوح يكفى لتذكرها .

«أليس هذا صحيحا» كانوا يقولونها ، وهم يهزون الكتف الصغير للطفل ، الذى ما كان الاقتناع قد سيطر عليه . ولكنهم عندئذ ، على وجه الدقة ، تخطر لهم فكرة أن حيل الطفل كانت على وشك استدراجهم، فحتى إذا كنا نظنه طفلا علينا ألا نتخلى عن حذرنا ، مؤكد أن الوغد الصغير يحاول استدراجنا لنحدثه عن «ذلك» ثم عندئذ ما الذى يحول بينه وبين التساؤل بمزيد من البراءة الطفولية : «من أين جئت ؟ وكيف ولدت ؟» . وفى النهاية كانوا يمعنون النظر فىّ من جديد صامتين ، وقد تجمدت ابتسامة ، واهنة على شفاههم . مفصحين لسبب ما - لم يكن بمقدورى أبدا أن أعرفه - عن أن مشاعرهم قد جرحت بعمق .

لكن مخاوفهم كانت بلا أساس ، فلم تكن لدىّ أدنى رغبة في التساؤل عن «ذلك» ، وحتى لو كنت أرغب فى التساؤل ، فقد كان خوفى من جرح مشاعر الكبار بالغا ، بحيث أن فكرة استخدام الخديعة ما كانت لتطرأ لى على بال قط .

ماكان بوسعى الاعتقاد إلا أننى أتذكر مولدى ، أيا كانت كيفية إيضاحهم للأمر ، وبغض النظر عن إبعادهم لى وهم يضحكون . وربما كان أساس ذاكرتى شيئا سمعته من شخص كان حاضرا فى ذلك الوقت ، أو ربما لم يتجاوز الأمر خيالى التوّاق . وأيا كان الأمر ، فقد كان هناك شيء واحد اقتنعت بأننى رأيته بوضوح بعينى رأسى ، هو حافة الحوض ، الذى تلقيت فيه حمامى الأول . كان حوضا جديدا تماما ، تموج سطحه الخشبى برهافة حريرية غضة . وحينما تطلعت من داخله ، كان شعاع من نور يلطم بقعة واحدة على حافته ، التمع الخشب فى تلك البقعة وحدها ، بدا كأنه صيغ من نضار ، راحت أطراف ألسنة الماء تتراطم متموجة ، كأنها ستلعق البقعة ، لكنها لم تصلها أبدا ، وسواء كان الأمر يرجع إلى الانعكاس ، أو لأن شعاع النور إنساب إلى الحوض كذلك ، فإن الماء تحت تلك النقطة على الحافة راح يلتمع فى رقة ، وبدت موجات رقيقة وهاجة وكأنها ترتطم برءوسها معاً هناك ..

كان أقوى تفنيد لهذه الذكرى هو أننى ولدت لا فى نور النهار ، وإنما فى التاسعة مساء ، وما كان يمكن أن يتدفق شعاع من الشمس وقتها ، ورغم الضيق الذى كان ينتابنى لسماع قولهم : «هكذا إذن ، لابد أنه كان ضوءا كهربيا» كان لايزال بمقدورى أن

أمضى إلى عبث الاعتقاد بأنه حتى وإن كان الوقت منتصف الليل ، فمن المؤكد أن شعاعا من ألق الشمس كان يلطم تلك البقعة الواحدة على الأقل فى الحوض ، وعلى هذا النحو تأرجحت حافة ذلك الحوض ونورها المتقد فى ذاكرتى ، بحسبانها شيئا من المؤكد أنه قد تراءى لى وقت حمامى الأول .

ولدت بعد الزلزال الكبير بعامين . قبل ذلك بعقد من الزمان ، حمل جدى على كاهله عبء آثام أحد مرءوسيه ، واستقال من منصبه كمحافظ بالمستعمرات ، وذلك كنتيجة لفضيحة وقعت آنذاك (لست أتحدث بلطف عن شىء مقيت ، فحتى الآن لم أر مثل هذه الثقة البالغة الحماقة بالبشر التى كان جدى يتمتع بها) . شرعت عائلتى ، عقب ذلك فى التهاوى عبر منحدر بسرعة تمازجها اللامبالاة ، حتى ليمكننى القول بأن أفرادها كانوا يصفرون فى مرح ، وهم يعانون وقر الديون الهائلة ، فحرمانهم حق استرجاع مرهوناتهم ، ثم بيع ضيعة العائلة ، عقب ذلك تفاقمت الصعوبات المالية ، وتعاظم تأجج لهيب الغرور المريض ، مثلما يتفاقم دافع شرير ..

ولدت ، كنتيجة لهذا ، فى حى بعيد عن الفخامة من أحياء مدينة طوكيو ، فى دار عتيقة مؤجرة ، كانت دارا تحمل من الادعاء أكثر مما تعكس من الأصالة ، تقع عند ملتقى شارعين ، ذات

مظهر بالغ الاختلاط ، تولد إحساسا كابيا وقاتما . كانت لها بوابة حديدية فخيمة ، وحديقة عند مدخلها ، وغرفة استقبال ذات طراز غربي ، في ضخامة مدخل كنيسة بالضواحي ، كان هناك طابقان في المنحدر الأعلى وثلاثة طوابق في المنحدر الأسفل ، وغرف عديدة كئيبة وست خادمات . وفي هذه الدار ، التي كانت تقعقع مثل خزانة ملابس عتيقة ، كان عشرة أشخاص ينهضون صباحا ، ويخلدون للنوم مساء ، هم جدي وجدتي ، أبي وأمي ، والخادمات .

في غور متاعب العائلة كمن عشق جدي للمشروعات ، ومرض جدتي ، وأفانين إسرافها . وغالبا ماكان جدي يمضي راحلا إلى بقاع نائية ، وقد راودته أحلام ذهبية ، بعد أن تغريه مشروعات يجلبها أصدقاء يثيرون الارتياب . كانت جدتي تنحدر من عائلة عريقة ، وتمقت جدي ، وتشبعه سخرية . كانت روحها ضيقة الأفق ، لا تقهر ، وحشية في شاعريتها ، وعلى نحو غير مباشر وباضطراد راحت حالة مزمنة من الألم العصبي بالجمجمة تلتهم أعصابها ، وتضيف في الوقت نفسه حدة لا جدوى منها إلى ذهنها ، ومن يدري ، أترى نوبات الاكتئاب تلك ، التي واصلت التعرض لها حتى لقيت حتفها ، لا تعدو أن تكون تذكارا للرذائل التي انغمس فيها جدي في ريعان شبابه ؟ .

إلى هذه الدار أحضر أبي أمي ، عروسا هشة وفاتنة . في

صبيحة الرابع من يناير ١٩٢٥ هاجمت آلام المخاض أمى ، وفى التاسعة من مساء ذلك اليوم انجبت وليدا صغيرا ، يزن خمسة أرطال وست أوقيات .

فى مساء اليوم السابع لف الطفل فى أردية داخلية من الصوف الناعم والحرير الشاحب الصفرة . ألبس كيمونو من الكريب الحريرى ذى الزخارف اللامعة . بحضور أهل الدار المجتمعين ، رسمت جدتى اسمى على شريحة مراسيمية من الورق ، وضعتها على منصة التقدمة فى ركن الصلاة .

كان شعرى يميل إلى الشقرة ، ظل كذلك لوقت طويل ، لكنهم دأبوا على وضع زيت الزيتون عليه ، حتى تحول إلى اللون الأسود أخيرا .

كان والداى يقيمان فى الطابق الثانى من الدار ، وبدعوى أنه مما ينطوى على مخاطرة أن تتم تربية طفل فى طابق علوى ، انتزعتنى جدتى من أحضان أمى فى اليوم التاسع والأربعين لمولدى . وضع فراشى فى غرفة مرض جدتى الموصدة الأبواب دائما ، والمفعمة بروائح المرض والشيخوخة ، فنشأت هناك إلى جانب فراش مرضها .

حينما أوشكت على إتمام العام الأول من عمرى ، سقطت من الدرجة الثالثة فى السلم ، فشج جبينى ، كانت جدتى قد ارتادت المسرح ، وكانت بنات عم أبى وأمى يستمتعن على نحو صاخب بهذه الاستراحة ، وانتهزت أمى المناسبة لتصعد بشىء ما إلى الطابق الثانى ، فيما كنت اتبعها ، تعثرت بذيل الكيمونو الذى كانت ترتديه ، فهويت على الدرج .

استدعيت جدتى هاتفيا من مسرح كابوكى . حينما وصلت، مضى جدى ليلقاها ، وقفت عند المدخل دون أن تخلع نعليها . منحنية على العصا ، التى تحملها فى يدها اليمنى ، راحت تحدق فى جدى بنظرة ثابتة ، عندما تحدثت تناهى صوتها هادئا على نحو غريب ، كأنما تنحت كل كلمة تلفظها :

– أمـــــات ؟

– لا .

عندئذ نزعت نعليها ، إجتازت المدخل ، عبرت البهو بخطى واثقة ، تحاكى خطى راهبة ...

صبيحة العام الجديد ، وقبيل عيد ميلادى الرابع ، لفظت شيئا فى لون القهوة ، فاستدعى طبيب العائلة ، بعد أن فحصنى قال بأنه ليس على يقين من أنى سأسترد عافيتى ، حقنت بالكافور

وسكر العنب حتى غدوت كوسادة الدبابيس ، أصبحت النبضات عند رسغى وفى أعلى ذراعى غير محسوسة .

انقضت ساعتان ، فوقفوا يحدقون فى جثمانى .

أعد كفن ، لملمت لعبى الأثيرة ، اجتمع الأقارب كلهم ، انقضت ساعة أخرى تقريبا ، ثم فجأة ظهر البول ، قال خالى ، وكان طبيبا : «إنه حى !» أضاف : إن ذلك يوضح أن القلب استأنف الخفقان .

بعد قليل ، عاود البول الظهور ، تدريجيا استرد خداى نـور الحـياة .

أصبح ذلك المرض – التسمم التلقائى – مزمنا عندى ، يداهمنى مرة كل شهر ، برفق حينا ، وفى خطورة حينا آخر ، واجهت أزمات عديدة ، غدوت قادرا على استشعار ما إذا كانت نوبة ماسترقى بى إلى الموت من عدمه ، من خلال دبيب أقدام المرض ، فيما هو يدنو .

إلى هذا الوقت على وجه التقريب تعود أقدام ذكرياتى ، ذكرى لايعلق بها تساؤل . ما انفكت تطاردنى بصورة نابضة بالحياة ، ومتوهجة على نحو غريب .

لست أدرى ما إذا كانت أمى هى التى تمضى بى ممسكة

بيدى ، ممرضة ، خادم ، أو إحدى عماتى ، لم يكن الفصل محددا كذلك ، تساقطت أشعة شمس الأصيل كابية على الدور المتناثرة على المنحدر ، رحت أتسلق المنحدر ، نحو الدار ، ويد امرأة غائمة الذكرى تمسك بى . أحدهم كان يقبل هابطا المنحدر ، فثنت المرأة ذراعى ، تنحينا عن الطريق ، ومكثنا ننظر على أحد الجانبين .

مامن شك فى أن صورة ما رأيته آنذاك قد اكتست معنى من جديد ، فى كل مرة من المرات التى لا حصر لها ، والتى أعدت النظر فيها من خلالها ، تكاثف زخمها ، وتركزت فى بؤرة النظر ، لأنه عبر المنظور الغامض والضبابى لذلك المشهد لم ينتصب شىء فى جلاء يختل تناسبه مع باقى مكونات المشهد بقدر ما بدا ذلك الشخص المقبل منحدرا عبر التل ، ولم يكن ذلك دونما سبب ، فقد كانت هذه الصورة ذاتها أولى الصور التى قدر لها أن تواصل تعذيبى وبعث الذعر فى نفسى طوال عمرى .

كان فتى شابا ذلك الذى أقبل منحدرا نحونا . متورد الخدين ، لامع العينين ، يعتمر لفافة قذرة من القماش ، ليحول دون انسياب العرق إلى عينيه ، أقبل عبر المنحدر حاملا على أحد كتفيه نيرا مثقلا بدلوين حفلا بسماد بشرى ، راح يوازن ثقلهما فى اقتدار بخطواته . كان جامعا للسماد البشرى ، ملتقطا للبقايا ، يرتدى ملابس كادح ، ينتعل فردتى حذاء ، تطل منهما

أصابع قدميه ، لهما نعلان من المطاط ، وأعلاهما من قماش القنب الأسود ، يكتسى سراويل من القطن . قاتم الزرقة ، من النوع الضيق الذى يدعى بالشداد .

كانت النظرة التى حدجته بها شيئا غير مألوف من طفل فى الرابعة ، وعلى الرغم من أننى لم أدرك الأمر بجلاء فى ذلك الوقت ، فقد مثل هذا الشاب لى كشفى الأول لقوة معينة ، النداء الأول الذى وجهه لى صوت غريب وسرى . ومما له مغزاه أن يتجلى لى هذا فى صورة ملتقط للبقايا ، فالبراز رمز للأرض ، كان العشق الحارق للأرض الأم هو دونما شك الذى يناديني .

راودنى ، عندئذ ، شعور يستبق الأحداث بأن هناك فى هذا العالم لونا من الرغبات يحاكى ألما لاذعا . فيما كنت أحدق فى ذلك الشاب القذر خنقتنى الرغبة ، رحت أفكر : «أريد أن أتغير فأصبح إياه» وأمعن التفكير «أريد أن أكونه» بوسعى أن أتذكر بجلاء أن رغبتى كانت لها نقطتان بؤريتان ، الأولى هى «شداده» القاتم الزرقة ، والأخرى هى مهنته ، كانت السراويل الضيقة تحدد فى وضوح معالم النصف الأسفل من بدنه ، الذى كان ينساب لدنا . بدا لى كما لو كان يسير مباشرة نحوى ، ولد بأعماقى هيام يستعصى على الإفصاح بتلك السراويل ، ولم أفقه لذلك سببا .

أما مهنته ... فى تلك اللحظة ، وعلى النحو ذاته الذى تتملك فيه الأطفال الآخرين بمجرد تلقيهم هبة التذكر الرغبة فى أن يصبحوا قادة عسكريين ، قبض على ناصيتى طموح لأن أغدو جامع بقايا ، ربما يضرب هذا الطموح جذوره إلى حد ما فى السراويل القاتمة الزرقة ، لكن الأمر بالتأكيد لايقتصر على ذلك حصرا . مع مرور الوقت غدا هذا الطموح أكثر عتوا وايغالا فى أعماقى ، وشهد تطورا غريبا .

ما أقصده هو أننى شعرت حيال مهنته بشىء يحاكى أسى نفاذا ، أسى يهصر البدن . منحتنى مهنته الشعور بالمأساة بأكثر معانى الكلمة حسية ، شعور معين بالتخلى عن الذات ، إحساس محدد باللامبالاة ، شعور بعينه بالحميمية مع الخطر . شعور يحاكى مزيجا متميزا من العدم وقوة حيوية ، إندفعت هذه المشاعر كافة من ندائه ، إنقضت علىّ ، فأسرتنى فى الرابعة من عمرى ، لربما كان فهمى لمهنة جامع البقايا يجانبه الصواب ، ربما حدثونى عن مهنة أخرى مختلفة ، ربما ضللنى رداؤه ، فأرغمت على أن أضع عمله فى إطار النموذج الذى سمعت عنه ، لايسعنى فيما عدا ذلك إيضاح الأمر .

لابد أن الأمر كان كذلك ، لأن طموحى حولته تلك الانفعالات ذاتها إلى سائقى الهانا - دينشا ، تلك العربات المرحة

الزخارف والمثقلة بالزهور لأيام الاحتفالات ، أو إلى عمال بطاقات القطارات الأرضية ، فقد أثارت المهنتان فيّ انطباعا قويا بحيوات مأساوية أجهلها ، بدت لى وكأنما حجبت للأبد عني ، كان هذا صحيحا بصفة خاصة فى حالة عمال البطاقات ، فاختلطت فى ذهنى صفوف الأزرار الذهبية على سترات أردية عملهم الزرقاء بالروائح المتدفقة عبر الانفاق فى تلك الأيام ، كانت تحاكى رائحة المطاط أو النعناع ، وتستدعى ما يرتبط فى الذهن بالأمور المأساوية ، شعرت على نحو ما بأنه أمر مأساوى بالنسبة لشخص ما أن يكسب مايقيم أوده وسط مثل هذه الرائحة ، شكلت ضروب الوجود والأحداث التى تقع دون أن يكون لها علاقة بى ، والتى تحدث فى أماكن لم تكن تخاطب حواسى فحسب ، وإنما كانت فضلا عن هذا محظورة علىّ ، بالاضافة إلى الأشخاص المنغمسين فيها ، تعريفى للأمور المأساوية ، بيد أن حزنى إزاء الحيلولة بينى وبينها قد تحول فى أحلامى إلى حزن على أولئك الأشخاص وطرق حياتهم ، وأنه من خلال حزنى وحده كنت قادرا على مشاركتهم ضروب وجودهم .

إذا كان الأمر كذلك ، فإن مايدعى بالأمور المأساوية ، والتى شرعت فى ادراكها ، ربما لم تتجاوز كونها ظلالا ألقاها التجلى العابر للحزن ، والذى سيتعاظم فى المستقبل . والنابع من

انعزال أكثر اتساما بالوحدة ، كان لايزال فى انتظارى ...

هناك ذكرى باكرة أخرى ، تدور حول كتاب مصور ، ورغم أننى تعلمت القراءة والكتابة فى الخامسة من عمرى ، فإننى لم أستطع قراءة الكلمات فى ذلك الكتاب ، من هنا فلابد أن هذه الذكرى بدورها تعود إلى سن الرابعة .

كان لدىَّ عديد من الكتب المصورة ، لكن خيالى لم ينفرد بالسيطرة عليه تماما إلا هذا الكتاب ، إلا صورة واحدة فيه ، كانت تجعل عينىَّ مفتوحتين عليها دائما ، استطعت أن أقضى أصائل طويلة ومضجرة أحدق فيها ، ومع ذلك فما أن يقبل أحد حتى يراودنى شعور بالذنب ، دونما سبب ، فأهرع إلى تقليب الكتاب إلى صفحة مختلفة ، كانت يقظة المرضة أو الخادم فى مراقبتى تضايقنى ، على نحو لايطاق ، فساورنى الحنين إلى حياة تسمح لى بالتحديق فى الصورة طوال اليوم ، ما إن كنت التفت إلى هذه الصفحة حتى يتسارع وجيب قلبى ، ومامن صفحة أخرى عنت شيئا لى .

كانت الصورة تمثل فارسا نبيلا يمتطى صهوة جواد أبيض ويمتشق حساماً . كان الجواد ، وقد اتسعت خياشيمه ، يفحص الأرض بقوائم عفية ، وثمة شعار بديع للنبالة يوشى الدرع الفضى الذى يسبغه الفارس على بدنه ، ويطل وجه النبيل الفاتن عبر

مقدمة النموذج ، فيما يلوح بسيفه المسلول على نحو مخيف فى السماء الزرقاء ، مواجها الموت ، أو على الأقل شيء مندفع ينضح قوة شريرة ، كنت اعتقد أنه سيلقى مصرعه فى اللحظة التالية ، فإذا ما سارعت بتقليب الصفحة فيقينا سأراه هناك يلقى مصرعه يقينا ثمة ترتيب يمكن بمقتضاه ، ، وقبل أن يعرف المرء الأمر ، تحويل الصور فى الكتب المصورة لتمثل «اللحظة التالية» ...

لكن المصادفة جعلت ممرضتى تفتح الكتاب على تلك الصفحة ، فيما كنت أختلس نظرات جانبية سريعة إليها ، قالت :

– أيعرف السيد الصغير حكاية هذه الصورة ؟

– لا ، لا أعرفها .

– إنها تبدو كالرجال ، لكنها امرأة ، صحيح ، وأسمها جان دارك ، تقول القصة إنها انطلقت للحرب في رداء الرجال ، وعلت بشأن بلادها .

– امرأة ...؟

أحسست كما لو أن ضربة أصابتنى ، فألقتنى صريعا ، كان الشخص الذى ظننته رجلاً امرأة ، فإذا كان هذا النبيل بهى الطلعة امرأة فما الذى يبقى ؟ (لازلت حتى اليوم استشعر اشمئزازا ضارب الجذور عصى التفسير حيال النساء اللاتى

يرتدين ملابس الذكور) كان هذا هو أول «إنتقام من خلال الواقع» ألقاه في الحياة ، بدا لي انتقاما قاسيا ، خاصة عقب التصورات العذبة التي راودتني حول موته . منذ ذلك اليوم لم ألق بالا إلى ذلك الكتاب المصور ، لم أحمله بين يدي أبدا مرة أخرى . وقدر لي أن أكتشف ، بعد سنوات ، تمجيدا لموت نبيل بهي الطلعة في مقطع شعري لأوسكار وايلد يقول :

بهي هو الفارس الذي يرقد ذبيحا

وسـط الأسـل والقصـب ...

في روايته بعنوان «السفح» يناقش يوسمان شخصية جي ديري ، حارس جان دارك الخاص ،بمقتضى الأمر الملكي الذي أصدره شارل السابع ، فيقول إن الدافع الأصلي لنزعته الصوفية قد إنبعث من مشاهدته بعيني رأسه الأعمال التي اجترحتها جان دارك ، وذلك علي الرغم من أن هذا الدافع سرعان ما ارتكس الى «أكثر ضروب القسوة تعقيدا وأفظع الجرائم» وعلى الرغم من أنها كان لها تأثير مناقض بالنسبة لي ، حيث كانت تثير فيّ شعورا بالاشمئزاز ، فإن عذراء أوليان لعبت كذلك دورا مهما في حالتي ..

ثمة ذكرى أخرى أيضا ، هي رائحة العرق ، وهي رائحة كانت تدفعني إلى أعماقي ، وتثير أشواقي ، فتقهرني ..

منصتا أسمع صوت جلبة مكتومة وبالغة التهافت ، تبدو كما لو كانت وعيدا ، هنيهة ويشارك بوق فى الضجيج ، يتناهى صوت غناء بسيط حزين على نحو غريب ، أجذب يد الخادم ، أحثها لتسرع الخطى ، أتوهج رغبة فى الوقوف عند البوابة ، وقد شبكت ذراعيها حولى .

كان الجنود يمرون ببوابتنا عائدين من التدريب ، وهم مولعون بالأطفال . كنت أتوق دوما إلى تلقى بعض الطلقات الفارغة منهم ، ولما كان جدى قد منعنى من قبول هذه الهدايا ، قائلا إنها خطرة ، فقد شحذت مباهج الاختلاس ترقبى ، فى الوطء الثقيل لأحذية الجيش والأزياء العسكرية الملطخة وغابة البنادق التى تعلو الكواهل الكفاية ليفتتن أى طفل تماما ، لكن رائحة عرقهم التى كانت تفتننى ، مشكلة مثيرا يقبع خفيا فى أغوار أملى فى أن أتلقى منهم الطلقات الفارغة .

رائحة عرق الجنود ، تلك الرائحة التى تحاكى نسيم البحر ، كالهواء وقد احترق فاستحال نضارا فوق الشاطىء ، كانت تلطم خياشيمى ، وتسمم دمى . لربما كانت تلك أولى ذكرياتى عن الروائح ، ومن الغنى عن البيان أن الرائحة ما كان يمكن أن تكون لها فى ذلك الوقت علاقة مباشرة بالأحاسيس الجنسية ، لكنها تدريجيا وفى عناد أثارت فىّ توقا حسيا إلى أمور

من نوعية مصير الجنود والطبيعة المأساوية لندائهم ، والأصقاع النائية التى يرونها ، والطرق التى يلقون حتفهم بها ...

هذه الصور الغريبة كانت أول الأشياء التى واجهتها فى الحياة ، منذ البداية انتصبت أمامى فى صمت اكتمالها المهيمن ، لا ينقصها شىء واحد ، وفيما بعد كنت أنظر إليها بحسبانها ينابيع مشاعرى وتصرفاتى ، ومجدداً ماكان ينقص شىء .

أبدا لم تنحرف أفكارى عن الوجود الانسانى . منذ الطفولة مرة واحدة عن نظرية القديس أوجستين فى القضاء والقدر . عذبتنى شكوك لا طائل وراءها مرارا وتكرارا - على نحو ماتواصل تعذيبى اليوم - لكننى نظرت إلى مثل هذه الشكوك باعتبارها نوعا آخر من الاغراء باقتراف الخطيئة ، وظللت على يقينى بآرائى الجبرية . لقد أعطيت ، ومازلت أصغر من أن أطالع ما منحت ، مايمكن أن يدعى بقائمة كاملة تضم كافة المتاعب فى حياتى ، بل دون فى هذه القائمة قيامى بتدبيج كتاب غريب كهذا على وجه الدقة ، وكان هناك أمامى ناظرىّ منذ البداية .

مرحلة الطفولة ساحة يتشابك فيها الزمان والمكان ، فهناك على سبيل المثال الأنباء التى أتلقاها عن الكبار حول وقائع تجرى فى أصقاع شتى - ثورة ، بركان ، أو لنقل انتفاضة جيش -

والأمور التى تحدث أمام عينى – نوبات مرض جدتى ، أو منازعات العائلة الصغيرة – والأحداث الخيالية لعالم الأقاصيص الخرافية ، الذي شرعت وقتذاك في الانغماس فيه . بدت لي هذه الأمور الثلاثة دائما متكافئة القيمة كأنها الكل فى واحد . لم يكن بمقدورى تصديق أن العالم يفوق في التعقيد بناء سكنياً ، أو أن مايسمى بالكيان الاجتماعى الذى يتعين علىّ فى التو أن ألجه يمكن أن يكون أكثر ابهارا من عالم الأقاصيص الخرافية ، هكذا شرعت إحدى القوى التى قررت حياتى تمارس عملها دون أن أدرى ، وبسبب صراعى معها منذ البداية ، امتزجت كافة تصوراتى باليأس ، الذى كان غريباً فى إطباقه ، ويحاكى فى ذاته رغبة مفعمة بالعاطفة .

ذات ليلة ، رأيت وأنا أطل من فراشى مدينة متألقة ، تطفو عبر رحاب الظلام ، الذى يجثم حولى ، بدت غريبة لاتزال ، ومع ذلك تتدفق بريقا وغموضا استطعت أن ألمح بوضوح لمسة صوفية ترتسم على ملامح الأشخاص فى تلك المدينة ، كانوا كبارا ، يعودون إلى الدور فى قلب الليل ، ومازالوا يحملون فى الحديث أو الإيماء آثار شيء كالإشارات السرية وردودها ، شيء يقطر سرية فضلا عن هذا برق في ملامحهم وهن ألاق ، جعلهم يخشون أن يحدق فيهم أحد ملء عينيه ، كما هو شأن الأقنعة التى توضع على

الوجوه فى مسرح العطلات ، والتى تخلف مسحوقا فضيا على أطراف الأصابع حين يلمسها المرء ، بدا لى أننى لو استطعت فحسب أن ألمس وجوههم ، لكان بمقدورى أن أكتشف لون الأصابع التى طلتهم بها المدينة الليلية .

فى التو ، رفع الليل أمام عينى مباشرة ستارا كشف النقاب عن خشبة المسرح التى كانت شوكوكيوساى تنكاتسو تؤدى فوقها ألعابها السحرية (كانت آنئذ فى واحدة من مرات ظهورها النادرة على المسرح فى مقاطعة شنجوكو ، وعلى الرغم من أن استعراض الساحر دانتى ، الذى شاهدته فى المسرح ذاته عقب ذلك بسنوات كان على نطاق يفوق عرضها بكثير ، فإن أياً من دانتى أو العرض الشامل لسيرك هاجنبيك لم يفلح فى ادهاشى ، على نحو مانجحت مشاهدتى الأولى لتنكاتسو) .

كانت تتكىء فى تكاسل على خشبة المسرح ، وقد ألتف بدنها الوافر فى أثواب كأثواب البغى الكبرى يوم الدينونة ، وعلى ذراعيها التمعت أساور تكومت فوقها الأحجار الكريمة الزائفة ، كانت زينتها ثقيلة ، مثل زينة مغنيات الأهازيج الشعبية ، بطبقة من المسحوق الأبيض تمتد حتى أطراف أظافر قدميها ، وانسدل عليها رداء مبهرج ، أسلمها إلى ضرب من الرونق الحيوانى ، لاينعكس إلا عن إدعاء تجارى كاذب . رغم ذلك فإن هذا كله حقق

بشكل ما نوعا من التناسق على نحو سوداوى مع تفاخرها النابع من شعورها بالأهمية ، الذى يتميز به السحرة والنبلاء المنفيون على السواء ، ومع فتنتها الكئيبة ، ومظهرها البطولى . لقد أنبتت الحبة الرقيقة للظل الذى ألقته هذه العناصر المجردة من التناسق وهمها المذهل والفريد عن التناسق .

أدركت ، وإن يكن على نحو غامض ، أن الرغبة فى أن «أغدو تنكاتسو» وأن «أصبح سائق حافلة عامة» تختلفان من حيث الجوهر ، وكان أبرز تباين بينهما هو الحقيقة القائلة بأن التوق فى حالة تنكاتسو إلى «السمة المأساوية» كان غائبا كلية على وجه التقريب ، فلم يكن علىّ فى غمار رغبتى فى أن أصبح تنكاتسو أن أتذوق ذلك الخليط المرير من الحنين والعار . مع ذلك ، فقد تسللت، ذات يوم ، محاولا ما وسعتنى حيلتى أن أسكن دقات قلبى الخافقة إلى حجرة أمى ، وفتحت أدراج خزانة ثيابها .

سحبت من بين أثواب أمى أكثرها جمالا ، كيمونو تصبغه أكثر الألوان جرأة . وأخترت أوبى[1] تعلوه زهور زيتية فاقعة الحمرة كزنار لى ، لففته حول خصرى مرات عديدة ، كما يفعل باشا تركى ، غطيت رأسى بغطاء من قماش الكريب الصينى .

(١) الأوبى زنار يابانى عريض . (هـ . م).

تألق خداى بحمرة سرور وحشى ، حينما وقفت أمام المرآة ، ورأيت أن ما اعتمرته يحاكى ما يعتمره القراصنة فى «جزيرة الكنز» .

لكن عملى لم يكن قد انتهى بعد ، كان من الضرورى جعل كل التفاصيل حتى أطراف أظافر أصابعى جديرة بإبداع الأحجية. دفعت بمرآة يد فى زنارى ، وضعت المساحيق ثقيلة على وجهى ، ثم سلحت نفسى بمشعل كهربى فضى اللون وقلم عتيق الطراز من معدن مثقل بالزخارف وأى شىء آخر لفت نظرى .

اصطنعت الوقار ، إندفعت على هذا النحو إلى غرفة جلوس جدتى . فى غمار عجزى عن كبت ضحكى وسرورى المهتاجين ، إندفعت أعدو فى الغرفة صائحا :

«أنا تنكاتسو ! إياى ، أنا تنكاتسو !»

كانت جدتى هناك طريحة الفراش ، وأمى أيضا ، وزائرة ، وخادم عهد إليها بالعناية بالغرفة ، لكن شخصا واحدا لم يلح أمام عينى ، وتركزت نوبتى على الوعى بأنه من خلال تشخيصى كانت تنكاتسو تتجلى أمام أعين عديدة ، وباختصار لم أكن أرى إلا نفسى .

ثم تصادف أن لمحت وجه أمى ، كان الشحوب قد علاها قليلا ، جلست هناك ببساطة ، كأنما جالت بأفكارها بعيدا ، إلتقت

نظراتنا ، فغضت ناظريها .

فهمت . أغشت الدموع ناظرىّ .

ماهو ذلك الذى فهمته أو أوشكت على فهمه ؟ هل ظهر هنا الدافع الذى سيتجلى فيما بعد أى «الندم كمقدمة للخطيئة» فى أولى إشارات بدايته ؟ أم ترى كانت هذه اللحظة تعلمنى إلى أى حد ستبدو عزلتي غريبة للعيون المحبة ؟ أكنت أتعلم فى الوقت نفسه من الجانب المعكوس لهذا الدرس عجزى عن تقبل الحب ؟...

أمسكت بى الخادمة فى إحكام ، وصحبتنى إلى غرفة أخرى ، وفى لحظة وكأنما كنت دجاجة يتعين نزع ريشها . جردتنى من زيى التنكرى المفرط فى الخيال .

تفاقم ولعى بمثل هذه الأردية ، حينما شرعت فى ارتياد دور السينما ، واستمر على نحو ملحوظ حتى التاسعة من عمرى .

ذات مرة مضيت مع صبى يعمل بالدار فى الوقت الذى يواصل فيه الدراسة لمشاهدة فيلم عن أوبريت «فرادياڤولو» . وكان الممثل الذى يقوم بدور دياڤلوا يرتدى ثوبا للتشريفة لا ينسى ، ذا سلسلة من شرائط الزينة عند الرسغين ، وحينما قلت إننى أود ارتداء ثوب كهذا ووضع شعر مستعار يحاكى شعر ذلك الممثل ، انفجر رفيقى فى الضحك ساخرا ، رغم ذلك كنت أعلم أنه كان

يسلى الخادمات فى جناحهن فى الغالب بمحاولات تقليد شخصية الأميرة يجاكى فى الكابوكية المعروفة . (١)

فتنت بكليوباترا بعد تنكاتسو . ذات يوم رقشه الجليد فى نهاية شهر ديسمبر ، استجاب طبيب تربطه صداقة بالعائلة لتوسلاتى ، وصحبنى لمشاهدة فيلم عنها ، ولما كان العام يدنو من نهايته كان عدد النظارة محدودا ، فوضع الطبيب قدمه على الحاجز ، وغرق فى النوم ، وحيدا رحت أتطلع فى حدة مفتون اللب تماما ، كانت ملكة مصر تدخل روما مرفوعة عاليا فوق محفة عتيقة الطراز ، بديعة الصنع ، تحملها كواهل رهط من العبيد ، عينان حزينتان ، يعلو ظل العيون كثيف الجفون ، زينتها التى تبدو منتمية إلى عالم آخر ، ثم جسدها نصف العارى ، الكهرمانى اللون ، يتراءى للعيون ، مجترحاً الخروج من سجادة فارسية .

فى هذه المرة راوغت أعين جدتى ووالدىّ ، وبمساعدة أختى وأخى الصغيرين الذين تواطآ معى ، وفى غمار بهجة عارمة ، عكفت على محاكاة كليوباترا فى زيها وزينتها . ما الذى كنت أرجوه من وراء هذا الرداء الأنثوى ؟ لم أكتشف إلا بعد ذلك بوقت طويل آمالا تحاكى تلك التى راودتنى ، وذلك عند هيلوجابالوس

(١) الكابوكية مسرحية يابانية شعبية يصحبها غناء ورقص (هـ . م).

إمبراطور روما فى عهد تحللها ، الذى ألحق الدمار بآلهتها القدامى ، ذلك الامبراطور المتحلل ، بهيمى الطباع .

مثّل جامع البقايا ، وعذراء أورليان ، ورائحة العرق المنبعثة من الجنود نوعا من الاستهلال لحياتي ، وشكلت تنكاتسو وكليوباترا استهلالا آخر ، وثمة استهلال ثالث ينبغى أن أتحدث عنه .

على الرغم من أننى فى طفولتى طالعت كل الأقاصيص الخرافية التى استطاعت يداى الوصول إليها . فلم يحدث أبدا أن أحببت الإميرات ، كنت مولعا بالأمراء فحسب ، وأكثر ولعا بالأمراء الذين يلقون مصرعهم ، أو قدر لهم الموت ، أحببت حبا جما أى شاب يلقى منيته صريعا .

لكننى لم أفقه لِمَ ألقت قصة «عفريت الورد» - من بين أقاصيص أندرسون جميعها ظلالا غائرة على قلبى ، وحده ذلك الفتى الجميل ، الذى أطاح شرير برأسه مستخدما سكينا هائلة ، فيما كان هو يقبل وردة منحتها له حبيبته هدية - أثر فى نفسى . لم أفهم السبب فى أنه من بين أقاصيص وايلد العديدة لم تأسرنى إلا جثة الصياد الشاب فى قصة «ألصياد وروحه» ، وقد ألقتها الأمواج على الشاطىء ضامة إلى الصدر عروس بحر .

ومن الطبيعى أننى كنت مولعا بما فيه الكفاية كذلك بالأمور الطفولية الأخرى ، فهناك قصة «البلبل» لأندرسون التى أحببتها كثيرا ، كما أبهجنى العديد من كتب الأطفال الفكاهية ، لكن ميل قلبى إلى الموت والليل والدم كان أمرا لاينكر .

طاردتنى رؤى «الأمراء الصرعى» فى عناد . منذا كان بوسعه أن يفسر لى لماذا كنت أبتهج بتصورات ترتبط فيها السراويل الضيقة التى تكشف الجسد والتى يرتديها الأمراء بمصارعهم القاسية ؟ هناك قصة خرافية مجرية أذكرها بنوع خاص فى هذا الصدد ، وقد أسرت قلبى لفترة طويلة لوحة تصور تلك القصة بواقعية مفرطة .

كانت اللوحة المطبوعة بألوان بدائية تصور الأمير مرتديا سراويل سوداء وسترة وردية اللون ، توشيها زخارف منسوجة بالذهب على الصدر ، وعلى كتفيه تدلت حرملة قاتمة الزرقة ، يتألق فيها خط متوهج الحمرة ، ويلتف حول خصره حزام ، يجمع بين اللونين الأخضر والذهبى ، كان مزودا بخوذة خضراء مذهبة ، وسيف فاتح الحمرة ، وجعبة من الجلد الأخضر ، أما يده اليسرى ، التى علاها قفاز من الجلد الأبيض ، فكانت تمسك بقوس ، فيما جثمت يده اليمنى على أحد فروع شجرة عتيقة من أشجار الغابة . كان ينظر بمحيا جاد آمر إلى العنق المخيف للتنين

الهائج ، الذى كان يوشك أن ينقض عليه . ارتسم على ملامحه عزم من يوشك على ملاقاة الموت ، ولو أن ذلك الأمير قدر له أن يخرج من نزاله مع التنين ظافراً ، فما أضعف ما كان يمكن أن يكون عليه افتتانى به ، لكنه لحسن الحظ كان مقدرا له أن يموت .

غير أن قدر الموت الذى كتب له لم يكن لأسفى كاملاً ، فلكى ينقذ أخته ويتزوج أميرة جميلة كان عليه أن يتحمل سبع مرات محنة الموت ، وبفضل القوى السحرية التى تتمتع بها ماسة كان يضعها فى فمه ، بعث سبع مرات ، وأخيرا عاش سعيدا بعد ذلك .

صورت اللوحة مشهدا يسبق الموت الأول مباشرة ، حيث يلتهم التنين الأمير ، وعقب ذلك «أمسكت به عنكبوت هائلة ، وإثر تسميم جسمه بالسم تماما التهم فى نهم» ، من جديد أغرق ، وجرى شيه فى النار ، ولدغته الزنابير ، وعضته الثعابين ، وألقى جسده إلى حفرة حفلت بعدد لا يمكن التعبير عنه من السكاكين الهائلة المشرعة ، وسحقته حتى الموت صخور لا حصر لها تهاوت متساقطة عليه «منهمرة كالمطر» .

ووصف موته من خلال التهام التنين له بتفصيل خاص :

«دون إحجام للحظة واحدة ، مضغ التنين الأمير بشراهة فأحاله أشلاء ، كان ذلك يفوق مايسعه احتماله على وجه التقريب ،

لكن الأمير استجمع أطراف شجاعته ، وتحمل العذاب فى صمود حتى مضغ كلية أخيرا إلى مزق ، وعندئذ وفى لمحة أعيد فجأة تجميعه ثانية ، فقفز فى براعة من فم التنين ، لم يكن هناك خدش واحد فى أى موضع من جسده ، والتنين هوى إلى الأرض ، ومات فى موضعه .»

قرأت هذه الفقرة مئات المرات ، لكن العبارة القائلة : «لم يكن هناك خدش واحد فى أى موضع من جسده» بدت لى خللا لا يمكن أن يمضى دون تصد له ، شعرت لدى مطالعتها بأن المؤلف خذلنى ، وارتكب خطأ خطيراً فى وقت واحد .

وسرعان ما توصلت بالصدفة إلى اكتشاف ، وتمثل هذا الاكتشاف فى قراءة الفقرة مع اخفاء المقطع التالى تحت يدى : «أعيد فجأة تجميعه ثانية ، فقفز فى براعة من فم التنين ، لم يكن هناك خدش واحد فى موضع من جسده ، أما التنين» وعند ذلك ستصبح القصة مثالية فى سردها على النحو التالى :

«دون إحجام للحظة واحدة ، مضغ التنين الأمير بشراهة ، فأحاله أشلاء ، كان ذلك يفوق ما يسعه احتماله على وجه التقريب ، لكن الأمير استجمع أطراف شجاعته ، وتحمل العذاب فى صمود حتى مضغ كلية أخيراً إلى مزق ، وعندئذ وفى لمحة هوى إلى الأرض ، ومات فى موضعه .»

كان حريا بأحد الكبار على وجه اليقين أن يرى عبث مثل هذا المنهاج فى تقطيع النص ، بل إن ذلك الرقيب الصغير المتشدد رصد التناقض الكامل بين القول بأن الأمير مضغ كلية إلى مزق والقول بأنه هوى إلى الأرض ، لكن تصوراته فتنته فى يسر ، ووجد أنه لايزال من المستحيل نبذ أى من العبارتين .

من ناحية أخرى داخلتنى البهجة فى غمار تصور مواقف كنت أنا نفسى ألقى مصرعى فيها خلال معركة أو أقتل غيلة ، ومع ذلك كنت أخشى الموت بصورة غير عادية ، وعلى نحو قوى ، كنت أستأسد على إحدى الخادمات فى أحد الأيام حتى ادفعها إلى البكاء وفى صباح اليوم التالى أراها تقدم طعام الافطار بوجه باسم على نحو مرح ، وكأنما لم يحدث شىء ، عندئذ كنت أطالع كافة المعانى الشريرة فى ابتساماتها ، ما كنت لأصدق إلا أن هذه الابتسامات هى ابتسامات شيطانية تنبع من الثقة الكاملة بالفوز . كنت على يقين بأن الخادمة تتآمر لدس السم لى فى الطعام بدافع الانتقام ، راحت أمواج الخوف تزمجر فى صدرى ، تيقنت أن السم قد دس فى صحفة الحساء ، وما كنت لأمسها ، ولو منحت مقابلها العالم كله . انهيت عديدا من مثل هذه الوجبات ، بالقفز عن المائدة والتحديق فى الخادمة ، وكأنما لأقول لها :

«هكذا !» . بدا لى أن المرأة بلغ بها الاستياء لإحباط خططها لتسميمى الحد الذى لا تستطيع معه النهوض ، وإنما

التحديق فحسب عبر المائدة إلى الحساء الذى غدا باردا تماما ، وطفا بعض الغبار على سطحه ، وتحديث نفسها بأننى تركت الكثير منه بحيث أن السم لن يسرى مفعوله .

حظرت جدتى علىّ اللهو مع أطفال الحى خوفا على صحتى الهشة ، وكذلك لمنعى من تعلم أمور سيئة منهم ، وباستثناء الخادمات والمرضات كانت رفيقاتى فى اللهو ثلاث طفلات اختارتهن جدتى من فتيات الحى . كان أدنى ضجيج يؤثر على ألم جدتى العصبى . كالفتح أو الإغلاق العنيفين للباب . النفخ فى لعبة على هيئة بوق ، المصارعة ، أو إحداث أى صوت مسموع ، أو اهتزاز من أى نوع ، وتعين أن يصبح لهونا أكثر هدوءا حتى عما هو مألوف بين الفتيات الصغيرات ، كنت أفضل على هذا كثيرا أن انفرد بنفسى وأطالع كتابا ، ألهو بمكعبات البناء ، أنغمس فى أخيلتى التواقة ، أو أرسم بعض الصور ، وحينما ولدت أختى وأعقبها أخى لم يعهد بهما إلى جدتى على نحو ما حدث لى ، وحرص أبى على تنشئتهما بحرية تلائم الأطفال ، ومع ذلك لم أحسدهما كثيرا على حريتهما وفظاظتهما .

لكن الأمور كانت تختلف حينما أمضى لزيارة دور أبناء أعمامى ، عندئذ كنت أدعى ولدا ، ذكرا . وقعت حادثة ينبغى أن تروى فى مطالع ربيع عامى السابع ، قبيل إلتحاقى بالمدرسة الابتدائية خلال زيارة دار إحدى بنات عمومتى وسأدعوها هنا

رمزا باسم سوجيكو . لدى وصولنا إلى هناك ، وكانت جدتى قد اصطحبتنى معها ، رقت بى والدة ابنة عمتى إلى عليين ، بما أمطرتنى به من آيات الثناء قائلة : «لكم كبر ! يا للضخامة التى غدا عليها !» وبلغ من سرور جدتى لهذا الثناء الحد الذى منحتنى معه إعفاء خاصا . كانت حتى ذلك الوقت تخشى هجمات التسمم الذاتى المتكررة التى سبق لى أن أشرت إليها ، حتى أنها منعتنى من تناول كافة الأسماك «ذات الجلد الأزرق» وحدد طعامى بدقة ، فلم يسمح لى من الاسماك إلا بتناول الأنواع ذات اللحم الأبيض ، مثل الهلبوت ، أو سمك الترس ، أو النهاش الأحمر ، ومن البطاطس لم يصرح لى بغير المهموك منها والمصفى بمصفاة الطعام ، ومن الحلوى حظرت علىّ كافة أنواع المربى ذات البذور ، وما أتيح لى إلا الرقائق الخفيفة وأنواع الفطير الهشة ، وما إلى ذلك من الحلوى الجافة ، ومن الفواكه لم يسمح لى إلا بالتفاح المقطع إلى شرائح رفيعة أو قطع صغيرة من اليوسفى . من هنا فقد تناولت فى هذه الزيارة أول سمكة لى من نوات الجلد الأزرق ، وكانت سمكة صفراء الذيل ، التهمتها بغبطة هائلة ، كان مذاقها الطيب يعنى بالنسبة لى أننى قد سمح لى بتلقى أول حقوق الكبار التى أنالها ، لكنها فى الوقت نفسه خلفت لى نكهة مريرة على طرف لسانى ، قوامها الشعور بعدم الارتياح ، وهو شعور انتابنى

إذ أصبحت من الكبار ، ومازال يردنى إلى إحساس بعدم الارتياح كلما تذوقت ذلك السمك .

كانت سوجيكو فتاة تفيض صحة ، مفعمة بالحياة ، لم أستطع أنا ذاتى المضى للرقاد بسهولة ، وحينما كنت أمكث فى دار سوجيكو ، وأرقد فى الغرفة ذاتها وعلى حشية قريبة من حشيتها ، اعتدت أن أراقب ، بمزيج من الحسد والاعجاب ، الكيفية التى تغط بها فى النوم دائما لحظة أن تضع رأسها على الوسادة ، تماما كأنها آلة .

أتيح لى فى دار سوجيكو أضعاف ما يتاح لى فى دارى من حرية ، حيث لم يكن الاعداء الوهميون الذين من المحتم أنهم يرغبون فى انتزاعى خلسة – ولنقل باختصار والداى – موجودين فلم يكن لدى جدتى ماتخشاه من منحى المزيد من الحرية ، فلم تكن هناك حاجة إلى إبقائى فى متناول عينيها ، كما هو الحال فى الدار .

رغم ذلك لم يكن بمقدورى الاحساس بالبهجة فى غمار هذه الحرية التى أتيحت لى ، ومثل مريض يخطو خطواته الأولى فى دور النقاهة ، راودنى شعور بالتصلب ، كما لو كنت أتحرك تحت اجبار التزام وهمى . إفتقدت فراش خمولى ، وفى هذه الدار كان من المطلوب على نحو ضمنى أن أتصرف كما يتصرف الصبيّة ، لقد

بدأ التفكير الوئيد المتردد . كنت فى هذا الوقت قد شرعت على نحو غامض فى فهم آلية الحقيقة القائلة بأن ما ينظر اليه الناس باعتباره ادعاء من جانبى هو بالفعل تعبير عن حاجتى إلى تأكيد طبيعتى الحقة ، وأن مايراه الناس حصرا على أنه ذاتى الحقيقة لايعدو أن يكون تنكرا .

كان هذا التنكر الإرغامى هو الذى جعلنى أقول :

- هيا ، لنلعب لعبة الحرب ! .

وبما أن رفيقتىّ كانتا بنتين ، أى سوجيكو وابنة عم أخرى ، فإن لعبة الحرب لم تكن باللعبة المناسبة ، ومع ذلك فإن المحاربتين الامازونيتين اللتين كانتا خصمىّ لم تظهرا إلا المزيد من الحماس . كان السبب الذى دفعنى لاقتراح هذه اللعبة يكمن كذلك فى شعورى المرتكس بالواجب الاجتماعى ، فباختصار كنت أشعر بأننى لاينبغى أن أتزلف إلى البنتين ، وإنما علىّ بشكل ما أن أجعلهما تمضيان وقتا حافلا بالضيق والمشقة .

وعلى الرغم من أننا جميعا كنا نشعر بالضيق والضجر ، فقد واصلنا لعبة حربنا المتخبطة ، داخل الدار الغارقة فى عتمة الغسق وخارجها ، كانت سوجيكو كامنة وراء شجيرة تقلد لعلعة مدفع رشاش :

- بانج ! بانج ! بانج !

أخيراً قررت أن الوقت قد حان لوضع نهاية للأمر ، وشرعت فى عدو جنونى نحو الدار ، أقبلت المحاربتان مسرعتين خلفى مطلقتين سيلا متواصلاً من صرخات تقليد الرشاشات . أمسكت بقلبى ، وانهرت مترنحا وسط غرفة الاستقبال .

تساءلوا مقبلين علىّ بوجوه علاها القلق : ماذا جرى ياكوتشان ؟ أجبت دون أن أفتح عينى أو أحرك يدى : إننى أموت فى ساحة المعركة .

أبهجنى بلا حدود تصور جسدى مسجى هنا ملتويا وهامدا ، كانت هناك بهجة تتحدى الكلمات فى أن أكون قد صرعت بالرصاص وعلى وشك الموت . خيل الىّ أنه بما أننى أنا الراقد هناك فلن يكون ثمة ألم يقيناً ، حتى وإن أصابتنى طلقة رصاص ...

ياالسنوات الطفولة ...

تنداح ذاكرتى نحو مشهد قد يكون رمزا لهاتيك السنين ، فذلك المشهد يمثل لى اليوم بما أنا عليه الطفولة ذاتها ، ماضيا لا سبيل إلى استعادته . حينما رأيت المشهد أحسست بيد الوداع التى ستلوح لى بها الطفولة بين يدى رحيلها ، راودنى هاجس فى

تلك اللحظة بأن شعورى بالزمن الذاتى أو إنعدام الزمن قد ينبثق ذات يوم من أعماقى ، فيغمر سطح ذلك المشهد ، ليصبح تقليدا دقيقا لناسه ، وحركاته ، وأصواته ، التى تنطلق عفوية مع إكتمال هذه النسخة ، وقد يذوب الأصل بعيدا منداحا إلى رؤى الزمن الموضوعى النائية ، وأننى قد أترك دونما شىء إلا التقليد وحده ، أو لطرح الأمر على نحو آخر ، قد أترك دونما شىء يتجاوز نموذجا أجوف دقيق الشبه لطفولتى .

يعانى الجميع مثل هذا الحادث فى طفولتهم ، غير أنه فى معظم الأحوال يتخذ صورة مخففة ، لا تستحق حتى أن تدعى حادثا ، حتى ليمكنها أن تنقضى دونما ملاحظة .

وقع المشهد الذى أتحدث عنه حينما تدفق جمع حاشد ، يحتفل بمهرجان الصيف ، مارا عبر بوابتنا .

أقنعت جدتى ، من أجلى وبسبب قدمها العرجاء معاً ، رجال الإطفاء بالحى أن يرتبوا الأمر بحيث تمر مواكب المهرجان الخاصة بالمنطقة على امتداد الشارع أمام بوابتنا ، كان هناك أصلاً طريق محدد تسلكه مسيرات المهرجانات ، لكن كبير الإطفائيين تكفل بترتيب تعديل هين فى المسار كل عام ، وأصبح مألوفا أن يمروا بدارنا .

فى هذا اليوم المحدد كنت أقف أمام البوابة مع قاطنى الدار الآخرين ، فتحت البوابة المزخرفة على نحو جميل بأسياخ حديدية مصاغة كأوراق الشجر على مصراعيها ، ونثر الماء بديعا على الأحجار المنحدرة خارجها ، وأخذ دوى الطبول المتردد يقترب .

عبر الضجيج المتشابك للمهرجان ، تناهى نغم ترتيلة حزين ، لم تتمايز الكلمات فى خضمه إلا تدريجيا ، مفصحة عما يمكن أن يوصف بأنه الموضوع الحق لهذه الضجة ، التى تبدو ظاهريا مجردة من المعنى ، نحيب إزاء التضافر البالغ الفجاجة للإنسانية والأبدية الذى لايمكن استدعاؤه إلا عبر فجور متشح بالدين كهذا . استطعت تدريجيا أن أميز فى خضم الكتلة المتشابكة من الأصوات الرنين المعدنى المنبعث من الأجراس المعلقة بعصا يحملها كاهن على رأس الموكب ، وزئير الطبول المجمجم ، وخليط الصيحات الإيقاعية التى يهتف بها الشباب ، الذين يرفعون المحمل المقدس . خفق قلبى على نحو خانق ، حتى ما عاد بوسعى الوقوف (من يومها والتوقع العنيف يسبب لى الكرب دائما لا الفرحة) .

كان الكاهن الذى يحمل العصا يضع على وجهه قناع ثعلب ، ثبتت العينان الذهبيتان لهذا الحيوان الغيبى نفساهما بتعمد بالغ علىّ . كأنما لتسحرانى ، ومرّ الموكب أمام عينىّ فبعث

فىّ بهجة شبيهة بالرعب ، وقبل أن أدرك ما أنا فاعل شعرت بنفسى أتشبث بأطراف تنورة من لست أدرى من نساء دارنا ، والتى كانت واقفة إلى جوارى . كنت على استعداد للهرب لدى بروز أول حجة (منذ تلك الأيام كان هذا هو موقفى الذى واجهت به الحياة دائما ، وحيال الأمور التى طال انتظارها وزانتها أحلام التوقع لايعود فى النهاية ثمة ما أفعله إلا أن ألوذ بالفرار .)

هلت وراء الكاهن ثلة من رجال الإطفاء ، يحملون على كواهلهم صندوق النذور ، وقد زانته أكاليل من القش المضفور ، ثم أقبل جمع من الأطفال ، يرفعون محملا صغيرا يتقافز فى نزق ، أخيرا اقترب محمل الموكب الرئيسى ، «الأوميكوشى» الجليل ذو اللونين الأسود والذهبى . كنا قد رأيناه من بعيد بالفعل ، العنقاء الذهبية على قمته ، تتأرجح ، وتتخايل متألقة وسط الضجيج والهياج ، مثلما طائر يطفو جيئة وذهابا فى قلب الأمواج ، فأفعمنا المشهد بضرب من الشعور الذاهل بالقلق . الآن بدا المحمل نفسه للعيان ، سادت حالة مسمومة من الهدوء الميت ، كالهواء فى خط الاستواء ، لفت وحيدة المحمل متشبثة به . بدت كالركود الحاقد ، ترتعد متوقدة فوق الأكتاف العارية للفتيان الذين يحملون «الأوميكوشى» وداخل نطاق الحبال الغليظة ذات اللونين الأحمر الصارخ والأبيض ، دالخل السياج الفارق فى لونى الذهب والنبيذ

القاتم ، خلف أبواب أوراق الشجر الذهبية محكمة الإغلاق ، كان هناك مكعب حجمه أربعة أقدام من الظلام المكتسى بلون القار .

هذا المكعب المكتمل من الليل الأجوف ، المتأرجح ، المتقافز ، دونما انتهاء ، جيئة وذهابا ، علوا وسفلا ، كان يهيمن فى جرأة على سمت نهار الصيف الباكر الألاق ، دونما سحابة تشوبه .

دنا المحمل أكثر فأكثر ، كان الفتية الذين يحملونه يرتدون كيمونو للصيف موحد الطراز ، والقطن الخفيف يشف عن أجسادهم كلها ، وجعلت حركاتهم المحمل يبدو وكأنه يترنح لفرط الخمار ، بدت أقدامهم وكأنها كتلة عظيمة متشابكة الأطراف ، وبدا الأمر كما لو أن عيونهم ماكانت لتقع على أشياء هذه الأرض ، كان الفتى الذى يحمل مروحة السلطة المستديرة يعدو حول أطراف المجموعة ، وهو يستحثها بصيحات مرتفعة على نحو بديع ، وبين الحين والآخر كان المحمل يميل فى جنون ، وعندئذ وبصيحات أكثر توفزا ، كان يرد على موضعه عاليا .

هنا ، وربما لأن الكبار فى عائلتى أدركوا الأمر بحدسهم ، دفعتنى يد الشخص الذى كنت متشبثا به فجأة إلى الوراء ، فعلى الرغم من أن الشباب بدوا ظاهريا وهم يسيرون

فى موكبهم تماما على نحو ماكانوا ، كمنت قوة ما فى أعماقهم تلح فى طلب منصرف لها ،.

صاح أحدهم : حذار !

ليس بوسعى القول بما أعقب ذلك ، انتزعتنى اليد ، فاندفعت أعدو هاربا عبر حديقة المدخل ، هرعت إلى الدار ، عبر الباب الجانبى .

صعدت إلى الطابق الثانى مع شخص ما ، انطلقت إلى الشرفة ، من هناك اطلعت على المشهد متقطع الأنفاس . كانوا قد تدفقوا فى هذه اللحظة كالسرب إلى حديقة المدخل رافعين محملهم الأسود .

رحت أتساءل ، حتى بعد ذلك بوقت طويل ، أية قوة أملت عليهم هذا التصرف ، لازلت لا أدرى ، كيف أمكن لهؤلاء العشرات من الشباب أن يصلوا فجأة إلى القرار فى اللحظة ذاتها ، وكأنما صدر عن ذهن واحد ، بأن يندفعوا مُقبلين عبر بوابتنا ؟

لفتهم البهجة فى غمار التدمير الوحشى الغشوم للنباتات ، كان تجمعاً للدهماء بكل معانى الكلمة . تحولت حديقة المدخل ، التى استنفدت اهتمامى بأسره منذ وقت طويل ، إلى عالم آخر ، جرى استعراض المحمل فوق كل بوصة منها ، مزقت الشجيرات

إرباً ، وديست بالأقدام . كان عسيرا علىّ كثيرا أن أقول ما الذى يجرى ، ارتطمت أمواج الضوضاء بعضها بالبعض الآخر ، بدا كما لو أن أذنىّ لطمتهما أمواج متدافعة من الصمت الجليدى والصخب العبثى . وحدث الأمر ذاته مع الألوان ، فتدافع اللون الذهبى والقرمزى ، الأرجوانى ، الأخضر ، الأصفر والأزرق القاتم ، أخذت الألوان تغلى معا ، وبدت كما لو كانت لونًا واحدا يسوده اللون الذهبى حينا والقرمزى حينا آخر .

خلال الأمر كله كان هناك شىء واحد فحسب واضح بصورة تضج بالحياة ، شىء أرعبنى ، ومزقنى إربا ، فملأ قلبى بعذاب يستحيل تبريره . كان هذا الشىء هو التعبير الذى علا ملامح الفتية الذين يرفعون المحمل ، تعبيراً عن أكثر ضروب الخمار جلاءً وفحشا فى الدنيا ...

الفصل الثانى

طوال ما يزيد على العام عانيت من الإحباط الذى يقاسيه طفل قدمت له لعبة غريبة . كنت وقتها فى الثانية عشرة من عمرى.

راحت هذه اللعبة تتضخم مع كل فرصة تتاح لها ، وتومىء من طرف خفى ، مشيرة إلى أنها إذا ما استخدمت على نحو سليم ستغدو شيئاً بهيجاً تماماً ، لكن تعليمات الاستخدام لم تكن مدونة فى أى مكان ، وهكذا فإنه حينما انتزعت اللعبة المبادرة فى الرغبة بالعبث معى كان من الحتمى أن يداهمنى الذهول . غدا شعورى بالإذلال ونفاد الصبر من التفاقم ، حتى ظننت أننى أرغب فى تحطيم اللعبة ، غير أنه فى النهاية لم يبق إلا الاستسلام من جانبى للعبة العنيدة بتعبيرها عن النشوة السرية والانتظار فى سلبية لرؤية ماسيقع .

ثم فكرت فى الإصغاء بمزيد من الهدوء لرغبات اللعبة ، وحينما فعلت ذلك ألفيت أنها سرعان مايكون لها بالفعل توقها المحدد ، الذى لايعرف إليه الخطأ سبيلاً ، أو مايمكن تسميته

بآليتها الخاصة ، غدت طبيعة ذوقها مرتبطة ، لا عبر ذكريات طفولتى فحسب وإنما عبر ذكرياتى واحدة إثر الأخرى بأشياء من قبيل الأجساد العارية للشبان الذين رأيتهم على الشاطىء فى الصيف ، فرق السباحة التى شاهدتها فى مسبح ميجى ، الشاب الذى تزوجته ابنة عمى والذى يتمتع ببشرة لوحتها الشمس ، والأبطال الجسورين للعديد من قصص المغامرات . ظننت حتى ذلك الوقت أننى مرتبط على نحو شاعرى فحسب بمثل هذه الأمور ، خالطاً على هذا النحو بين رغباتى الحسية ونسق من الجماليات .

بالمثل راحت اللعبة تندفع نحو الردى ، بحيرات الدم ، اللحم البشرى الذكورى . لدى رؤية مشاهد المبارزات الملطخة بالدم على أغلفة مجلات قصص المغامرات ، التى كنت أستعيرها من الفتى الذى يعمل بدارنا ، صور فتية الساموراى وهو يبقرون بطونهم ، جنود أصابت منهم الطلقات مقتلاً ، فتشنجت أضراسهم ، وتقاطر الدم من خلل أكفهم ، التى قبضت على صدورهم المكسوة بالكاكى ، صور لمصارعى السومو المتصلبى العضلات ، من الدرجة الثالثة الذين لم يترهلوا بعد – لدى مرأى هذه الأشياء كانت اللعبة ترفع على نحو قاطع رأسها الفضولى (إذا لم تكن صفة «فضولى» مناسبة فيمكن تغييرها إلى «شهوانى» أو «غليم»).

حينما أدركت هذه الأمور ، بدأت فى السعى وراء اللذة العضوية عن وعى وقصد . شرعت مبادىء الاختيار والإعداد تقوم بعملها . حينما كنت أجد أن تركيب صورة ما يبدو معيبا ، كنت أبدأ أولا فى نسخها بأقلام الشمع الملون ، ثم أصلحها وفقا لما يرضينى . عندئذ تصبح صورة لاعب سيرك شاب ، هوى على ركبتيه ، وأمسك بجرح أحدثته رصاصة فى صدره ، أو لاعب يسير على الحبال سقط ، فانفلقت جمجمته ، ورقد محتضرا ، وقد غطى الدم شطرا من وجهه . غالبا ماكنت فى المدرسة أنشغل بالخوف على هذه الصور الظامئة للدم ، والتى أخفيتها فى أحد أدراج المكتبة بالدار ، وأشفق من أن يكتشفها أحد فى غيابى ، حتى أن صوت المعلم كان يحتجب عنى ، كنت أعلم أن علىّ أن أعدم تلك الصور بعد رسمها على الفور ، لكن لعبتى كانت من الارتباط بتلك الصور بحيث وجدت أنه من المستحيل إطلاقاً أن أقوم بذلك .

على هذا النحو أمضت لعبتى العنيدة أياما وشهورا عديدة دون أن تحقق حتى هدفها الثانوى ، أو ماسوف أسميه «عادتى السيئة» دع جانبا هدفها المطلق ، غرضها الرئيسى .

طرأت تغيرات عديدة فيما حولى ، فقد انشطرت العائلة ، وغادرت الدار التى ولدت بها ، وانتقلت إلى دارين منفصلين فى

الشارع نفسه ، لا تفصلهما إلا نصف كتلة من المبانى ، أقمت مع جدىّ فى دار ، فيما استقر والداى مع أخى وأختى فى الدار الأخرى . فى هذه الفترة أرسل أبى فى مهمة رسمية خارج البلاد ، قام بجولة فى العديد من دول أوربا ، وعاد إلى الوطن ، بعد فترة ليست بالقصيرة انتقل والداى من جديد . أخيرا بلغ أبى مرحلة الحسم المتأخر فى إصراره على المطالبة باستعادتى لأقيم فى داره ، وانتهز هذه الفرصة للقيام بذلك . خضت غمار مشهد الافتراق عن جدتى ، وهو مشهد أسماه أبى «الميلودراما الحديثة» هكذا مضيت لأقيم مع أبوىّ ، الآن انفصلت عن الدار التى يقطنها جداى ، على بعد عدة محطات للقطار الحكومى أو العربات التابعة للبلدية . ليلا ونهارا كانت جدتى تضم صورتى إلى صدرها ، تنخرط فى البكاء ، وتشتد بها أعراض المرض إذا ما انتهكت الاتفاقية التى تقضى بضرورة قيامى بقضاء ليلة كل أسبوع معها فى الثانية عشرة من عمرى كانت لى حبيبة صادقة المحبة ، فى الستين من عمرها .

سرعان مانقل أبى إلى أوساكا ، مضى وحيدا ، أما بقيتنا فظللنا فى طوكيو .

ذات يوم ، .اهتبلت فرصة نوبة برد عارضة ألمت بى ، فحالت دون ذهابى إلى المدرسة ، جلبت بعض مجلدات من اللوحات

الفنية ، كان أبى قد حملها للوطن تذكارا لرحلاته فى الخارج ، حملتها إلى غرفتى ، حيث رحت أتصفحها بانتباه ، ابتهجت على نحو خاص لمشاهدة صور التماثيل الإغريقية ، التى احتوتها أدلة المتاحف الإيطالية العديدة ، ومن بين العديد من صور الأعمال الفذة العارية راقت لى لوحات باللونين الأبيض والأسود لعدد من هذه التماثيل ، وربما كان ذلك يرجع إلى حقيقة بسيطة هى أنه حتى من خلال الصور بدا النحت أكثر قربا من الحياة .

كانت تلك هى المرة الأولى التى أشاهد فيها هذه الكتب ، كان أبى شحيح اليد ، لكراهيته لتلويث الصور وتلطيخها بيد الأطفال . وكذلك لخشيته من أن صور النسوة العاريات التى أبدعها الفنانون العباقرة قد تستهوينى - لشد ما جانبه الصواب ! قد أخفى هذه الكتب بعيدا فى أعماق خزانة الأوانى ، ومن جانبى لم أحلم بأنها يمكن أن تكون أكثر إثارة للاهتمام من الصور التى تتضمنها مجلات قصص المغامرات .

شرعت فى تقليب الصفحات وصولا إلى نهاية أحد المجلدات . فجأة أطلت من ركن الصفحة التالية صورة ، اضطررت للاعتقاد بأنها كانت هناك راقدة فى انتظارى قابعة من أجلى .

كانت صورة للوحة القديس سباستيان للمصور جيدو رينيه ، التى تضمها مجموعة بلازو روسو فى جنوا .

تبدى جذع شجرة الإعدام الأسود المائل قليلا فى خلفية هائلة من غابة كابية ، وسماء مغيبية ، قاتمة ، ونائية ، قيد شاب بادى الوسامة عاريا إلى جذع الشجرة ، رفعت يداه المتصالبتان عاليا ، أحكم ربط السيور التى تشد راحتيه إلى الشجرة ، كان الغطاء الوحيد الذى يستر عريه هو قطعة بيضاء من نسيج خشن عقدت متهدلة حول خاصرته .

خمنت أن اللوحة تصور حتما استشهاد أحد المسيحيين ، ولكن بما أن مصورها كان عاشقا للجمال ، ينتمى إلى المدرسة الاصطفائية المستمدة من عصر النهضة ، فإن هذه اللوحة التى تصور موت قديس مسيحى كانت تحمل النكهة القوية للنزعة الوثنية . كان جسد الشاب ، الذى يمكن أن يشبه بأنتينوس ، محبوب هادريان ، الذى خلد حسنه فى النحت ، لايفصح عن أى من آثار العناء التبشيرى أو التداعى ، المألوفة فى صور القديسين الآخرين ، وبدلا من ذلك كانت هناك فحسب ميعة الصبا ، وامتد النور والبهاء والفرح .

كان عريه الأشيب ، الذى لا نظير له ، يتألق مباينا الخلفية

المغيبية . ذراعاه الرجوليان ، ذراعا رجل الحرس البريتورى الذى اعتاد ثنى النشاب وتقلد السيف ، مرفوعتان فى زاوية رشيقة ، رسغاه المقيدان متصالبان فوق رأسه مباشرة ، وجهه مرتفع هونا عيناه مفتوحتان على اتساعهما ، تحدقان بهدوء عميق فى مجد السماوات . لم يكن الموت هو الذى يحوم حول صدره المتوتر ومعدته الحادة فى انكماشها وردفيه اللذين التويا من الألم قليلاً ، وإنما وهج من الفرح الكابى كالموسيقى ، ولولا السهام الغائصة برءوسها عميقا فى إبطه الأيسر وجانبه الأيمن لبدأ أقرب شبها إلى رياضى رومانى ، ينال قسطا من الراحة بعد العناء ، وقد استند إلى شجرة غسقية فى إحدى الحدائق .

كانت الأسهم تلتهم اللحم المتوفز ، العطر ، الذى يضوع شباباً ، وتوشك أن تستنفد الجثمان من داخله بألسنة من لهب معاناة ونشوة فائقتين ، لكن الدم لم يكن يشخب ، ولم يكن هناك ذلك الفيض من السهام الذى يرى فى اللوحات الأخرى لاستشهاد سباستيان ، وبدلا من ذلك كان سهمان وحيدان يلقيان ظليهما الهادئين الرشيقين على رهافة جلده ، مثلما ظلى غصن يسقطان على ممر مرمرى .

لكن كل هذه التفسيرات والملاحظات وردت فيما بعد .

في ذلك اليوم ، ما إن تطلعت إلى الصورة ، حتى ارتعش كياني كله بفرحة طاغية ، طفا دمي عالياً ، انتفخت خاصرتي كأنما غضبا ، كان الجانب الوحشي فيَّ ، الذي غدا على وشك الانفجار ، ينتظر استخدامي له في انقياد لم يسبق له مثيل ، وهو يوبخني لجهلي ، لاهثا في غضب ، شرعت يداي في غياب كامل للوعي تأتيان حركة لم تعلماها من قبل قط ، أحسست بشيء سري مشع ينهض مسرع القدمين ليشن هجوما من داخلي ، فجأة تفجر مندفعا ، جالبا معه عربدة داخلية تحجب الرؤية ...

إنقضى بعض الوقت ، عندئذ تطلعت بمشاعر بائسة حول المكتب الذي كنت أجلس أمامه ، كانت شجرة قبقب خارج النافذة تلقي ظلاً خفيفا فوق كل شيء ، فوق المحبرة ، كتبي المدرسية ، دفاتري ، القاموس ، صورة القديس سباستيان . انتثرت بقع بيضاء غائمة ، على عنوان المرجع الذهبي الحروف ، على جانب المحبرة ، على ركن القاموس ، إنسابت بعض القطرات كسلى ، متثاقلة ، والتمع البعض الآخر على نحو كئيب ، مثل عيني سمكة ميتة ، لحسن الحظ حمت حركة انعكاسية من يدي الصورة ، وأنقذت الكتاب من التلوث .

كانت تلك هي المرة الأولى التي أقذف فيها ، وكذلك البداية المرتبكة وغير المقصودة بالمرة لعادتي السيئة .

(من الصدف المثيرة للاهتمام أن هيرشفيلد يدرج صور القديس سباستيان فى المرتبة الأولى من أنواع الأعمال الفنية التى يجد فيها اللواطى بهجة خاصة ، وتؤدى ملاحظة هيرشفيلد هذه فى يسر إلى الحدس بأنه فى الغالبية الكاسحة من حالات اللواط ، بصفة خاصة فى اللواط الفطرى ، يمتزج دافع اللواط والدافع السادى معاً ، على نحو لا يمكن فصله) .

يقال تقليديا إن القديس سباستيان ولد فى حوالى منتصف القرن الثالث الميلاد ، غدا قائداً فى الحرس البريتورى ، وأنهى حياته القصيرة ذات الثلاثين عاما من الغرابة بالاستشهاد ، ويقال إنه مات فى عام ٢٨٨ خلال حكم الإمبراطور ديوقليانوس . كان ديوقليانوس رجلا عصاميا ، عرك الحياة ، وحظى بالإعجاب لنزعته لعمل الخير ، لكن مكسيميان شريك الإمبراطور كان يمقت المسيحية ، وحكم بالإعدام على مكسيميليانوس الشاب النوميرى لرفضه باسم النزعة السلمية المسيحية أداء مقتضيات الخدمة العسكرية ، وبالمثل جرى إعدام مارسيلوس القنطورى للولاء الدينى ذاته . كانت تلك إذن هى الخلفية التى فى ضوئها يصبح استشهاد القديس سباستيان أمرا قابلا للفهم .

اعتنق سباستيان المسيحية سراً ، واستغل موقعه كقائد فى الحرس البريتورى لمواساة المسيحيين المودعين بالسجون ، وأدخل

العديد من الرومان فى الدين الجديد ، ومن بينهم عمدة روما ، وحينما افتضح أمر هذه الأنشطة حكم عليه بالموت ، رشق بسهام لا حصر لها ، وترك ليلفظ أنفاسه ، لكن أرملة ورعة كانت قد أقبلت لتواريه التراب ، اكتشفت أن بدنه لايزال دافئا ، فعالجته حتى دلف عائدا إلى الحياة غير أنه تحدى على الفور الإمبراطور مسفها آلهته ، وفى هذه المرة ضرب بالهراوات حتى الموت .

قد تكون الخطوط العريضة لهذه الأسطورة صحيحة حقا ، فمن المعروف يقينا أن مثل أحداث الاستشهاد هذه قد وقعت حقا ، أما فيما يتعلق بالتشكك فى أنه مامن إنسان يمكن أن يصاب بمثل هذا العدد الكبير من جراح السهام ثم يرد إلى الحياة ألا يمكن أن يكون ذلك من قبيل الإضافة البديعة اللاحقة واستخداما مألوفا لموضوعة البعث استجابة لتلهف البشرية إلى المعجزات ؟ .

ولرغبتى فى أن تفهم نشوتى بين يدى الأسطورة ، أمام اللوحة ، بمزيد من الوضوح باعتبارها الشىء الحسى الوحشى الذى كانت عليه ، فإننى أثبت هنا المقطوعة التالية التى لم تنته ، والتى دبجتها بعد ذلك بسنوات :

القديس سباستيان – قصيدة نثرية .

ذات مرة ، اختلست النظر من نافذة قاعة للدرس إلى

شجرة وسط تتمايل فى مهب الريح ، فيما كنت أتطلع إليها ، شرع قلبى يخفق راعداً ، كانت شجرة ذات بهاء مذهل ، تنتصب فوق المرجة فى زاوية قائمة ، تلفها الاستدارة ، يستند الشعور بخضرتها الفاغمة إلى أغصانها العديدة المتماوجة عاليا والمنسدلة على الجوانب فى اتساق متوازن لا يحظى به إلا حامل شموع متعدد الأفرع ، وتحت اخضرارها يبرز جذع قوى مثل قاعدة أبنوسية . شمخت هناك ، تلك الشجرة ، مكتملة ، رائعة البدن ، من غير أن تفقد شيئا من رشاقة الطبيعة وعفويتها ، ملتزمة صمتا جليلا ، كأنها خلقت نفسها ، ربما كانت قطعة موسيقية ، قطعة من موسيقى الحجرة وضعها موسيقار ألمانى ، موسيقى تبعث نشوة دينية هادئة ، حتى إننا لايمكن إلا أن توصف بأنها قدسية تحفل بالجلال وبالحنين ، اللذين نجدهما فى أنماط سجاد الحائط الرائع .

هكذا كان للتماثل بين شكل الشجرة وأصوات الموسيقى معنى بالنسبة لى . لا عجب إذن فى أنهما حينما هاجمانى ، معا وقد تزايدت قوتهما من جراء هذا التحالف ، غدا انفعالى الغامض المستعصى على الوصف أقرب لا إلى الغنائية وإنما إلى ذلك الخمار الرهيب الذى نجده فى تزاوج الدين والموسيقى .

فجأة تساءلت فى قرارة فؤادى : « أليست تلك هى الشجرة

ذاتها ... الشجرة التى قيد القديس إليها ويداه مغلولتان خلفه ، على جذعها سال دمه مثل قطرات غب المطر ؟ أليست تلك هى الشجرة الرومانية التى احتضر فوقها متوهجا فى عناء الموت الأخير مع التفتت العنيف للحمه الغض على اللحاء كاعترافه الأخير بالمتعة الدنيوية بأسرها والألم الحاضر جميعه ؟

يقال فى الحوليات التقليدية إنه عقب تتويج ديوقليانوس ، وفيما كان يحلم بسلطة مطلقة ، كطائر لا يعوق تحليقه شىء ، كان هناك قائد شاب فى الحرس البريتورى ، ألقى القبض عليه ، واتهم بعبادة رب محظور . قائداً شابا كان ، أوتى جسما لدنا ، يذكر المرء بالعبد المشرقى ذائع الصيت الذى عشقه هادريان ، له عينا متآمر، ساجيتان مثلما البحر ، كان فاتن الصلف ، يضع على خوذته سوسنة بيضاء ، تقدمها له كل صباح عذارى المدينة ، تتدلى فى رشاقة على شعره الرجولى السبط ، فيما هو ينال قسطا من الراحة من عناء مبارياته الوحشية ، فتلوح مثل مؤخرة عنق بجعة تماما .

لم يعرف أحد موطنه أو من أين قدم ، لكن كل من رأوه خالجهم الشعور بأن هذا الشاب ، الذى يتمتع بجسد عبد وملامح أمير ، هو عابر سبيل ، سرعان مايمضى بعيدا ، بدا لهم هذا الشاب «الانداميونى» بدويا يقود قطعانه ، وأنه هو بعينه المختار

للعثور على مرعى أكثف خضرة من كل المراعى الأخرى .

كانت هناك عذارى مجددا يتعلقن باليقين حول مجيئه من البحر ، لأنه فى أغوار صدره كان يمكن الإصغاء إلى تصخاب البحر ، ولأنه كان يتأرجح فى بؤبؤية الأفق الغامض والخالد الذى يتركه البحر تذكارا غائرا فى عيون أولئك الذين يولدون على شواطئه ، ويجبرون على الرحيل بعيدا عنه ، ولأن تنهداته كانت متقدة ، شأن نسائم المد فى سمت الصيف ، تضوع برائحة أعشاب البحر المسجاة على الشاطىء .

ذلك سباستيان ، القائد الشاب فى الحرس البريتورى ، أترى كان هناك شىء فى بهاء حسنه قدر له أن يلقى الردى ؟ ألم تشتم نساء روما الخشنات اللاتى غذيت حواسهن على مذاق الخمر المعتقة التى تتعتع العظام وعبق شواء اللحم الذى يتقاطر بحمرة الدم – قدره معتم النجوم سريعا والذى كان يجهله فعشقنه لهذا السبب ؟ كان دمه يتدفق بايقاع أكثر وحشية من المألوف داخل لحمه الأبيض باحثا عن منطلق ينسكب منه حينما يتمزق ذلك اللحم فى القريب . كيف أمكن للنسوة ألا يصغين للرغبات العاصفة لدم كهذا ؟

لم يكن قدره مما يوضع موضع الرثاء . لم يكن مما يمكن

أن يرثى له قط ، وإنما كان بالأحرى شامخا ومأساويا ، قدرا يمكن أن يوصف بالتوهج .

حينما يتأمل المرء الأمر جيدا يبدو أنه من المحتمل فى العديد من المرات أنه حتى فى غمار قبلة شائقة من المحتم أن طعم معاناة الموت المسبقة قد غضن جبينه بظل عابر من الألم .

ولابد أنه كذلك قد تنبأ ، وإن يكن على نحو غامض ، بأن ماينتظره على الدرب لايقل عن الاستشهاد ، وأن هذا الميسم الذى دمغه به القدر كان على وجه الدقة أشعار مباينته لكل رجال الأرض العاديين .

الآن ، فى ذلك الصباح بعينه ، أزاح سباستيان أغطية فراشه ، وثب منه مع انبلاج النهار ، تحت وقر الواجبات العسكرية ثمة حلم راوده عند الفجر ، غربان مشئومة كالنذير تتجمع فى صدره ، تغطى فمه بأجنحة مصطفقة ، وما اختفت بعد من وسادته . لكن الفراش الخشن الذى يأوى إليه كل ليلة كان يضوع بعبق أعشاب البحر المسجاة على الشاطىء ، يقينا إذن أن مثل هذا العبق سيقوده مراوغا إلى أحلام البحر والآفاق الفسيحة .

فيما هو يقف إلى جوار النافذة ، ويسبغ عليه درعه المصلصل ، راح ينظر عبر الطريق إلى معبد تحيطه كرمة ، فى

السماء فوقه لمح النجوم المتناثرة تغور بعيدا ، مجموعة نجوم تدعى «المازاروث» حدق فى ذلك المعبد الوثنى البديع وتحت الاستدارة المراوغة لحاجبيه التمعت نظرة عميقة قريبة من المعاناة وتتناسب مع جماله استحضر اسم الله الواحد ورتل فى رقة بعض الآيات الجليلة من النصوص المقدسة ، عندها ، وكأنما تضاعفت رهافة ترتيلته آلاف المرات وترددت فى نغم جليل ، سمع أنينا عاتيا أهل ، دونما شك ، من ذلك المعبد البغيض ، من تلك الصفوف من الأعمدة التى تشق عنان السماء المرصعة بالنجوم . كان صوتا كذلك الذى يصدر عن ركام يتصدع فيتناثر بددا مدويا بإزاء القبة السماوية التى وشتها النجيمات .

ابتسم ، خفض عينيه إلى ما دون نافذته ، ثمة جمع من العذارى يصّاعد سرا إلى حجراته لترتيل صلوات الصباح . كعادتهن تحت جنح الظلام قبيل الفجر ، وكل عذراء تحمل فى يدها سوسنة وسنى لاتزال ...

كان ذلك فى وقت متقدم من شتاء عامى الثانى فى المدرسة المتوسطة كنا وقتها قد اعتدنا السراويل الطويلة وعلى مناداة بعضنا البعض بالأسماء الأولى دونما ألقاب (فى المدرسة الابتدائية لم يكن يسمح لنا أبدا بأن نترك سيقاننا فيما دون سراويلنا القصيرة عارية حتى فى سمت الصيف ، هكذا فإن

فرحتنا كانت مضاعفة لدى ارتدائنا للسراويل الطويلة ، حينما علمنا أننا لن نضطر مرة أخرى إلى تجشم مشقة أربطة الجوارب كذلك اضطررنا فى المدرسة الابتدائية إلى استخدام الصيغة الرسمية للخطاب ، حينما ينادى أحدنا الآخر باسمه) اعتدنا أيضا عادة رائعة أخرى ، هى السخرية من مدرستنا ، وأن يقدم لنا الشاى ونحن واقفون فى مشرب المدرسة ، وأن نلهو بألعاب الأدغال ، التى نمضى عدوا خلالها فى وسط أشجار المدرسة ، واعتدنا حياة مهجع المدرسة . شاركت فى كافة هذه الألوان عدا حياة المهجع ، فقد احتج أبواى دائما بصحتى الهشة لاستثنائى من القاعدة التى تقتضى من كل طالب أن يقيم فى القسم الداخلى للمدرسة عاما أو عامين ، خلال الدراسة بالمدرسة المتوسطة ، ومرة أخرى لم يتجاوز السبب الرئيسى الذى دفعهما لذلك الحيلولة دون تعلمى «الأمور السيئة» .

كان عدد طلاب الدراسة الخارجية قليلا . وفى الفصل الدراسى الأخير من عامنا الثانى انضم قادم جديد إلى جماعتنا الصغيرة ، كان هذا القادم هو «أومى» ، كان قد طرد من المدرسة الداخلية بسبب بعض السلوكيات السيئة . لم أكن حتى ذلك الوقت قد أبديت اكتراثا به ، ولكن حينما دمغه طرده بهذا الميسم ، الذى لا تخطئه العين ، للجنوح ،

ألفيت فجأة من المتعذر عليّ أن أحوّل ناظريّ عنه .

ذات يوم أقبل صديق بدين سمح الخلق يعدو نحوى ، ضاحكا حتى بدت غمازتاه ، علمت من هذه المؤشرات المألوفة أنه قد أطلع على معلومات سرية ،.

قال : لديّ ما أحدثك به !

ابتعدت عن أنابيب التدفئة ، خرجت إلى الممر مع صديقى الطيب ، إنحنينا على نافذة تطل على فناء الرماية الذى اكتسحته الرياح . كانت تلك النافذة هى ملتقانا لهتك الأسرار .

شرع صديقى فى الحديث : طيب ، إن أومى ...

ثم توقف ، إحمر خجلا ، كأنما استبد الحرج به ، فحال دون مواصلته الحديث (ذات مرة ، وفى الصف الخامس من المدرسة الابتدائية ، حينما كنا جميعا نتحدث حول «ذلك» إندفع هذا الفتى فناقضنا كلية بملاحظة هائلة : «الأمر كله كذبة كاملة ، أعلم تماما أن الناس لايقترفون شيئا كهذا» وفى مرة أخرى ، ولدى سماعه أن والد أحد الأصدقاء مصاب بالشلل الرعاش ، حذرنى من أن هذا المرض معد وأنه من الخير لى ألا أقترب كثيرا من ذلك الصديق) .

– إيه ، ما الذى حط على أومى ؟

على الرغم من أننى كنت لا أزال استخدم صيغ الخطاب الانثوية المهذبة فى الحديث بالدار ، فإننى شرعت خلال وجودى بالمدرسة فى الحديث بوقاحة ، مثل الفتية الآخرين .

- إنها الحقيقة ، ذلك الفتى أومى ، طيب ، يقولون إن له بالفعل العديد من الفتيات ، هذا هو الأمر !

كان من اليسير تصديق ذلك ، فلابد أن أومي كان أكبر منا بسنوات عديدة ، بعد أن أخفق فى الانتقال إلى الصف الأعلى مرتين أو ثلاثا ، كان يتجاوزنا جميعا فى وثاقة بنيته ، وفى استدارات وجهه كان بالوسع رؤية نضج متميز يفوقنا جميعا ، تميز بطريقة فطرية شامخة فى السخرية غير المبررة . لم يكن ثمة شىء واحد لم يجد أنه يستحق الازدراء ، بالنسبة لنا لم يكن ثمة تغاير فى حقيقة أن الطالب المتفوق هو نفسه ، وأن المدرس هو ذاته ، وأن رجل الشرطة وطالب الجامعة والموظف لايتجاوزون ماهم عليه ، وبالطريقة عينها كان أومي بالنسبة لنا هو ببساطة أومى ، وكان من المستحيل الهرب من عينيه المفعمتين ازدراء وضحكته المثقلة بالسخرية .

قلت : أحقا ؟

لسبب مجهول ، ظللت لبعض الوقت أمعن التفكير في يدى أومى الماهرتين ، وهما تنظفان البنادق ، التى نستخدمها فى التدريب العسكرى . تذكرت مظهره الأنيق كقائد جماعة والطالب

الأثير لدى القائم بالتدريب العسكرى ومدرب التربية البدنية فقط .

– لذلك ... ذلك هو السبب فى أن ...

قالها صديقى ، ندت عنه ضحكة مكبوتة ، بذيئة ، لايمكن إلا لفتية المدرسة المتوسطة فهمهما ، وأضاف :

– طيب ، يقولون إن الشىء الذى له – أنت تفهم ما أعنى – فظيع الضخامة ، ماعليك فى المرة القادمة التى نلعب فيها لعبة «القذر» إلا أن تتحسس وتتبين ، وسيبرهن ذلك على الأمر .

كانت لعبة «القذر» رياضة تقليدية فى مدرستنا ، تتفشى دائما بين الفتية خلال عامهم الأول والثانى ، وكما هو الحال مع أى أسلوب مجنون لتزجية الوقت ، كانت مرضا مقيتا أكثر مما هى تسلية . يقف فتى ونسميه «أ» دون أن يتخذ الحذر لنفسه ، فيلاحظ ذلك فتى آخر وليكن «ب» . فينقض من الجانب فى تدقيق على الهدف ، ويقتنص بقبضته ما يمتد بين فخذى أ.، فإذا كللت القبضة بالنجاح ، عندئذ يتراجع ب . فائزا إلى مبعدة ، ويبدأ فى الصياح :

– أوه ، إنه ضخم !

أيا كان الدافع وراء هذه اللعبة ، فإن الهدف الوحيد منها ، فيما يبدو ، هو مشهد الضحية فى شكله الفكه ، وهو يسقط كتبه المدرسية ، أو أى شىء آخر يحمله . ويستخدم كلتا يديه لحماية النقطة التى تتعرض للهجوم . كان الفتية يكتشفون بالفعل خجلهم

فى غمار هذه اللعبة وقد تعرى فى غضون ضحكهم ، عندئذ ومن قلب ضحك أكثر دويا يحققون الغبطة فى السخرية من خجلهم المشترك . متجسدا فى الخدين المضرجين لهذه الضحية .

كان الضحية يصيح ، وكأنما بترتيب مسبق :

- أوه ، ب . هذا . إنه قذر !

كان أومى فى مجاله الملائم وهو يؤدى هذه اللعبة ، إنتهت هجماته ، دائما على وجه التقريب ، بنجاح سريع ، الأمر الذى يتيح المجال للتساؤل عما إذا كان الفتية لايتوقون إلى أن يهاجمهم أومى ، بالمقابل كان ضحاياه يسعون فى دأب للانتقام ، لكن أيا من انقضاضاتهم عليه لم يقدر لها النجاح ، فقد كان يسير دائما وإحدى يديه فى جيبه ، وفى اللحظة التى يتعرض فيها لكمين ، كان يشكل فى التو درعا مزدوجا من يده القابضة فى جيبه ويده المطلقة السراح .

كانت هذه الكلمات التى ندت عن صديقى بمثابة مخصب صب على العشب السام لفكرة انغرست غائرة فى أعماقى . كنت حتى هذه اللحظة قد شاركت فى ألعاب القذر بمشاعر ساذجة ، تماما كمشاعر الفتية الآخرين ، لكن كلمات صديقى جلبت فيما يبدو «عادتى السيئة» .

تلك الحياة المنعزلة التى أبقيتها دونما وعى منفصلة تماما - إلى مجال علاقة لا يمكن فصلها بهذه اللعبة ، بحياتى الجماعية تلك . تأكد استقرار مثل هذا الارتباط فى ذهنى من خلال حقيقة أن كلماته أصبحت فجأة شئت أم أبيت «تحسس وتبين» مشحونة بأهمية خاصة بالنسبة لى ، أهمية لم يقدر أبدا لأى من أصدقائى الأبرياء أن يتفهمها .

منذ ذلك الوقت لم أعد أشارك فى لعبة القذر . شعرت بالخوف من اللحظة التى قد أهاجم فيها أومى ، بل وبمزيد من الخوف من اللحظة التى قد يهاجمنى فيها أومى . كنت يقظا دائما وحيثما تلوح أمارات اندلاع اللعبة - كوقوع شغب أو تمرد ، وهما ماكان يثوران لأكثر الأحداث عشوائية - كنت أتنحى جانبا ، وتنصب عيناى على أومى من مسافة آمنة .

فى الحق أن تأثير أومى قد بدأ بالفعل يغوينا ، حتى قبل أن ندرك ذلك ، فعلى سبيل المثال كان هناك موضوع الجوارب . فى تلك الأيام كان صدى نظام تعليمى يستهدف تخريج جنود قد بلغ مدرستنا بالفعل ، تم من جديد إحياء الفكرة التى طرحها الجنرال اينوكى على فراش موته وقدمت للاستهلاك «كن بسيطا ورجوليا» . كانت الأشياء المنتمية إلى نوعية اللفاعات والجوارب المبهرجة من قبيل المحظورات ، بل كانت أية لفاعة من أى نوع تثير الضيق ، وسرت القاعدة القائلة بأن القمصان ينبغى أن تكون

بيضاء والجوارب سوداء أو على الأقل ذات لون قاتم . كان أومى وحده هو الذى يحرص على أن تكون له لفاعة حريرية بيضاء وجوارب جريئة المظهر .

تمتع هذا المتحدى الأول للمحرمات بمهارة فذة فى التمويه على شره بالاسم الخلاب للتمرد ، وعبر تجربته الخاصة اكتشف ضعف الفتية ازاء مفاتن التمرد وأمام المدرب العسكرى – ذلك الجلف الريفى الذى صعد إلى مرتبة الضابط دون دراسة والذى كان صديقا حميما لأومى ، أو بالأحرى تابعه فيما بدا – كان أومى ينهمك فى إحكام تثبيت لفاعته حول عنقه وإظهار بطاقات صدارته المذهبة على الطريقة النابوليونية .

غير أن تمرد الجماهير العمياء لم يتجاوز ، كما هو الحال دائما التقليد الهزيل ، وفى غمار تطلعنا إلى تجنب المخاطر التى يقتضيها التمرد وتذوق مباهجه وحدها ، لم نسط من نموذج أومى الجرىء إلا علي جواربه ، وفى هذا المثال كنت بدورى واحداً من القطيع .

لدى وصولنا فى الصباح إلى المدرسة ، كنا نسترسل فى ثرثرة صاخبة بالفصول ، قبل أن تبدأ الدروس . مقتعدين القمطرات لا الكراسى ، وكل من يلج الفصول مرتديا جوارب من

طراز جديد كان يمعن فى التظاهر رافعا ثنيتى سراويله فيما هو يقتعد القمطر ، وفى الحال ينال مكافأته بصرخات الإعجاب الحادة :

– أوه ! جوارب زاهية !

لم تتضمن قائمة مدائحنا ما يتجاوز كلمة زاهية ، وما كان أومى يعمد للتظاهر إلا فى اللحظة الأخيرة ، قبيل تشكيل الصفوف ، ولكن فى اللحظة التى تقول فيها : «زاهية» ترتسم صورة ذهبية لنظرته الفخور متصاعدة أمامنا جميعاً متحدثا ومستمعين .

ذات صباح أعقب سقوط الجليد ، مضيت إلى المدرسة مبكراً للغاية ، كان صديق قد حدثنى مساء البارحة هاتفياً ، قائلا إن الصباح التالى سيشهد مشاحنة عابثة بكرات الثلج ، ولميلى بطبيعتى إلى اليقظة عشية أى حدث أتوقّ إليه ، لم أكد أفتح عينى صباح اليوم التالى مبكراً ، حتى انطلقت إلى المدرسة دونما اكتراث بالوقت .

لم يكد الجليد يرتفع عن وجه حذائى . بعد قليل . وفيما رحت أطل إلى المدينة من نافذة القطار المرتفع ، بدا مشهد الجليد، الذى لم تمسه بعد أشعة الشمس الناهضة من خدرها ، مثيراً

للاكتئاب ، أكثر مما يعكس البهاء . لاح الجليد مثل أربطة قذرة تشد جروحا ناغرة فى جسد المدينة ، وتحجب الجراح البليغة ، المكونة من الشوارع العشوائية والحوارى الملتوية والأفنية والبقع المتناثرة للأرض العارية ، التى تشكل الجمال الوحيد الذى يمكن العثور عليه فى بانوراما مدننا .

حينما أوشك القطار ، الذى كان خاوياً على وجه التقريب ، على الاقتراب من المحطة القريبة من مدرستى ، رأيت الشمس ترتفع فيما وراء المنطقة الصناعية ، فجأة غدا المشهد مبهجا ، مشرقا . الآن تكاكأت أعمدة المداخن المرتفعة كالنذير والأسقف الأردوازية اللون ، فى ارتفاعها وانخفاضها المثير للملل ، خلف الضحك الصاخب الذى انبعث عن قناع الجليد المتألق . مثل هذه الطبيعة الملتفة بالجليد غالباً ما تصبح الساحة المأساوية للشغب أو الثورة ، بل أن وجوه المارة التى بدت سقيمة فى انعكاس الجليد ذكرتنى على نحو ما بالمتآمرين .

لدى هبوطى من القطار فى المحطة أمام المدرسة ، كان الجليد يذوب بالفعل ، واستطعت سماع الماء ينسكب من سقف شركة الشحن القريبة . لم أستطع التخلص من قبضة توهم أن الأشراق هو الذى ينسكب . كانت شظايا مشعة ألاقة منه تلقى نفسها منتحرة فى مستنقع الرصيف الزائف ، فتلطخها جميعا

أوحال أحذية المارة . وفيما كنت أسير تحت الطنف ألقت شظية من الجليد بنفسها خطأ على قفاى ...

لم يكن ثمة داخل بوابات المدرسة أثر لقدم واحدة على الجليد . وغرفة الحارس محكمة الإغلاق ، لكن الحجرات الأخرى كانت مفتوحة .

فتحت نافذة فصل الصف الثانى ، وكانت في الطابق الأرضى ، تطلعت إلى الجليد في الغيضة الواقعة وراء المدرسة . استطعت أن ألمح آثار أقدام كبيرة ، فى الممر المفضى من البوابة الخلفية إلى منحدر الغيضة فالبناء الذى كنت فيه ، قدمت الآثار على امتداد الممر ، واستمرت إلى بقعة تقع مباشرة تحت النافذة التى أطللت منها . ثم عادت فاختفت خلف مبنى العلوم ، الذى يمكن رؤيته بزاوية حادة إلى اليسار .

كان أحدهم قد جاء بالفعل . بدا جلياً أنه أرتقى الممر من البوابة الخلفية ، أطل على الفصل عبر النافذة ، ولما رأى ألا أحد هناك ، مضى وحيداً خلف مبنى العلوم . قلة من طلاب النهار هم الذين يلجون المدرسة عن طريق البوابة الخلفية ، وقد شاع أن أومى الذى كان واحداً من تلك القلة كان يجيء كل صباح من دار إحدى النسوة . لكنه ما كان يظهر إلا فى اللحظة الأخيرة قبل

تشكيل الصفوف . مع ذلك لم أستطع تصور أن أحداً غيره قد يخلف آثار الأقدام تلك ، وأقتنعت بأنها كانت آثاره بالحكم على ضخامة حجمها .

انحنيت خارج النافذة ، دققت النظر ، لمحت لون التربة الحديثة السوداء فى آثار الأقدام ، الأمر الذى جعل الآثار تبدو حازمة وقوية ، جذبتنى قوة يعجز عنها الوصف نحو آثار الحذاء تلك ، شعرت بأننى أود لو ألقيت نفسى مندفعاً برأسى عبر النافذة لأدفن وجهى فيها ، لكن أعصابى البطيئة التحرك حمتنى كالمعتاد من نزوتى الفجائية ، وبدلاً من الانقضاض نحو النافذة ، وضعت حقيبتى المدرسية على قمطر ، عدت وئيداً إلى قاعدة النافذة . لم تكد أزرار سترة ردائى المدرسى تمس أحجار عتبة النافذة حتى غدت كأطراف الخناجر بازاء ضلوعى الهشة ، فمجت ألماً ممتزجاً بضرب من العنوية الأسيانة . بعد ما قفزت من النافذة إلى الجليد ظل الألم الخفيف باقياً كدافع مبهج ، فغمرنى بانفعال المغامرة الراعش . ثبت حذائى المطاط بعناية فوق آثار الأقدام .

كانت الآثار قد بدت ضخمة تماماً ، لكننى الآن وجدت أنها فى حجم آثار أقدامى نفسها على وجه التقريب ، لم أضع فى أعتبارى أن الشخص ربما كان ينتعل حذاء مطاطاً فوق حذائه العادى مثلى ، على نحو ما كان شائعاً بيننا فى تلك الأيام ، الآن

وقد خطرت لى هذه الفكرة ، قررت أن آثار الأقدام ليست من الضخامة بحيث تكون آثار أومى .

رغم ذلك ، ومع شعورى القلق بأننى سأصاب بخيبة أمل فى توقى الحميم إلى العثور على أومى وراء مبنى العلوم ، كنت لا أزال منجرفاً بشعور قاهر مع فكرة إقتفاء الآثار الداكنة ، ربما فى تلك الوهلة لم يعد الأمل فى العثور على أومى هو وحده الذى يدفعنى ، وإنما تملكنى ، لدى مرأى الأحجية المنتهكة ، شعور متضارب ملؤه لحنين والرغبة فى الانتقام ، إزاء الشخص الذى جاء قبلى وترك آثار أقدامه على الجليد .

بأنفاس عصية الإلتقاط ، شرعت فى تتبع الآثار .

مضيت ، كأننى أسير على درج ، أنقل قدمى من أثر إلى آخر ، راحت حواف الآثار تكشف مرة عن تربة سوداء متألقة ، وأخرى عن عشب هالك ، وثالثة عن جليد خالطه الطين ومرة أخيرة عن أحجار مـهدة ، فجأة اكتشفت أننى دونما وعى غدوت أمشى بخطى عملاقة ، تحاكى خطى أومى .

فى غمار اقتفائى للآثار حتى مبنى العلوم ، عبرت الظل المتطاول ، الذى يلقيه المبنى على الجليد ، ثم واصلت المسيرة إلى التل المطل على مضمار الألعاب الرياضية الرحب . لم يكن بالوسع

تمييز الجزء الناقص من المضمار الممتد لمسافة ثلاثمائة متر من الأرض المتموجة التى يلتف حولها ، وذلك بسبب عباءة الجليد البراقة التى غطت كل شىء ، وفى جانب من الميدان انتصبت شجرتا زيلكوفا عظيمتان ، إحداهما قرب الأخرى ، وقد تطاولت ظلالهما تحت شمس الصباح ، وترامت عير الجليد ، مضفية المعنى على المشهد ، وطارحة النقص الهانىء ، الذى تشوب الطبيعة العظمة دائما به . كانت الشجرتان الشبيهتان بأشجار الدردار تتسامقان برقة مطاطية فى سماء الشتاء الزرقاء ، فى انعكاس الجليد من أسفل ، فى أشعة شمس البكرة الواهنة ، وبين الفينة والأخرى راح بعض الثلج ينزلق مثلما التبر ، من الزوايا التى شكلها لقاء الأغصان العارية من الأوراق والصارمة فى امتدادها مع جذعى الشجرتين . بدت قمم أسقف دورات مياه الفتية المصطفة وراء ميدان الألعاب الرياضية وغيضة الأشجار الواقعة خلفها ساكنة فى رقادها . ران صمت بالغ العمق على كل شىء ، حتى بدا الانزلاق الصامت للجليد وكأن صداه يتردد عالياً ويرف بعيداً .

لم أستطع لبرهة أن أرى شيئا فى هذا الامتداد من الوهج.

كان المشهد الجليدى على نحو ما يحاكى آثاراً كشفت حديثاً لإحدى القلاع .

سبح خداع البصر هذا فى الضياء والجلال عينهما اللذين لايوجدان إلا فى آثار القلاع العتيقة . هناك ، فى ركن من أركان الآثار ، وفى الجليد الممتد على المضمار البالغ عرضه خمسة أمتار تقريباً رسمت حروف لاتينية ضخمة ، كان أدناها إلىّ دائرة ، هى حرف أو ، تلاها حرف إم ، وأعقبه حرف ثالث كان لايزال تحت الكتابة ، حرف آى سامق وغليظ .

كانت الكلمة أومى ، وصلت بى آثار الأقدام التى اقتفيتها إلى أو ، ومن الأو إلى الإم ، وأخيراً وصلت إلى شخص أومى نفسه ، كان عندئذ يجر حذاءه المطاطى عبر الجليد لينهى حرف الآى ، محدقاً إلى أسفل من فوق ملفعته البيضاء ، ويداه منغرستان فى جيبى معطفه . تطاول ظله متحدياً على الجليد ، موازياً لظلى شجرتى الزيلكوفا فى الميدان .

اشتعلت وجنتاى ناراً ، صنعت كرة فى يدى الغارقتين فى قفازيهما ، وألقيتها عليه ، سقطت دون أن تناله .

عندئذ كان قد انتهى من كتابة حرف الآى ، ونظر ، ربما بالصدفة ، نحوى .

صحت : مرحباً !

رغم خشيتى من أن تكون إستجابة أومى الوحيدة هى

استجابة مفعمة بالاستياء ، إلا أن عاطفة تستعصى على الوصف كانت تدفعنى ، ولم أكد أطلق صيحتى ، حتى ألفيت نفسى أعدو هابطاً المنحدر نحوه ، وفيما كنت أمضى مسرعاً أهلّ علىّ صوت كان أبعد مما أحلم به ، صيحة ودودة منه ، تضخمها قوته :

- مرحباً ، لا تطىء الحروف !

بدا على وجه اليقين شخصاً مختلفاً هذا الصباح . كان كقاعدة عامة لايؤدى واجباته المنزلية حتى حين يمضى إلى الدار ، وإنما يخلف كتبه فى قمطره ، ويحضر إلى المدرسة فى الصباحات وقد دس كلتا يديه فى جيبى معطفه ، دون أن يتاح له من الوقت إلا ما ينزع فيه معطفه ببراعة ، ويندس فى ذيل الصف المدرسى . ياله من تغير اليوم ! من المحتم أنه لم يكن يقطع الوقت وحيداً منذ الصباح الباكر فحسب ، وإنما هو الآن يرحب بى بابتسامته الفريدة ، الودودة والخشنة فى آن واحد ، وهو الذى عاملنى دائماً كأننى طفل يتدنى عن مستوى الازدراء . لكم طال حنينى إلى هذه البسمة ، ولمعة تلك الأسنان البيضاء الفتية !

لكننى حينما دنوت بما يكفى لمشاهدة وجهه المبتسم عن كثب ، فقد قلبى انفعاله الذى توهج فى اللحظة السابقة التى صحت فيها : مرحبا ! الآن ، فجأة أصابنى الحياء بالشلل ، جمدنى الإدراك الخاطف لكون أومى ، فى قرارة فؤاده ، شخصا تستبد به الوحدة ، ولربما تكلف إبتسامته ليحجب النقطة الضعيفة

فى درعه السابغ ، التى تصادف أن فهمتها ، لكن تلك الحقيقة لم تجرحنى بقدر ما أضاءت الصورة التى كنت أرسمها له .

فى اللحظة التى رأيت فيها تلك الأومى مرسومة على الجليد فهمت ربما بصورة نصف واعية كافة أركان وزوايا وحدته المنعزلة أدركت كذلك الدافع الحقيقى ، الذى ربما لم يتفهمه أومى نفسه بجلاء ، والذى دفعه إلى المجيء مبكراً على هذا النحو فى الصباح إلى المدرسة .. ولو أن معبودى ركع ذهنياً أمامى ، وقدم لى عذراً من قبيل : «أقبلت مبكرا لشهود الشجار بالجليد» لكان من المحقق أننى سأفقد من داخلى شيئاً يتجاوز فى أهميته الكبرياء التى سيفقدها ، وبالنظر لشعورى بأن دورى حان للحديث ، حاولت فى عصبية التفكير فيما يمكن أن أقوله .

أخيرا قلت :

– سينشب شجار بالثلج اليوم ، أليس كذلك ؟ ظننت أن السماء ستمطر المزيد من الجليد .

– إحــم !

علا تعبير قوامه اللامبالاة المفتعلة ملامحه . تصلب النمط الخارجى القوى لفكه مجدداً منعكساً فى خديه ، وبعث ضرباً من المقت الممتزج بالشفقة نحوى فى داخله ، كان من الجلى أنه يبذل

جهداً ليعدنى طفلاً ، مرة أخرى شرعت عيناه تلمعان بوقاحة . ومن الضرورى أنه كان شاكراً لى إلى حد ما عدم طرح سؤال واحد عن أحرفه التى رسمها على الجليد . فتنت بالجهود التى يبذلها لقهر شعوره بالعرفان .

قال : إحم ! أكره لبس قفازات الأطفال .

– لكن الكبار يلبسون قفازات صوفية كهذه .

– يا للمسكين ، أراهن أنك لاتعرف حتى ملمس القفازات الجلدية إليك .. فجأة دفع بقفازيه الجلديين المتقاطرين ثلجا فى وجنتى .

ابتعدت مراوغاً . فى داخلى شب لهب شعور شهوانى بدائى ، فدمغ وجنتى بميسمه . شعرت بنفسى أحدجه بعينين صافيتين كالبللور .

منذ ذلك الوقت فصاعداً ، عشقت أومى .

كان هذا هو العشق الأول فى حياتى ، وإذا ما اغتفرت لى مثل هذه الطريقة الصريحة فى الحديث ، لقلت أنه كان عشقاً حميم الارتباط برغبات الجسد .

بدأ التوق إلى الصيف يساورنى ، أو على الأقل إلى مطلع

الصيف ، رحت أحدث نفسي بأن الصيف يقيناً سيجلب معه فرصة لرؤية جسده العارى ، كذلك كمنت فى أعماقى رغبة خجول فى أن أرى ذلك «الشيء الضخم» الذى له .

على لوحة مفاتيح ذاكرتى ، تقاطعت أسلاك ذلك الزوج من القفازات الجلدية الذى كان لأومى ، وزوج من القفازات البيضاء الطقوسية أبداً لم يلح لى أننى قادر على تحديد أى ضروب الذكرى كانت حقيقية ، وأيها كانت زائفة ، ربما كانت القفازات الجلدية أكثر تناغماً مع ملامحه الخشنة ، ومع ذلك فإنه بسبب ملامحه الخشنة على وجه الدقة ربما غدت القفازات البيضاء مجدداً أكثر التصاقا به .

ملامح خشنة – على الرغم من أننى أستخدم هذه الكلمات، فإن مثل هذا الوصف لا يعدو أن يكون توصيفاً لانطباع خلقه الوجه العادى لشاب وحيد يختلط بصبية . وعلى الرغم من أن تركيبه الجثمانى كان لا مثيل له بيننا فإنه لم يكن أطولنا قامة . ما كان الزى الرسمى الموحى بالإدعاء الذى تطالبنا المدرسة بارتدائه والذي يحاكى زى ضباط البحرية ، ليستقر على أبداننا الغضة ، وحده كان أومى يملأ هذا الزى بشعور الوزن الثقيل وبضرب ما من الشهوانية . مؤكد أننى لم أكن الوحيد الذى ينظر بعينين حاسدتين وعاشقتين إلى عضلاته وكاهله وصدره ، ذلك النوع من

العضلات الذى يمكن تبينه ، حتى تحت زى رسمى خشن الزرقة .

كان ثمة شىء يحاكى شعوراً خفياً بالتفوق يهوم دائماً حول وجهه ، وربما كان هذا النوع من الشعور هو الذى يتعالى لهيبه كلما جرحت كبرياء المرء ، ويبدو أنه بالنسبة لأومى كانت ضروب الفشل من نوعية الرسوب فى الامتحانات والطرد من المدارس رموزا لإرادة محبطة إرادة ماذا ؟ تصورت فى غموض أنه لابد من وجود نوع من الأهداف تنطلق «عبقريته الشريرة» دافعة إياه نحوه . كنت على يقين من أنه لم يعرف تماماً الغرض الكامل من هذه المؤامرة الواسعة النطاق التى تحاك ضده .

ثمة شىء فى وجهه .. يمنح المرء شعوراً بوفرة الدم الذى يتدفق فى زخم عبر بدنه ، كان وجها بدرياً ، ترتفع عظام الوجنتين من خدين داكنين ، شفتان تلوحان وكأنما حيكتا فغدتا خطاً بديعاً ، وفك قوى ضخم ، وأنف عريض وإن يكن حسن التكوين وغير مبالغ فى بروزه . كانت هذه الملامح غطاء لروح لم تعرف الترويض ، ترى كيف كان يمكن لأحد أن يتوقع أن تكون لمثل هذا الشخص حياة سرية غائرة فى الأعماق ؟ كان كل ما يأمل المرء فى أن يجده لديه هو مثال ذلك الكمال المنسى الذى فقدته بقيتنا فى ماض سحيق .

فى بعض الأوقات كانت خاطرة عابرة تدفعه إلى التحديق

فى الكتب المتبحرة ، التى تتجاوز كثيراً عمرى . والتى كنت أعكف عليها . كنت دائماً أبتسم متنصلاً ، وأغلق دفتى الكتاب الذى أمسك به لمنعه من رؤيته ، لم يكن ذلك بدافع الخجل ، وإنما كانت تؤلمنى أية إشارة إلى أنه قد يهتم بأشياء من نوعية الكتب . قد يفصح عن افتقار للمرونة فى التعامل معها ، قد يبدو وكأنه سئم كماله الذى لا يعيه ، شعرت بالمرارة فى التفكير بأن صياد الأسماك هذا قد ينسى الصحراء وينكر أيونيا [1] التى ولد فيها .

رحت أراقب أومى بلا انقطاع ، فى قاعة الدراسة ، وفى الملاعب . فيما كنت أقوم بذلك مضيت فى بناء صرح تصور عنه لا تشوب كماله شائبة ، من ثم فليس بمقدورى أن أجد عيباً واحداً فى الصورة التى ظلت منطبعة على سطح ذاكرتى . وفى عمل كهذا الذى أكتبه ينبغى بعث الحياة فى الشخصية بوصف خاصية مميزة من نوع ما ، هنة محببة ، لكننى لم أستطع أن أنتزع من تذكرى لأومى هنة واحدة من هذا القبيل . غير أنه كان

(١) الأيونيون فرع من العرق الهللينى ، أحل أتيكا والساحل الشمالى للبيلوبونيز ، وأقام مستعمرات خاصة فى آسيا الصغرى ، حيث أطلق الاسم على مقاطعة كبيرة سميت أيونيا ، والإشارة هنا إليها تعميما على بلاد الإغريق التى تعد تقريبا موطن هذا الضرب من العلاقة الإنسانية الخاصة موضع التناول فى النص (هـ . م .) .

هناك ما لا يحصى من الانطباعات الأخرى عن أومى ، لا متناهية فى تنوعها تحفل جميعاً بفروق دقيقة لا تكاد تبين . وبكلمة كان ما استخلصته منه تحديدا دقيقاً لكمال الحياة والرجولة متجسداً فى حاجبيه ، جبينه ، مقلتيه ، أنفه ، أذنيه ، وجبينه ، عظام خديه ، شفتيه ، فكيه قفاه ، عنقه ، بشرته ، لون جلده ، قوته ، صدره ، يده ، وسمات أخرى لا حصر لها تمتع بها .

بهذه السمات كمنطلق مارس مبدأ الاختبار عمله ، وأكملت نسقاً منهاجياً لما أعشق وما أمقت : بسببه لا أستطيع أن أحب شخصا مفكرا ، من جرائه لا يجتذبنى شخص يضع عوينات ، وهو علة شروعى فى عشق القوة ، الانطباع بتدفق الدم ، الجهل ، التلويحات الخشنة ، الحديث اللامبالى ، والانقباض الوحشى الغائر فى لحم البدن ، الذى لم يلوثه الذهن بأى شكل ...

مع ذلك ، ومنذ البداية ، كانت استحالة منطقية تتداخل بالنسبة لى مع هذه الأشواق الفجة ، جاعلة رغباتى مستحيلة التحقيق . ليس هناك كقاعدة عامة ماهو أكثر منطقية من الدافع الشهوانى ، ولكن فى حالتى ما أن أشرع فى مشاركة شخص ما اجتذبنى فى التفاهم الذهنى حتى تتداعى رغبتى فى ذلك الشخص. بل أن اكتشافى أهون النزعات الفكرية شأناً عند رفيق ما كان يجبرنى على الالتزام بتقدير عقلانى للقيم . وفى علاقة أخذ وعطاء

كالحب يتعين على المرء أن يعطى الشيء ذاته الذى يطلبه من الآخر، ومن هنا فإن رغبتى فى الجهل لدى الرفيق قد اقتضت ، أيا كان طابعها المؤقت ، تمرداً غير مشروط من جانبى ضد العقل . لكن مثل هذا التمرد كان مستحيلاً بصورة مطلقة بالنسبة لى .

هكذا فإننى حينما أواجه أولئك الذين يتمتعون باللحم الحيوانى المحصن ، الذى لم يفسده العقل ، الشباب الخشنين ، البحارة الجنود ، الصيادين ، لا يبقى أمامى ما أفعله غير أن أظل أراقبهم من بعيد بلا مبالاة مشبوبة ، حريصاً على ألا أتبادل الحديث معهم . ربما كان المكان الوحيد الذى أستطيع الحياة به فى يسر هو بلاد إستوائية بدائية ، حيث لا أتبادل مع الآخرين إلا جمجمة لا تبين . الآن فيما أتأمل الأمر ، أدرك أننى كنت منذ صدر طفولتى أستشعر توقاً نحو فصول الصيف المتوترة ، من ذلك النوع الذى يتقد للأبد فى البلاد البدائية ..

طيب ، إذن ، هناك تلك القفازات البيضاء التى كنت بسبيلى للحديث عنها .

كانت العادة فى مدرستى أن نكسو أيدينا بقفازات فى أيام الاحتفالات ، كان مجرد وضع زوج من القفازات البيضاء بأزرار من عرق اللؤلؤ ، تلتمع فى كآبة عند الرسغين ، وبثلاثة صفوف

وسيطة من التطريز على الظهر كافياً لطرح رموز كافة أيام الاحتفالات – قاعة الاجتماع الكابية التى تجرى فيها الاحتفالات ، صندوق حلوى الشيوزى الذى نتلقاه عند الخروج ، السماء الصافية التى يبدو أن مثل هذه الأيام تحدث تحتها ضوضاء براقة فى منتصف العام ثم تنهار .

كان ذلك فى عيد قومى خلال الشتاء ، دون شك هو عيد الإمبراطور . فى ذلك الصباح جاء أومى إلى المدرسة مبكرا على غير عادته .

دفع طلاب الصف الثانى الطلبة المستجدين بعيداً عن لوح التأرجح فى الملعب إلى جانب أبنية المدرسة ، مستشعرين بهجة قاسية فى القيام بذلك ، واستولوا عليه تماماً . ورغم أنهم بدوا ظاهرياً وكأنهم يزدرون لعبة كالأرجوحة ، فإنهم فى قرارة أفئدتهم كانوا يستشعرون حنيناً متأرجحاً إليها ، ويطردهم الطلاب المستجدين عنوة تمكنوا من اصطناع مظهرا ينقذ ماء وجوههم ، يدعون فى ظله الانغماس فى هذا اللهو على نحو شبه باعث على السخرية ودونما جدية . تحلق الطلاب المستجدون حول الأرجوحة على مبعدة ، وراحوا يراقبون اللعب الخشن ، الذى يمارسه طلاب الصف الأعلى ، الذين كانوا بدورهم يدركون أن ثمة جمهوراً يراقبهم . كانت الأرجوحة المعلقة على سلاسل تترنح جيئة وذهاباً

على نحو إيقاعى بحركة مدك ، وكان السباق يدور حول جعل الخصم يسقط من فوق اللوح .

وقف أومى غارساً قدميه فى منتصف لوح الأرجوحة ، متطلعاً حوله فى لهفة بحثاً عن خصوم ، لاح فى هذا المشهد كأنه قاتل حيل بينه وبين القرار .

لم يكن هناك أحد فى صفنا يمكنه الوقوف نداً له ، قفز عدد من الفتيان إلى اللوح أحدهم إثر الآخر ، لتلقيهم يدا أومى السريعتان أرضاً ، لاحت خطاهم وقد انطبعت مبتعدة على الجليد فى الأرض المحيطة بالأرجوحة ، التى راحت تألق فى أشعة الصباح الباكر .

إثر كل فوز كان أومى يضم يديه معاً ، ويرفعهما عالياً فوق رأسه ، شأن ملاكم فائز ، مبالغاً فى الابتسام ، فيهلل طلاب السنة الأولى ، ناسين أنه تزعم طردهم بعيداً عن الأرجوحة .

تبعت عيناى يديه المكسوتين بالقفازين الأبيضين . كانتا تتحركان بضراوة ، ولكن فى إحكام رائع كمخالب حيوان فتى ، ربما مثل ذئب ، وبين الفينة والأخرى تشقان هواء البكرة الشتوية ، مثل ريشتى سهم ، لتصيبا مباشرة صدر خصم . دائما كان الخصم يتهاوى إلى الأرض المكسوة بالجليد ، ساقطاً مرة على

قدميه ، وأخرى على مؤخرته . فى مرات نادرة ، ولحظة دفع الخصم بعيداً عن اللوح ، كان أومى نفسه يبدو على وشك السقوط، وفيما هو يكافح لاستعادة توازن جسده المائل ، كان يبدو مترنحاً فى عناء هناك فى سمت اللوح الذى غدا زلقاً بفعل الجليد منطفىء البريق ، لكن القوة الكامنة فى إليتيه المطواعتين اللدنتين كانت ترده، مرة أخرى إلى ذلك الوضع الذى يلوح فيه كالقاتل .

تحرك اللوح يمنة ويسرة ، كأنما من تلقاء ذاته ، فى أقواس لاتعرف الاضطراب ...

فيما رحت أراقب ، عمنى فجأة قلق ، ضرب مبرح الألم من القلق يستعصى على التفسير . حاكى دواراً كالذى يمكن أن يلم بالمرء من جراء التحديق فى تأرجح اللوح ، لكنه لم يكن كذلك . ربما كان دواراً ذهنياً ، قلقا يغدو توازنى الداخلى فيه على وشك التداعى ، إزاء مرأى كل حركة من حركاته المحفوفة بالخطر . وتفاقم اهتزاز هذا الاضطراب من جراء وجود قوتين متضادتين فى غماره راحتا تتجاذباننى ، وكل منهما تنشد السيطرة علىّ ، كانت الأولى غريزة حفظ الذات ، أما القوة الثانية ، التى عقدت العزم بعمق أشد وزخم أكبر على التدمير التام لتوازنى الداخلى ، فكانت دافعاً لا يقاوم باتجاه الانتحار ، دافعاً مراوغاً ، خفياً ، غالباً ما يسلم المرء نفسه له دونما وعى .

– ماذا دهاكم ، ياحفنة من الجبناء . أما من آخر يبرز لى؟

كان جسم أومى يتأرجح فى رقة يمنة ويسرة ، وإليتاه تطاوعان حركة الأرجوحة . أراح يديه المكسوتين بالقفازين الأبيضين فوقهما ، تألق الشعار المذهب على قبعته تحت شمس الصباح . أبداً لم أره وسيماً كما لاح لى فى هذه اللحظة .

صحت : أنا لها !

تزايد وجيب قلبى معربداً فى عنف . استخدمته كمقياس لأقدر على وجه الدقة اللحظة التى سأنطق فيها بهذه الكلمات أخيراً . كان الأمر كذلك دائماً فى اللحظة التى أستسلم فيها للرغبة . بدا لى أن ذهابى ووقوفى بإزاء أومى على ذلك اللوح هو حقيقة قدرت سلفاً ، وليست عملا أملاه دافع فحسب ، وفى سنوات تالية ضللتنى أعمال كهذه ، وحملتنى على التفكير بأننى «رجل يتمتع بإرادة قوية» .

صاح الجميع : حذار ! حذار ! سيطاح بك .

وسط هتافاتهم الساخرة ، صعدت إلى أحد جانبى الأرجوحة . فيما حاولت الصعود شرعت قدمى فى الانزلاق . من جديد حفل الهواء بصيحات السخرية الصاخبة .

حيّانى أومى بوجه ضاحك . حاول التظاهر بالبلاهة بكل

قوته ، وتصنع أنه على وشك الانزلاق ، جعل يضايقنى بالتلويح بأصابعه المقفزة ودفعها نحوى ، أمام عينى بدت تلك الأصابع بمثابة الأطراف الحادة لسلاح خطر يوشك أن يخترقنى .

إلتقت راحات أيدينا المكسوة بالقفازات مرات عديدة فى صدمات لاذعة الألم ، وفى كل مرة كنت ألتوى تحت عتو الضربة ، بدا جلياً أنه كان يكبح جماح قوته عامداً ، كأنما كان يرغب فى الاستمتاع باللهو بى ، مؤجلاً ما كان يمكن أن يكون لولا ذلك هزيمة ماجلة تحيق بى .

- أوه ! إننى خائف - ما أقواك ! لقد هزمت ، أوشك على السقوط ، أنظر إلىّ !

أبرز أومى لسانه ساخراً ، وتظاهر بأنه على وشك السقوط.

كان أمراً مؤلماً على نحو عصى الاحتمال أن أرى وجهه الساخر ، أن أشاهده يقضى دونما قصد على جماله . وعلى الرغم من أننى كنت الآن أدفع للخلف على اللوح لم أستطع إلا أن أنكس رأسى . فى هذه اللحظة عينها فوجئت بانقضاضة من يده اليمنى وفى اندفاع تلقائى لتجنب السقوط ، دفعت بيدى اليمنى فى الهواء ، وأفلحت بالمصادفة فى التشبث بأطراف أصابع يده اليمنى غمرنى شعور مضمخ بالحياة

بملمس أصابعه المتضامة داخل قفازه الأبيض .

للحظة ، حدق أحدنا في مقلتي الآخر . كانت حقاً لحظة واحدة ، تبددت النظرة الساخرة ، واكتسى وجهه تعبيراً غريب الشحوب . تذبذب شيء نقي ، شيء ، لا هو عداء ولا هو مقت ، هناك كأنه وتر قوس . أو ربما كان هذا خيالاً فحسب . ربما لم يعد ذلك أن يكون النظرة الصارمة الجوفاء التي فرضتها لحظة شعر فيها بأنه يفقد توازنه ، وهو يجذب من أطراف أصابعه . أياً ما كان الأمر ، أدركت بجدسي وعلى وجه اليقين أن أومي أدرك الطريقة التي أنظر بها إليه في تلك اللحظة ، وشعر وأحس بالقوة الخافقة التي تدفقت كالبرق بين أصابعنا ، وخمن كنه سري : أنني أعشقه ، ولا أحب أحداً غيره في الدنيا .

في هذه اللحظة عينها ، على وجه التقريب ، سقطنا كلانا من فوق لوح الأرجوحة .

ساعدني أحدهم في الوقوف ، كان أومي هو الذي ساعدني جذب يدي عاليا بخشونة ، ودون كلمة واحدة أزاح القذر عن ردائي المدرسي . كان مزيج من القذر والجليد المتألق يلطخ كوعه وقفازيه

تأبط ذراعي ، شرع في السير بعيداً معي . تطلعت إلى

وجهه ، كأنما فى استنكار لهذا الإفصاح عن الحميمية .

كنا جميعا فى مدرستى زملاء فى الدراسة منذ أيام المدرسة الابتدائية ، ولم يكن ثمة ما هو غير مألوف فى أن يضع أحدنا يده على كتفى الآخر . فى هذه اللحظة دوت صفارة تشكيل الصفوف ، فسارع الجميع وهم يسيرون على هذا النحو الحميم ذاته ، لم يكن سقوطى مع أومى على الأرض ، بالنسبة لهم ، إلا ختاما للعبة ، كانوا قد شرعوا تدريجيا فى الشعور بالضيق والملل من مشاهدتها ، بل أن سيرى مع أومى بأذرع متشابكة ما كان بالمشهد الذى يستحق انتباهاً خاصاً .

لكل هذا ، كانت بهجة غامرة تلك التي استشعرتها فيما كنا نسير وأنا متكىء على ذراعه ، وربما لبنيتى الهشة كنت أستشعر دائماً هاجساً بمقدم الشر فى غمار كل فرحة . لكنني فى هذه المرة لم أشعر إلا بالملمس الوحشى الحاد لذراعه ، بدا هذا الشعور وكأنه ينتقل من ذراعه إلى ذراعى ، وحينما يلج جسمى ينتشر ، إلى أن يتدفق فيضاناً في بدنى بكامله . أحسست أننى ينبغى أن أسير معه ، على هذا النحو ، حتى نهاية الأرض .

لكننا وصلنا إلى المكان الذى تتشكل فيه الصفوف ، حيث سرعان ما ترك ذراعى واحتل مكانه فى الصف . بعد ذلك لم ينظر

باتجاهى ، وخلال الحفل الذى تلا هذا جلس على بعد أربعة مقاعد منى ، ومراراً وتكراراً رحت أنقل ناظرى بين اللطخ التى تعلو قفازى الأبيضين وتلك التى تكسو قفازى أومى .....

تجردت عبادتى العمياء لأومى من أى عنصر من عناصر النقد الواعى ، وحيثما تعلق الأمر به غابت الرؤية الأخلاقية عنى ، وما إن كنت أحاول الأمساك بكتلة عبادتى العاشقة الفوضوية فى إطار قيود التحليل حتى تتبدد منداحة فى المجهول . وإذا كان قد وجد فى يوم من الأيام عشق يتجرد من الدوام ومن التطور ، فقد كان هذا هو على وجه الدقة العاطفة التى استشعرتها . كأنما كانت العينان اللتان أرمق بهما أومى دائماً هما عينان تعرفان «النظرة الأولى» أو كانت - إذا جاز القول بذلك - عينى «النظرة البدائية» كان موقفا غير واع على نحو محض من جانبى ، جهداً دءوبا لحماية نقائى البالغ الرابعة عشرة من العمر من عملية التآكل.

أيمكن أن يكون هذا حبا ؟ لنفترض أنه شكل من أشكال الحب ، فعلى الرغم من أنه يحتفظ عند النظرة الأولى فيما يبدو بنقائه إلى الأبد بتكرار شكله مرات عديدة ، فإنه بدوره يتمتع بضربه الخاص الفريد من التدنى والتحلل . وقد كان تدنياً أكثر تفجراً بالشر من أى تدن لضرب عادى من الحب . حقاً أنه من بين كافة ضروب التحلل فى هذا العالم يبدو النقاء المتحلل أكثرها خبثاً .

رغم هذا ، وفى غمار عشقى هذا الذى لم يجاز لأومى ، فى خضم هذا الحب الأول الذى واجهته فى الحياة بدوت كطائر صغير يخفى شهواته البدنية البريئة تحت جناحه . لم يكن ما يغرينى هو الرغبة فى التملك ، إنما أغوانى الأغراء ذاته متجرداً من كافة ضروب التجمل .

أقل ما يقال إننى أثناء وجودى بالمدرسة ، وبصفة خاصة خلال الدروس مضجرة ، ما كنت أستطيع نزع عينى بعيداً عن الملمح الجانبى لوجه أومى ترى ماذا كان بوسعى أن أفعل أكثر من ذلك فى وقت كنت أجهل فيه أن الحب هو أن تسعى ويسعى إليك ؟ لـم يكن الحب بالنسبة لـى يتجاوز حواراً قوامه احجيات صغيرة لا ردود عليها ، أما عن روح عشقى المتبتل فلم يحدث أبداً أن تخيلت أنه شىء يتطلب نوعا من الرد .

أصابتنى نوبة برد ذات يوم ، ورغم أنها لم تكن ذات بال على الاطلاق فقد مكثت فى الدار ، ولم أذهب للمدرسة ، لدى عودتى إليها فى اليوم التالى ، اكتشفت أن اليوم الذى تغيبت فيه لم يكن إلا يوم الفحص الطبى لفصل الربيع فى عامنا الثالث ، وبالمثل تغيب العديد من الطلاب الآخرين عن الفحص ، فمضينا جميعاً إلى العيادة .

هناك ، راح موقد غازى يرسل فى سنا الشمس لهباً

أزرق متهافتاً ، حتى ليصعب على المرء التيقن من أنه مشتعل . لم يكن ثمة إلا رائحة المطهرات . لم تفح تلك الرائحة التى تذكر باللون الوردى الشاحب ، التي تسود فى قاعة تزدحم بفتية ينتظرون فحصاً طبيا وأجسامهم العارية تتضارب وتتدافع بعضها نحو البعض الآخر . بدلاً من ذلك لم يكن هناك إلا عدد محدود منا ينزعون ثيابهم فى صمت ، وهم يرتعدون على نحو بائس ...

ثمة فتى مهزول ، كان مثلى دائم الإصابة بنوبات البرد . اعتلى الميزان ، رحت أحدق فى ظهره الشاحب الناتىء العظام المكسو بالزغب . فجأة تذكرت رغبتى الأزلية الوحشية فى رؤية جسد أومى العارى . أدركت كم كنت غبياً حينما لم أعرف مسبقاً أية فرصة متكاملة كان يمكن أن يتيحها الفحص الطبى أمس لتحقيق هذه الرغبة ، أما الآن وقد ضاعت هذه الفرصة بالفعل فلم يبق ما أفعله إلا انتظار صدفة عشوائية فى المستقبل .

غمرنى الشحوب . فى غمار شعورى باللون الضارب إلى الخضرة الذى كسانى فجأة ، عرفت ضرباً من الأسى يحاكى برداً يخترق العظام . حدقت ذاهلاً فى الهواء ، خادشاً قروح التطعيم البشعة التى تعلو ذراعىّ النحيلتين . نودى اسمى ، بدا الميزان تماماً مثل مقصلة تعلن ساعة إعدامى .

– ثمانية وثمانون .

نبح الممرض ناحية طبيب المدرسة ، كان حاجباً سابقاً فى مستشفى عسكرى ، ومازال يحتفظ بالسمات العتيقة .

غمغم الطبيب محدثاً نفسه ، فيما هو يدون الرقم فى بطاقتى :

– وددت لو أنه بلغ تسعين رطلاً على الأقل .

إعتدت التعرض لهذه المعاملة فى كل فحص طبى . لكننى اليوم كنت سعيداً لأن أومى لم يكن حاضراً ، فيشاهد إذلالى حتى إن كلمات الطبيب لم تسبب لى العذاب المعتاد ، وللحظة تصاعد شعورى بالارتياح ، حتى رقى إلى مرتبة الفرح ...

– ليكن ، التالى !

دفع الممرض كتفى منحيا وقد نفد صبره ، لكننى هذه المرة لم أحدجه بنظرة الكراهية والضيق المعتادة .

بالرغم من هذا كله ، فمن المحتم أننى استشرفت نهاية حبى الأول ، وفى الغالب كان هذا القلق الذى خلقه هذا الهاجس هو الذى شكل بؤرة لذتى .

حل يوم فى أواخر الربيع ، بدا كعينة حائك قصت من

حزام الصيف ، أو مثل تجربة ثوب الفصل المقبل . كان ذلك هو اليوم الذى يقبل موفداً من قبل الصيف ليتفقد خزائن ثياب الجميع ويتيقن من أن كل شىء معد . كان اليوم الذى يبدو فيه الناس وقد ارتدوا قمصان الصيف ليظهروا أنهم اجتازوا امتحاناً عسيراً .

أصابتنى نوبة برد ، رغم دفء اليوم ، والمتنى شعبى الهوائية ، تصادف أن أحد أصدقائى عانى من آلام فى معدته ، فمضينا معا إلى العيادة لنحصل على تصاريح مكتوبة تخولنا أن نراقب التدريبات الرياضية فحسب ، دون أن نضطر للمشاركة فيها.

فى طريق عودتنا سرنا نحو قاعة الألعاب الرياضية بأقصى بطء نستطيعه ، أمدتنا زيارتنا للعيادة بسبب وجيه لتأخرنا حرصنا على أن نقلل ولو بهامش محدود الوقت المضجر الذى سنمضيه فى مشاهدة الألعاب .

– ياإلهى . كم هو حار هذا اليوم ، ألا تراه كذلك ؟

قلتها ، نازعا سترة ردائى .

– خير لك ألا تفعل هذا ، على الأقل وأنت مصاب بالبرد ، سيرغمونك على التدريب على أية حال ، إن رأوك على هذا النحو .

أعدت ارتداء سترتى مسرعاً .

– لكن الأمر سيكون على ما يرام بالنسبة لى ، فمعدتى وحدها هى التى تؤلمنى . قالها صديقى ، وشرع فى حذق ينزع سترته ، كأنما ليغيظنى بذلك .

بلغنا قاعة الألعاب ، فرأينا من خلال الملابس المعلقة على المشاجب الممتدة على الحائط أن الفتية نزعوا ستراتهم ، بل وخلع بعضهم قميصه لاحت المنطقة المحيطة بأجهزة التدريب متألقة الضوء ، ونحن نطل عليها من القاعة المعتمة . أفرز تركيبى الهش استجابته المعتادة ، سرت نحو أجهزة التدريب مصدرا سعالى القصير الشكس .

لم يكد مدرب الألعاب الرياضية الهين الشأن يلقى نظرة على أعذارنا الطبية المكتوبة التى أسلمناها له ، وإنما التفت على الفور إلى الفتية المنتظرين ، وصاح :

– ليكن حالياً ، دعونا نجرب «العقلة» ، أومى أرهم كيف يؤدى التدريب !

شرعت أصوات ودودة تردد اسم أومى خلسة ، كان قد اختفى على نحو ما يصنع غالباً خلال التمارين الرياضية . ولم يكن أحد يدرى ماذا يصنع فى هذه المناسبات ، لكنه فى هذه المرة أقبل مجدداً فى تكاسل من وراء شجرة كانت أوراقها الخضراء

الغضة ترتعد في خفة .

حينما رأيته ، إصطخب قلبى فى صدرى ، كان قد نزع قميصه ، لم يترك شيئاً يكسوه إلا قميصاً داخلياً ألاق البياض دون أكمام يغطى صدره . جعلت بشرته الداكنة القميص الداخلى يبدو أكثر نصاعة ، كان بياضاً يمكنك على وجه التقريب أن تتشممه على بعد كأنه لصوق باريس . وكان ذلكَ اللصوق الأبيض محاكاً على نحو مريح يظهر التعاريج الجريئة لصدره ، ويشف عن حلمتيه .

– العقلة . أليس كذلك ؟

سأل أومى المدرب في جفاف ، وبصوت يشى بالثقة .

– بلى . هذا صحيح .

عندئذ ، وبذلك التراخى المتعالى ، الذى غالباً ما يبديه من يتمتعون بتركيب جثمانى وثيق ، مد أومى يديه إلى الأرض لاهياً ، كسيا راحتيهما بالرمل المبلل من تحت سطح الأرض مباشرة ، نهض ، حك يديه إحداهما بالأخرى فى خشونة ، إلتفت نحو العقلة إلتمعت عيناه بحسم جرىء ، كمن يتحدى الآلهة . وللحظة عكس بؤبؤاه سحب وسماء مايو الزرقاء بترفع بارد .

إندلعت وثبة فى بدنه . فى الحال تدلى جسمه من العارض

معلقاً هناك بذراعيه القويتين ذراعان جديران يقيناً بوشم الهلب .

– آآه !

ارتفعت صيحة الاعجاب التى ندت عن رفاقه ، وطفت دبقة فى الهواء .

كان بوسع أى من الفتية أن يحدق فى قلبه ، ويكتشف أن إعجابه لم يثر إزاء إستعراض القوة الذى قام به أومى . وإنما كان إعجابا بالشباب ، بالحياة ، بالتفوق . وكان دهشة إزاء وفرة الشعر النامى الذى كشفت ذراعا أومى المرفوعتان عنه تحت أبطيه.

تلك هى المرة الأولى ، ربما ، التى رأيت فيها مثل هذه الوفرة من الشعر . بدت مبالغة وإسرافا ، شأن الوفرة المترفة لبعض أعشاب الصيف الشائكة ، ومثلما يحدث حينما لا تكتفى مثل هذه الأعشاب بتغطية حديقة فى الصيف ، فتمتد فوق درج حجرى ، كذلك تدفق الشعر ناتئا من أبطى أومى البديعين ، وتمدد كثيفاً نحو صدره . تألقت هاتان الأجمتان فى وميض صقيل وهما تستحمان فى نور الشمس ، وبدا البياض الشاهق لجلده هناك مثل رمال بيضاء تطل منهما .

حينما شرع فى جذب جسده إلى أعلى فوق العارض ، برزت عضلاته صلدة ، وتضخم كتفاه مثلما سحب الصيف .

تحولت أجمتا ابطيه إلى ظلال قاتمة واختفتا تدريجياً ، وأخيراً إحتك صدره متصاعداً عاليا بالعارض الحديدى ، مرتجفاً هناك فى رقة ، وبتكرار هذه الحركات راح يجذب جسده عالياً مرات عديدة .

قوة الحياة . كانت الوفرة المحض لقوة الحياة هى التى تدفقت فغمرت الفتية . قهرهم الشعور الذى كان يمجه بتمتعه بزخم الحياة ، الشعور بالعنف المفتقر للهدف الذى لا يمكن تفسيره إلا باعتباره حياة توجد من أجل ذاتها ، نمطه الخاص من وفرة الحياة اللامبالية مكفهرة المزاج . دون أن يدرى أومى انسلت قوة ما إلى لحمه ، وعكفت على السيطرة عليه والاندفاع عبره والتقاطر خارجة لتكسف بهاءه . فى هذا الصدد حاكت هذه القوة المرض . وإذ أصيب لحمه بهذه القوة العنيفة ، وضع على الأرض لا لشىء إلا ليصبح ضحية بشرية مجردة من العقل ، ضحية لاتخشى العدوى . والأشخاص الذين يحيون فى خوف من العدوى لا يمكنهم إلا النظر لمثل هذا اللحم باعتباره تقريعاً مريراً ... تراجع الفتية مترنحين ، بعيدا عنه .

أما عنى ، فقد ساورنى الشعور ذاته الذى اجتاح الفتية الآخرين ، مع اختلافات مهمة ، وكان كافيا على أية حال لجعل وجهى يتضرج خجلاً ، فقد كنت أعانى من انتصاب منذ اللحظة

الأولى التى لمحت فيها تلك الوفرة المتموجة تحت أبطية . كنت أرتدى سراويل ربيعية خفيفة ، وخفت أن يلاحظ الفتية الآخرون ما وقع لى ، وحتى إذا نحينا الخوف جانباً فقد كان ثمة انفعال آخر يخترم قلبى ، لكنه لم يكن يقيناً نشوة خالصة . قبعت هناك ، أحدق فى البدن العارى الذى طالما اشتقت لرؤيته ، وأطلقت صدمة رؤيته على نحو غير متوقع سراح إنفعال بداخلى كان مناقضا للفرح .

كان هذا الأنفعال هو الغيرة ..

قفز أومى إلى الأرض بمظهر كذلك الذى يبدو به من أنجز عملاً نبيلاً ، حينما سمعت صدمة سقوطه أغمضت عينى ، وهززت رأسى ، ثم حدثت نفسى بأنى ما عدت أعشق أومى .

كانت الغيرة ، غيرة وحشية حتى لتدفعنى مختارا للتنكر لعشقى لأومى . .

ربما كان للحاجة - التى بدأت أستشعرها حوالى ذلك الوقت إلى مساق أسبرطى فى الانضباط الذاتى - علاقة بهذا الموقف (لا يعدو كونى عاكفاً ، على تدبيج هذا الكتاب أن يكون بالفعل مثالاً على جهودى المتواصلة فى هذا الاتجاه) كنت دائماً ، بسبب مرضى والرعاية المسرفة التى تلقيتها منذ حداثتى ، أكثر

خجلاً من أن أحدق فى عيون الناس مباشرة ، لكنى الآن يسيطر عليّ شعار واحد : «كن قويا!» .

ولتحقيق هذه الغاية عكفت على ممارسة تدريب يتمثل فى التقطيب بثبات فى وجه هذا الراكب أو ذاك من ركاب الحافلات ، التى كنت أستقلها في الذهاب إلى المدرسة والعودة منها . لم يبد معظم الركاب الذين كنت أختارهم بصورة عشوائية ما ينم بصفة خاصة عن الخوف من أن يحدق بهم فتى ضعيف شاحب ، لكنهم كانوا يلتفتون إلى الناحية الأخرى ، وكأنما حل بهم الضيق ، ونادراً ما كان أحدهم يبادلنى التقطيبة بمثلها ، وحينما ينظرون بعيداً كنت أعد ذلك فوزاً لى ، وبهذه الطريقة دربت نفسى تدريجيا على التحديق فى عيون الناس ..

بعد أن قررت أنني تخليت عن الحب ، أزحت كافة الأفكار الأخرى عنه من ذهني ، كان ذلك استنتاجاً متعجلاً يفتقر إلى التفكير . لم أضع موضع الاعتبار واحداً من أوضح براهين العشق الجنسي ، أي ظاهرة الانتصاب . فعلى امتداد فترة طويلة حقاً عرفت الانتصاب مرات عديدة ، إنغمست كذلك فى تلك «العادة السيئة» التى تستحث الانتصاب حينما أنفرد بنفسى ، دون أن أصبح مدركاً لما تأتيه يداى . وعلى الرغم من تملكى لناحية المعرفة المعتادة فيما يتعلق بالجنس ، لم يكن الشعور

بكونى مختلفاً قد أصابنى بعد .

لا أرمى إلى القول بأننى كنت أنظر إلى رغباتى تلك ، التى تنحرف عن المعايير المقبولة ، باعتبارها رغبات عادية وتقليدية ، ولا أقصد أننى كنت أتصرف بوحى الانطباع الخاطىء بأن أصدقائى كانت لهم الرغبات نفسها . ومن الغريب أننى كنت منغمساً فى أقاصيص رومانسية ، حتى أني وهبت كافة أحلامى الوردية لأفكار عن الحب بين رجل وعذراء وعن الزواج ، تماماً كما لو كنت فتاة صغيرة لاتعرف شيئاً عن الدنيا . ألقيت بحبى لأومى إلى كومة من نفايات الأحجيات المهملة دون أن أبحث مرة واحدة بعمق عن معناه الآن حينما أكتب كلمة حب ، عندما أدون كلمة عاطفة، أجد أن المعنى الذى أفهمهما به مختلف تماماً عن فهمى للكلمتين فى ذلك الوقت . بل أننى لم أحلم أبداً بأن مثل هذه الرغبات التى استشــعرتها نحـو أومــى قد يكون لها اتصال مهم بالحقائق الواقعية لحياتى.

ومع ذلك فإن غريزة ما بداخلي كانت تلح فى جعلى أسعى للعزلة ، حتى أظل نائياً بحسبانى شيئاً مفارقاً . تجلت هذه القوة القاهرة فى شكل ضيق غريب وغامض ، وقد سبق لى أن وضعت بالفعل كيف أن شعوراً بالقلق كان يجثم علـى صــدرى لدى فكـرة تحولى إلـى فتى بالـغ ، وقـد استمر شعورى بالنمو مصحوباً بقلق غريب نافذ .

خلال سنوات نموى حيكت طية عميقة إلى كافة السراويل الجديدة لتتم إطالتها كل عام ، وكما هو الشأن فى أية أسرة أخرى سجل طولى المتزايد بعلامات متتابعة بالقلم على أحد أعمدة الدار . كانت الاحتفالات الصغيرة لهذه المقاييس الدورية تجرى دائماً فى قاعة المعيشة ، تحت أنظار العائلة بأسرها ، وفى كل مرة كانوا يداعبوننى ، يجدون لذة ضيقة الأفق فى استطالة قامتى ، كنت أرد بابتسامات مغتصبة .

ملأتنى فكرة أننى قد أبلغ طول فتى بالغ بهاجس خطر مخيف ، فمن ناحية تفاقم شعورى غير القابل للتحديد بالقلق من قدرتى على أن أعيش أحلاماً منبتة الصلة بالواقع ، ومن ناحية أخرى دفعنى نحو «عادتى السيئة» التى جعلتنى ألوذ بتلك الأحلام كان القلق عذرى ..

ذات مرة قال لى صديق ضاحكاً ، مشيراً إلى ضعف بنيتى:

– يقيناً ستلقي حتفك قبل بلوغ العشرين .

– ياله من قول فظيع !

رددت مجعداً وجهى فى إبتسامة مريرة . لكن نبوءته كانت تتمتع بجاذبية غريبة العذوبة وروومانسية بالنسبة لى .

واصل حديثه قائلا :

- أترغب فى الرهان على هذا ؟

- لكنك إذا راهنت على موتى ، فلن يبقى لى إلا أن أراهن على حياتى .

قال صديقى متحدثا بكل قسوة الشباب :

- هذا صحيح . أليس كذلك ؟ ياله من عار . أليس كذلك . يقيناً ستخسر . ألن تخسر ؟

كان الأمر حقيقياً ، لا ينطبق علىّ وحدى ، وإنما على كافة الطلاب ممن هم فى عمرى ، مامن شىء يقارب نضج أومى كان يمكن رصده بعد تحت اباطنا ، وإنما كانت هناك فحسب براعم بالغة الوهن ، يعد الأمل بأنها قد تزهو يوماً ، لهذا السبب لم يحدث من قبل أبداً أن أبديت اهتماماً خاصاً بهذا الجزء من جسدى ، يقيناً أن مرأى الشعر تحت إبطى أومى فى ذلك اليوم هو الذى أورثنى الولع بالابط .

مضى الأمر على هذا النحو حتى أننى كنت حينما أستحم أقف طويلاً أمام المرآة ، محدقاً فيما انعكس على صقالها قبيحاً من بدنى العارى ، كانت تلك حالة أخرى لفرخ البط القبيح الذى أعتقد أنه سيغدو بجعة ، اللهم إلا فيما يتعلق بأنه فى هذه المرة قدر لتلك القصة الخرافية البطولية أن تكون لها نهاية عكسية على

وجه الدقة ، وعلى الرغم من أنه لم يكن هناك أدنى تشابه بين كتفيّ المهزولين وصدرى الضيق وبين كتفى أومى وصدره ، فقد كنت أحدق بها فى المرآة ، وأجد عنوة أسباباً للاعتقاد بأننى سيكون لى ذات يوم صدر مثل صدر أومى وكتفان يحاكيان كتفيه . ولكن على الرغم من هذا ، تكوّن جليد هش هنا وهناك فوق سطح قلبى . كان شيئاً يتجاوز القلق . كان ضرباً من القناعة المازوكية ، قناعة راسخة ، كأنما تستند إلى وحى إلهى ، قناعة جعلتنى أحدث نفسى : «أبداً لن تستطيع فى هذه الدنيا أن تحاكى أومى» .

فى أعمال الطبع بالروسم التى خلفها عهد الجنروكو يجد المرء غالباً أن ملامح العاشقين متماثلة على نحو مذهل ، فليس هناك إلا القليل مما يميز الرجل عن المرأة ، وبالمثل يقترب المثال السائد للجمال فى النحت الأغريقى من التماثل الوثيق بين الأنثى والذكر . ألا يمكن أن يكون ذلك أحد أسرار الحب ؟ ألا يمكن أن يسرى فى أعمق مكامن الحب حنين يرغب كل من الرجل والمرأة فى إطاره فى أن يصبح على وجه الدقة صورة الآخر ؟ ألا يمكن أن يدفعهما هذا الحنين قدماً ، فيقودهما أخيراً إلى رد فعل مأساوى ، يسعيان فى غماره لتحقيق المستحيل بالمضى إلى الطرف الأقصى المناقض ؟ وباختصار ، حيث أن حبهما المتبادل لا يمكن أن يحقق كمال الهوية المشتركة ، أليست هناك عملية ذهنية يحاول كل منهما عن طريقها تأكيد نقاط اختلافهما ، فيؤكد الرجل

ذكورته والمرأة أنوثتها ، ويستخدم هذا التمرد ذاته كشكل من أشكال الدلال نحو الآخر؟ أو أنهما إذا ما حققا التماثل فإنه لسوء الطالع لايدوم إلا للحظة وهم عارضة . ذلك أنه فيما تصبح الفتاة أكثر جرأة والفتى أشد حياء ، تحل لحظة يتجاوز كل منهما الآخر فيها ، ماضياً نحو الطرف المقابل ، مبالغين فى تحقيق هدفهما ، وماضين إلى ما وراء ذلك ، إلى نقطة عندها يتلاشى الهدف .

إذا نظرنا فى هذا الضوء إلى غيرتى ، غيرة كانت من الوحشية بحيث دفعتنى لأن أحدث نفسى بأنى تخليت عن حبى ، لوجدنا حباً أكبر . كنت قد انتهيت بعشق تلك الأشياء المماثلة لتلك التى لأومى ، والتى كانت بدرجات بطيئة ، وعلى نحو متباعد ، تبرعم تحت إبطى ، تنمو تغدو أكثر دكنة وقتامة ..

حلت العطلة الصيفية . على الرغم من إننى كنت أتطلع إليها بصبر نافد ، فقد برهنت على أنها واحدة من فترات الانتظار تلك التى لا يعرف المرء خلالها ماذا يصنع بنفسه ، ورغم سعيى إليها ، برهنت على أنها وجبة عسيرة الهضم بالنسبة لى .

منذ إصابتى بحالة سل خفيفة فى طفولتى ، خطر على الطبيب تعريض نفسى للأشعة فوق البنفسجية القوية ، وما كان يسمح لى بقرب البحر أن أظل تحت أشعة الشمس المباشرة لأكثر

من نصف ساعة فى المرة الواحدة ، وكان أى إنتهاك لهذه القاعدة يجلب معه عقابه الخاص فى صورة هجوم سريع للحمى . بل لم يكن يسمح لى بالمشاركة فى التمرين على السباحة بالمدرسة ، من ثم فلم أتعلم كيفية السباحة أبداً ، وفيما بعد اكتسب هذا العجز عن السباحة أهمية جديدة ، فيما يتعلق بافتتانى الملح بالبحر وما غدا يعنيه بالنسبة لى ، وبتلك المناسبات التى قبضت قوته الكاسحة فيها على ناصيتى .

غير أننى لم أكن فى الوقت الذى أتحدث عنه قد قابلت إغراء البحر الغلاب هذا ، مع ذلك وفى غمار رغبتى بشكل مافى أن أنفض ضجر فصل كان مقيتاً تماماً بالنسبة لى ، فصل كان فضلاً عن ذلك يوقظ فىّ أشواقاً عصية التفسير ، أمضيت الصيف على الشاطىء مع أمى وأبى وأخى وأختى ...

فجأة أدركت أننى قد تركت وحدى على الصخرة .

كنت قد سرت على امتداد الشاطىء نحو هذه الصخرة مع أخى وأختى ، منذ وقت قصير ، باحثين عن الأسماك الصغيرة التى كانت تتألق فى البريكات التى تصنعها الصخور . لم يكن صيدنا طيباً على نحو ما توقعنا ، فحل الضجر بأختى وأخى الصغيرين . أقبلت خادمة لتدعونا للعودة إلى مظلة الشاطىء ،

حيث كانت تجلس أمى . رفضت العودة غاضباً ، فصحبت الخادمة أخى وأختى ، وعادت بهما مخلفة إياى وحيداً .

راحت شمس أصيل الصيف تضرب سطح البحر فى دأب كان الخليج بأسره امتداداً هائلاً من الوهج ، وعلى الأفق وقفت بعض سحب الصيف ساكنة ملتفة بالصمت ، وقد غرست نصف أشكالها الرائعة الجنائزية الحافلة بالنذير فى البحر . كانت عضلات السحب شاحبة كالمرمر .

إنطلقت بضع مراكب شراعية وزوارق بخارية بعيداً عن رمال الشاطىء ، راحت تتحرك فى تكاسل على سطح البحر المفتوح الصدر . وفيما عدا الأشباح الضئيلة للمراكب لم يبد مخلوق بشرى واحد . حل صمت مراوغ بكل شىء ، كما لو أن امرأة مغناج أقبلت لتحكى أسرارها ، هب نسيم خفيف من البحر حاملاً للآذان صوتاً وانياً ، كأنه خفق أجنحة خفية ترف بها حشرات مبتهجة . كان الجزء القريب من الشاطىء يتألف كلية من صخور منخفضة ، هشة ، تمتد باتجاه البحر . لم يكن ثمة إلا جرف أو جرفان ناتئان كذلك الذى اقتعدته .

بدأت الموجات من عرض البحر ، أقبلت جارفة على سطحه، فى شكل هضاب دائرية ، امتدت تجمعات من الصخور المنخفضة

باتجاه البحر ، حيث كانت مقاومتها للأمواج ترسل إصطفاقات عالية فى الهواء ، مثل أياد بيضاء تستجدى العون . دفعت الصخور ذاتها فى شعور البحر بالزخم العميق ، بدت كما لو كانت تحلم بعوامات مطلقة السراح من سلاسلها . ولكن فى لمحة تتجاوزها الهضبة المائية الدائرية ، تقبل مندفعة نحو الشاطىء بسرعة لا تهدأ ، وفيما هى تقترب منه استيقظ شىء ما ونهض متطاولاً فى رأسها الأخضر . تعملقت الموجة وكشفت على مدى البصر الجسد المرهف كالموسى لبلطة البحر الهائلة متجردة ومتأهبة للضرب . فجأة سقطت المقصلة القاتمة الزرقة مفجرة نثاراً من دم أبيض . تابع بدن الموجة ، متقداً ومتهالكاً ، رأسها المجتز ، واللحظة عكس زرقة السماء النقية ، تلك الزرقة المفارقة لما هو أرضى ذاتها ، والتى تنعكس فى صقال عينى شخص على حافة الردى .... خلال لحظة هجوم الموجة ، التى لم تدم طويلا ، أخفت الصخور الناعمة المتآكلة نفسها فى الزبد الأبيض ، أما وقد برزت من البحر تدريجياً فإن ألقها شع متماوجاً وسط بقايا الموجة المتراجعة . كان بوسعى من فوق قمة الصخرة ، حيث وقفت أرقب، أن أشاهد قواقع الناسك وهى تنزلق فى جنون عبر الصخور المتألقة ، والسرطانات وهى تتجرد من الحركة فى الوهج .

فجأة غدا شعورى بالعزلة ممتزجاً بذكرياتى عن أومى .

كان الأمر على هذا النحو : جعلنى إنجذابى ، الذى استشعرته طويلا ، نحو الوحدة التى تفخم حياة أومى ، وحدة ولدت من حقيقة أن الحياة قد استعبدته ، أرغب فى أول الأمر فى أن تكون لى هذه الصفة ذاتها ، أما الآن ، وفيما كنت أعايش فى هذا الشعور بالخواء أمام امتلاء البحر ، وحدة ماثلت ظاهرياً وحدته ، فقد أردت أن أستمتع بها تماما من خلال عينيه ذاتيهما . سأقوم بالدور المزدوج لى ولأومى معاً . ولكن لكى أقوم بذلك تعين على أن أكتشف أولاً موضعاً للشبه به مهما كان بسيطا . بهذه الطريقة سأتمكن من أن أصبح وسيطاً لأومى ، وأتصرف عن وعى تماماً كما لو كنت أفيض فرحاً بتلك الوحدة ذاتها التى ربما لم يكن واعيا بها ، متوصلاً أخيراً إلى تحقيق حلم اليقظة ذاك الذى تصبح فيه اللذة التى استشعرتها لمرأى أومى لذته هو التى يستشعرها .

إكتسبت منذ هيمنت علىّ صورة القديس سباستيان عادة غير واعية ، هى مصالبة ذراعى فوق رأسى ، حينما يتصادف أن أكون مجرداً من ملابسى . كان جسدى هشا ، لايحظى حتى بظل شاحب من جمال سباستيان المتدفق ، لكنى مرة أخرى وبعفوية اتخذت هذا الوضع ، وفيما كنت أقوم بذلك وقعت عيناى على إبطى فغلبت رغبة جنيسة غامضة فى أعماقى ...

كان الصيف قد أقبل ، وهلت معه تحت إبطى البراعم الأولى لأجمتى السوداوين ، حقا إنها لاتضارع ما لأومى ، لكنها كانت يقينا ، هنا إذن كانت نقطة التشابه مع أومى التى اقتضتها مقاصدى . ليس هناك شك فى أن أومى كان مندرجا فى رغبتى الجنسية ،لكنه لايمكن بالمثل إنكار أن هذه الرغبة كانت موجهة بالأساس إلى إبطى أنا . استحثتنى مجموعة حاشدة من الظروف ، النسيم الملحمى الذى جعل خيشومى يرتجفان ، شمس الصيف العاتية التى توهجت فوقى فجعلت صدرى وكتفى يخزانى، غياب الشكل الانسانى حيثما امتدت العين ، فجعلتنى للمرة الأولى فى حياتى أنغمس فى «عادتى السيئة» فى الهواء الطلق ، هناك تحت السماء الزرقاء ، وكموضوع لها اخترت إبطى أنا ..

ارتجف بدنى بأسى غريب . كنت أحترق بوحدة نارية كالشمس . كانت سراويل استحمامى القصيرة المصنوعة من الصوف البحرى الأزرق ملتصقة على نحو كئيب بمعدتى . خلفت الصخرة هابطا ، متقدما نحو بركة ماء محتجزة عند حافة الشاطىء . بدت قدماى فى الماء مثل قواقع شهباء ميتة ، ومن خلالهما خيل إلىّ أن بوسعى مشاهدة القاع بوضوح ، مكتظا بالقواقع ، ومتوهجا بالمويجات . ركعت فى الماء ، أسلمت نفسى لموجة تكسرت فى هذه اللحظة . وأقبلت مندفعة نحوى بزئير

عنيف، لطمتني في صدري ، فأوشكت أن تدفنني في قلنسوتها الشهباء الساحقة .

حين تراجعت الموجة ، كان فسادي قد أزيل ، فمع الموجة المتراجعة ، وإلى جوار ما لا يحصى من الكائنات الحية التي تحتويها، الميكروبات ، بذور النباتات البحرية ، بيض الأسماك ، كانت خلاياي المنوية التي لاتحصى قد غابت في خضم البحر المزبد ، واكتسحت بعيداً .

عندما حل الخريف ، وبدأ الفصل الدراسي الجديد ، لم يكن أومي هناك . علقت مذكرة طرده على لوحة النشرات .

على الفور ، شرع كافة رفاق الدراسة ، دون استثناء ، في الثرثرة حول أعمال أومي الشريرة ، منطلقين ، كما لو كانوا جماهير مندفعة ، عقب هلاك طاغية كان يحكمهم .

«... إقترض مني عشرين يناً ثم رفض ردها ... ضحك فيما كان يسلبني قلمي المستورد ... أوشك أن يخنقني ...»

واحداً إثر الآخر راحوا يقصون مجددا ما ألحق بهم من أضرار ، حتى بدوت الوحيد الذي لم يتعرض لشروره . أوشكت أن أجن من فرط الغيرة ، غير أن يأسي خفف من غلوائه قليلا أنه ما من أحد كان يعرف على وجه التحديد سبب طرده ، وحتى هؤلاء

الطلاب المهرة الذين يعرفون كل شيء دائما في كل مدرسة لم يكن بمقدورهم طرح سبب يلقى من التصديق مايجعله يحظى بالقبول العام ، حينما سألنا المدرسين ابتسموا بالطبع ، وقالوا إن طرده يرجع إلى «أمر سيئ» .

كانت لدىّ وحدى ، فيما يبدو ، قناعة خفية فيما يتعلق بطبيعة هذا «الشر» . داخلنى يقين بأنه كان يشارك فى مؤامرة واسعة النطاق من نوع مالم يكن هو نفسه قد فهمها تماماً . لقد أضفت القوة الدافعة نحو الشر ، التى دسها شيطان ما فى أعماقه ، المعنى على حياته ، وشكلت قدره ، على الأقل بدا الأمر لى على هذا النحو ...

غير أننى حينما أمعنت التفكير غدا «شره» يمثل معنى مختلفا بالنسبة لى . وصلت إلى القول بأن المؤامرة الهائلة التى دفعه الشيطان إلى حبائلها ، بجمعيتها السرية وثيقة التنظيم ،، وآلياتها الخفية محكمة التخطيط كانت يقينا مكرسة لإله محرم . وقد خدم أومى هذا الاله ، حاول جعل آخرين يعتنقون دينه ، تعرض للخيانة ، وعندئذ أعدم سراً . فى غسق يوم من الأيام جرد من ملابسه حتى غدا عاريا ، إقتيد إلى أجمة فوق التل ، وهناك قيد إلى شجرة ، وكلتا يديه موثقتان عاليا فوق رأسه ، إخترق

السهم الأول جانب صدره ، أما الثانى فأصاب إبطه .

كلما أمعنت فى تذكر الصورة التى شكل معالمها فى ذلك اليوم ، وهو يمسك بعارض التدريب ، تأهبا لرفع جسده عاليا ، أوغلت في الاعتقاد بقربه الوثيق من القديس سباستيان .

خلال عامى الرابع بالمدرسة الوسيطة أصبت بفقر الدم . أصبحت أكثر شحوبا مما هو معتاد ، حتى أن يدى بدتا فى لون العشب الميت ، حينما أتسلق درجا منحدرا أرغم على التهاوى عند قمته لالتقاط أنفاسى . كنت أحس كما لو أن ضبابا أبيض مجته الريح قد إلتف حول مؤخرة رأسى . وحفر ثقباً هناك ليجعلنى أتهاوى .

إصطحبتنى أسرتى إلى الطبيب الذى شخص ما أعانيه باعتباره فقرا فى الدم ، كان رجلا دمثا ، تربطه علاقة صداقة بالأسرة . حينما شرعوا فى سؤاله عن تفاصيل ما أعانيه قال :

– طيب ، لنر الاجابة التى يطرحها الكتاب عن فقر الدم .

إنتهى الفحص ، وقفت إلى جوار مرفق الطبيب ، حيث أستطيع استراق النظر إلى الكتاب الذى كان الطبيب يقرأ محتوياته بصوت عال . جلست الأسرة فى مواجهته ، وما كان بوسعهم أن يروا صفحات الكتاب .

«... ثم تلى ذلك أسباب المرض . الديدان الطفيلية ، وتلك

سبب مألوف ، وربما كانت هذه حالة الفتى ، وسيتعين علينا أن نجرى فحصا للبراز ، يلى ذلك الخلوروز ، ولكنه نادر ثم أنه على أية حال يصيب النساء ...»

عند هذه النقطة طرح الكتاب سببا آخر لفقر الدم ، لكن الطبيب لم يطالعه بصوت عال ، وإنما تجاوزه مغمغما بباقى الفقرة ، فيما هو يغلق الكتاب ، لكنى كنت قد رأيت الفقرة التى حذفها كانت «الاستمناء».

شعرت بقلبى يقفز خجلا ، فقد اكتشف الطبيب سرى . لكن ما كان يستحيل أن يكشفه أحد هو العلاقة الفردية المتوحدة بين نقص الدم عندى وشهوتى للدم ذاتها .

كان نقص الدم الموروث عندى قد غرس فى بادىء الأمر بأعماقى الدافع للحلم بسفك الدماء ، وجعلنى هذا الدافع بدوره أفقد المزيد والمزيد من مادة الدم من جسمى ، مؤديا بذلك إلى تفاقم شهوتى للدم ، وقد شحذت هذه الحياة المتهافتة القائمة على الحلم خيالى ، وأكسبته دربة . وعلى الرغم من أننى لم أكن قد تعرفت بعد على أعمال دى ساد ، فإن وصف الكوليزيوم فى كوفاديس ترك انطباعا عميقا لدىّ ، وشكلت بنفسى فكرة ساحة القتل .

هناك فى ساحة القتل الخاصة بى . كان مجالدون رومان

فى شرخ الشباب يقدمون حياتهم قربانا على مذبح مسراتى ، تعين ألا تتدفق كافة عمليات النقل التى تجرى هناك بالدم فحسب، وإنما كذلك أن تؤدى بكافة المراسيم الواجبة . كنت ابتهج إزاء كافة صور الاعدام وجميع عمليات التنفيذ ، لكنى لم أسمح بأية أدوات للتعذيب أو مشانق ، حيث أنها لن تؤدى إلى مشهد الدم المنسكب ، كما لم أحب الأسلحة النارية ، كالمسدسات أو البنادق ، وبقدر الامكان اخترت أسلحة بدائية وحشية ، سهام ، خناجر ، حراب ، لكى أطيل المعاناة كانت البطن هى التى ينبغى أن تطعن ، وينبغى أن تطلق الضحية التي تقدم قربانا صرخات طويلة . منتزعة ، جنائزية ، مثيرة للإشفاق ، تجعل السامع يستشعر وحشة الوجود المستعصية على الإفصاح ، عندئذ تطلق فرحتى بالحياة ، وهى تتوهج عاليا من مكان خفى فى أعماقى ، صيحة نشوتها أخيرا ، مجيبة الضحية صرخة بصرخة . أما كان هذا مماثلا تماما للنشوة التى وجدها الرجل البدائى فى الصيد ؟

ذبح سلاح خيالى الكثيرين من الجنود الاغريق ، العبيد البيض من شبه جزيرة العرب ، أمراء القبائل المتوحشة ، صبية المصاعد بالفنادق ، الندل ، فتية العصابات ، ضباط الجيش ، العاملين فى السيرك ... كنت واحدا من أولئك القناصة البرابرة الذين يقومون فى غمار جهلهم بكيفية التعبير عن حبهم بقتل

الأشخاص الذين يعشقونهم بطريق الخطأ . كنت أقبل شفاه أولئك الذين سقطوا على الأرض ، ولازالت أبدانهم تنتفض فى حشرجة الموت.

توصلت من فكرة بارعة إلى أخرى لجهاز للإعدام ، صمم بحيث أن لوحاً غليظا ثبتت به عشرات الخناجر المشرعة ، المرتبة على شكل الجسم البشرى ، تتقدم منزلقة على قضبان حتى صليب للإعدام مثبت إلى الجانب الآخر لنهاية القضبان . كان هناك مصنع للإعدام لاتنى فيه ثاقبات لاختراق الجسد البشرى عن العمل ، حيث يحلى العصير الدموى ، يعلب ، ويطرح فى الأسواق فى أغوار رأس طالب المدرسة الوسيطة الذى كنته ، كانت ضحايا لا حصر لها توثق وأياديها خلف ظهورها ، وتقتاد إلى الكوليزيوم.

تفاقمت قوة هذا الدافع تدريجيا فى أعماقى ، حتى وصلت يوما إلى حلم يقظة ، ربما كان أكثر الاحلام التى أمكن أن تراود انسانا متدنيا . هنا ، كما هو الشأن فى أحلام يقظتى ، كان الضحية مرة أخرى أحد رفاقى فى الدراسة ، سباح ماهر ، يتمتع ببنيان وثيق ، على نحو ملحوظ .

جرى الأمر فى قبو ، أقيمت مأدبة سرية ، تألقت حاملات شموع رشيقة فوق أغطية المائدة الناصعة البياض ، كانت هناك

كذلك الباقات المعتادة من القرنفل ، ثمة نثار من السكاكين والشوك وضع كل منها إلى جوار صحفة ، لكنه بدا غريبا أن المساحة الخالية في وسط المنضدة كانت كبيرة ، على نحو يتجاوز الحدود يقينا ستكون صحفة هائلة تلك التى ينبغى أن تجلب وتوضع هناك.

تساءل أحد الضيوف :

– ألم يحن الوقت ؟

كان وجهه غارقا فى الظل ، فلا يظهر للرائين ، تردد صوته الوقور كأنه صوت كهل تقدم فى العمر .

الآن ، حينما أفكر في الأمر ، أتذكر أن الظلال كانت تخفى وجوه كافة شهود المأدبة ، وحدها أيديهم البيضاء كانت ممتدة للنور ، حيث راحت تتلاعب بالسكاكين والشوك فضية البريق. ثمة غمغمة لا نهاية لها حلقت فى الهواء ، تتردد كما لو كان رهط من الناس يتحدثون معا بأصوات خفيضة ، أو يحادثون أنفسهم . كانت مأدبة جنائزية ، والصوت الوحيد الذى أمكن أن يسمع فى جلاء هو القرقعة العرضية أو تحريك مقعد .

رددت قائلا :

– ينبغى أن يكون جاهزا عما قريب .

مرة أخرى تهاوى الصمت الكئيب ، كان بوسعى أن أشعر بوضوح أن الجميع مستاءون من ردى .

- أو أذهب لتفقد الأمر ؟

نهضت ، فتحت الباب المفضى إلى المطبخ ، فى أحد أركانه كان هناك درج حجرى يرقى إلى مستوى الشارع .

سألت الطباخ : أما فرغت بعد ؟

- ماذا ؟ أوه ، لحظة واحدة .

رد الطباخ ، دون أن يرفع رأسه لانهماكه فيما بين يديه ، كأنما كان بدوره معتكر المزاج ، كان يقطع نوعا ما من خضر السلاطة ، ولم يكن هناك على منضدة المطبخ إلا لوحا سميكا من الخشب ، عرضه ثلاثة أقدام ، وطوله إثنا عشر قدما على وجه التقريب .

رنت قهقهة منبعثة من بئر السلم ، رفعت ناظرى ، فرأيت طاهيا ثانيا يهبط الدرج مقتادا رفيق دراستى الشاب متين العضلات من ذراعه ، كان الفتى يرتدى سراويل فضفاضة وقميص بولو داكن الزرقة ترك صدره عاريا .

قلت له بصورة عابرة : آه ، أنه ب . أليس كذلك ؟

حينما بلغ أسفل الدرج ، وقف رابط الجأش ، دون أن

ينزع يديه من جيبه ، إلتفت ناحيتى ، وشرع فى الضحك عابثا . فى هذه اللحظة عينها وثب أحد الطاهين عليه من مؤخرة المطبخ . وأحكم ذراعه حول عنقه .

فى عنف قاوم الفتى .

فيما كنت أرقب انتفاضاته المثيرة للأسى ، رحت أحدث نفسى :

- إنها قبضة جودو ، نعم إنها هى ، ضرب من قبضات الجودو ، ولكن ترى ما اسمها ؟ هذا صواب ، اخنقه مرة أخرى ، لايمكن أن يكون ميتا بعد ، إنه غائب عن الوعى فحسب .

فجأة تدلى عنق الفتى ، متراخيا فى الأنشوطة التى شكلها ذراع الطاهى الضخم ، فحمله هذا بين ذراعيه ، دونما مبالاة ، وألقاه على منضدة المطبخ . مضى الطاهى الآخر إلى المنضدة ، شرع يعمل يديه جادا فى جسد الفتى ، فجرده من قميص البولو ، وانتزع ساعة معصمه ، ونزع سراويله . فجعله جارح العرى فى لحظة واحدة .

تمدد الفتى المعرى حيث هوى ، ووجهه إلى أعلى على المنضدة ، شفتاه متباعدتان قليلا ، منحت هاتين الشفتين قبلة مرتجفة .

سألنى الطاهى :

– كيف سيكون الأمر ، وجهه إلى أعلى أم إلى أسفل ؟

– وجهه إلى أعلى فيما أفترض .

أجبت محدثا نفسى بأن الفتى سيكون صدره مرئيا فى هذا الوضع ، فيبدو كدرع كهرمانى اللون .

إنتزع الطاهى الآخر صحفة هائلة ، أجنبية الطراز من الحامل ، وجلبها إلى المنضدة . كان حجمها مناسبا تماما لجسد بشرى ، لاحت غريبة الشكل ، ذات ثقوب خمسة صغيرة على كل من الحافتين .

– هيلا هوب !

صاح الطاهيان فى تناغم ، وهما يرفعان الفتى الغائب عن الوعى ، ويضعانه ووجهه إلى أعلى فى الصحفة ، ثم راحا يصفران فى مرح ، مررا حبلا عبر الثقوب فى جانبى الصحفة ، مبعدين جسد الفتى إلى أسفل بأمان ، تحركت أيديهما الماهرة بحنكة ، وهى تؤدى هذه المهمة ، حفا الجسد العارى بأوراق كبيرة من خضر السلاطة على نحو بديع ، ووضعا سكين تقطيع من الصلب فذة الضخامة وإلى جوارها شوكة فوق الصحفة .

- هيلاهوب !

صاحا مجددا ، وهما يرفعان الصحفة على كاهليهما . فتحت الباب المفضى إلى غرفة الطعام أمامهما .

حيانا صمت مفعم بالترحاب . وضعت الصحفة . فملأت الفراغ على المنضدة ، التى كانت تتألق على نحو كئيب فى النور . عدت إلى مقعدى ، رفعت السكين والشوكة الهائلتين من الصحفة ، وقلت :

- من أين أبدأ ؟

مامن رد . كل بوسع المرء أن يستشعر بأكثر مما يرى الوجوه وهى تهطع نحو الصحفة .

- ربما كانت تلك نقطة جيدة نبدأ بها .

دفعت الشوكة مباشرة نحو القلب . لطمتنى نافورة من الدم فى وجهى . ممسكا بالسكين بيدى اليمنى بدأت فى تقطيع لحم الصدر برقة إلى قطع صغيرة فى البداية ...

تفاقمت عادتى السيئة إلى ماهو أسوأ فحسب حتى بعد علاجى من فقر الدم . كان أصغر أساتذتى سنا هو مدرس علم الهندسة ، وأبداً لم أشعر بالتعب من التحديق فى وجهه خلال

الدرس . كانت له بشرة لوحتها شمس الشاطيء ، وصوت جهورى كأنه صوت صياد ، وكنت قد سمعت أنه كان مدرب سباحة فيما سلف .

ذات يوم شتوى ، وخلال درس الهندسة ، كنت أنسخ فى كراستى ماهو على السبورة ، محتفظا بإحدى يدىّ فى جيب سروالى ، وللحظة زاغت عيناى بعيدا دون وعى عن عملى ، وشرعت تتبعان المعلم . كان يعلو المنصة ويغادرها ، فيما كان يكرر بصوته المتدفق شبابا شرح تمرين عسير .

كانت وخزات الجنس قد اقتحمت بالفعل حياتى اليومية . الآن . وأمام ناظرى ، تحول المعلم الشاب إلى شبح تمثال هرقل العارى ، كان ينظف السبورة مستخدما ممحاة بيده اليسرى وممسكا طباشير باليد الأخرى ، ثم مد يده اليمنى وهو لايزال يقوم بالتنظيف ، وشرع فى كتابة معادلة على السبورة ، فيما هو يأتى ذلك ، لاحت التجعدات التى تجمعت فى النسيج بظهر معطفه لعينى المفتونتين انبعاجات عضلات «هرقل يرمى بالقوس» . وأخيرا اقترفت عادتى السيئة هناك وسط العمل الدراسى ...»

دوت إشارة الاستراحة ، نصبت رأسى المصاب بالدوار ، وتبعت الآخرين إلى الملعب . أقبل الفتى الذى كنت أعشقه آنذاك ،

كان ذلك عشقا آخر بلا جزاء ، مع طالب آخر رسب فى امتحانه، أقبل عليّ وسألنى :

ـ إيه ، أنت ، أما ذهبت أخيرا إلى دار كاتاكورا أمس ؟ كيف كانت الزيارة ؟

كان كاتاكورا فتى هادئا من زملائنا ، قضى نحبه مريضا بالسل . إنتهت مراسم جنازته قبل يومين ، وبما أننى سمعت من صديق أن وجهه قد تحول كلية فى غمار الموت ، وبدا كوجه روح شريرة ، فقد انتظرت قبل القيام بزيارة العزاء ، حتى أتيقن من أن جثته قد أحرقت .

لم أستطع التفكير فى رد على سؤال صديقى المفاجىء ، فقلت باقتضاب :

– لم يكن فى الأمر شىء ، لكنه كان وقتها قد غدا رمادا بالفعل .

فجأة تذكرت رسالة ستجعله يخفق زهوا ، فتضاحكت على نحو لا يشى بمعنى محدد ، وقلت :

– أوه ، نعم ، وأبلغتنى أم كاتاكورا مرارا وتكرارا أن أكون على يقين من اننى سأبلغك تحياتى ، وطلبت منى أن أخبرك

بأن تأتى لرؤيتها لأنها ستعانى من الوحدة الآن .

- ياه . استمر .

فجأة ، باغتتني ضربة على الصدر ، وعلى الرغم من أن ضربته قد وجهت بكل قوته ، فإنها كانت لاتزال مفعمة بالود . اكتست وجنتاه باللون القرمزى حرجا ، كما لو كان لايزال طفلا صغيرا . رأيت عينيه تتألقان بحميمية غير مألوفة ، وكأنه فيما يبدو ينظر إلىّ باعتبارى متواطئا معه فى أمر ما .

قال مجددا :

- إستمر ! ألم تصبح بعد دنس الذهن ! يالى منك ومن ضحكك !

اللحظة لم أدرك ما يقصده ، إبتسمت مراوغا ، ولثلاثين ثانية كاملة أخفقت فى فهمه . ثم أدركت الأمر : كانت أم كاتاكورا أرملة ، لا تزال يافعة ، ذات قوام جميل رشيق .

داهمنى شعور بالبؤس ، لم يكن ذلك يرجع إلى أن تمهلى فى الفهم ماكان يمكن إلا أن ينشأ عن غباء ، بقدر ما كان يعود إلى أن هذه الحادثة كشفت النقاب عن مثل هذا الفارق الواضح بين بؤرة اهتمامه وبؤرة اهتمامي . شعرت بخواء الهوة التى تفصلنا ، امتلأت بالاحساس بالعار ، حيث فوجئت بهذا الاكتشاف

المتأخر لشيء كان يتعين عليّ استشرافه بصورة طبيعية . كنت قد نقلت إليه الرسالة من أم كاتاكورا دون أن أتريث لأفكر فيما يمكن أن يكون عليه رد فعله ، وما كنت أدرى إلا بغير وعى أننى هنا أهتبل فرصة لتملقه استجلابا لرضاه ، أما الآن فقد أخافنى مرأى المشهد القبيح لافتقارى للخبرة ، بدا قبيحا كأنه آثار دموع جفت على وجه طفل .

فى هذه المرة كنت أكثر اعياء من أن أسائل نفسى السؤال الذى طرحته آلافا عديدة من المرات من قبل : لم يصبح من قبيل الخطأ أن أبقى على نحو ما أنا عليه ؟ ضقت ذرعا بنفسى ، ورغم عفتى كلها كنت ألحق الدمار بجسدى . حدثت نفسى بأننى بالاستعانة بـ «الجدية» (يا لها من فكرة مؤثرة!) قد أستطيع بدورى الهرب من وضعيتى الطفولية . بدا الأمر كما لو كنت لم أدرك بعد أن ما كنت أزدريه الآن هو ذاتى الحقة ، هو بجلاء جزء من حياتى الحقة ، بدا كما لو أننى صدقت أن تلك كانت سنوات حلمى التى يتعين عليّ الآن أن أنتقل منها إلى «الحياة الحقيقية».

كنت أستشعر الدافع لبدء الحياة ، لبدء عيش حياتى الحقة ، حتى إذا كانت ستصبح قناعا محضا وليست حياتى على الاطلاق ، فإن الوقت رغم ذلك قد حان فتحتم عليّ أن أشرع فى البدء ، تحتم عليّ أن أجر قدمى الثقيلتين إلى الأمام .

الفصل الثالث

يقول الجميع إن الحياة مسرح، لكن معظم الناس لا يبدون وكأن هذه الفكرة قد هيمنت عليهم، على الأقل ليس فى وقت مبكر، كما حدث لى. فى نهاية طفولتى كنت بالفعل قد أصبحت على اقتناع صارم بأن الحياة كذلك ، وأن علىّ أن أقوم بدورى فيها ، دون أن أكشف النقاب مرة واحدة عن ذاتى الحقة، وبما أن اقتناعى هذا كان مصحوبا بافتقار بالغ السذاجة للخبرة، فقد كنت متيقنا عمليا من أن الناس كافة يقبلون على الحياة بهذه الطريقة ، وذلك على الرغم من أنه كان ثمة شك متأرجح فى جانب من جوانب ذهنى حول أننى قد أكون مخطئا. اعتقدت متفائلا أنه حينما ينتهى الأداء ويسدل الستار فإن الجمهور لن يرى الممثل أبدا، دون قناعه المسرحى. كان افتراضى أننى سأموت صغير السن عنصرا من عناصر هذا الاعتقاد، غير أنه بمرور الوقت منى هذا التفاؤل، أو بالأحرى حلم اليقظة هذا، بإحباط ضار.

علىّ أن أضيف تحرزا ، أننى لا أشير هنا إلى موضوع «الوعى الذاتى» المألوف، وإنما الأمر متعلق بالجنس، بالدور الذى

يحاول المرء عن طريقه أن يخفى طبيعة رغباته الجنسية عن نفسه غالبا، ولست أعتزم فى الوقت الراهن أن أشير إلى ما يتجاوز ذلك.

قد يكون صحيحا أن ما يدعى بالطالب المتخلف هو نتاج للوراثة . رغم ذلك فقد أردت أن أصعد بصورة منتظمة مع باقى أبناء جيلى فى مدرسة الحياة، وتوصلت إلى طريقة بديلة للقيام بذلك. باختصار، تمثلت هذه الطريقة فى نسخ إجابات أصدقائى خلال الاختبارات ، دون أى فهم لما أكتبه وتسليم أوراقى ببراعة مدروسة . فى مرات تسفر مثل هذه الوسيلة ، وهى أشد غباء وتجردا من الحياء من الاحتيال الفج، عن نجاح مدو، ويمر الطالب إلى الصف الأعلى، غير أنه هناك يفترض فيه أن يكون قد تملك ناصية مواد الصفوف الأدنى، وفيما تتابع الدروس فى عناء يغدو ضائعا تماما، ورغم أنه يصغى لما يقوله المدرسون فإنه لا يفقه كلمة منه، عند هذه النقطة يمتد أمامه دربان: إما أن يمضى إلى حيث ألقت، وإما أن يواصل شق طريقه بالخداع، من خلال التظاهر بكل ما يملك من قوة بأنه يفهم ما يقال. ويعتمد اختيار أى من الدربين على طبيعة ما له من جرأة، أو ما يعانيه من ضعف، وليس على مقدار ما له منهما ، فكلا الدربين يقتضى القدر ذاته من الجرأة أو الضعف، وكلاهما يتطلب لونا من التوق الغنائى الذى لا يفضى إلى الكسل.

ذات يوم انضممت إلى زمرة من رفاق الدراسة كانوا

يسيرون خارج أسوار المدرسة، وهم يناقشون فى صخب شائعة ذاعت عن أن أحد أصدقائنا لم يكن موجودا معنا الآن، قد وقع فى غرام سائقة الحافلة ، التى كانت تقله ذهابا وإيابا إلى المدرسة ، وقبل أن ينقضى وقت طويل تحولت المناقشة إلى حجة نظرية ، تدور حول ما يمكن للمرء أن يجده مما يستهويه فى سائقات الحافلات.

هنا ، أمسكت بناصية الحديث، متخذا لهجة باردة مفتعلة، ومتحدثا بصوت خشن، كأنما كنت أدحرج الكلمات قلت:

ـ إنها ملابسهن الرسمية! لأنها تلتصق فى إحكام حول أجسادهن.

غنى عن البيان أننى لم أشعر بأدنى إنجذاب حسى نحو سائقات الحافلات مما تشير إليه كلماتى ، كنت قد تحدثت انطلاقا من القياس ، قياس كامل، كنت أرى فى إطاره الزى الرسمى ذاته المحكم على جسد آخر مختلف، وكذلك بدافع من رغبة ، كانت قوية بأعماقى فى ذلك الحين، فى الظهور بمظهر الشخص الحسى، الناضج، الساخر من كل شىء.

استجاب الفتية الآخرون على الفور ، كانوا جميعا من نمط الطلاب الذين يدعون بـ «طلاب الشرف» من ذوى السلوك المعصوم من الخطأ، وكما هو مألوف غالبا فى مدرستى من المبالغين فى

الاحتشام . بدا رفضهم المشوب بالصدمة إزاء كلماتى جليا من تعليقاتهم، التى تمزج الجد بالهزل:

ـ أوف! تعلم كل شىء عن هذا الأمر ، أليس كذلك؟

ـ ما من أحد يحلم بمثل هذا إلا إذا كان يأتى الكثير مما لا ينبغى القيام به.

ـ إيه ، إنك فظيع حقا، ألست كذلك؟

فى مواجهة مثل هذا النقد الساذج المحموم، خشيت أن الدواء كان بالغ الفعالية ، فكرت فى أننى ربما كان بمقدورى استعراض عمق تفكيرى والتوصل إلى صدى أفضل ، لو أننى كنت فى غمار قول الشىء نفسه قد استخدمت طريقة فى الحديث أقل تعقيدا وإيحاء بالصدمة، وأننى كان ينبغى علىّ أن أكون أكثر تحفظا.

حينما يكتشف فتى فى الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة من عمره أنه أكثر ميلا إلى الاستبطان والوعى الذاتى من الفتية الآخرين، ممن هم فى مثل عمره، فإنه ينزلق بسهولة إلى خطأ الاعتقاد بأن ذلك يرجع إلى أنه أكثر منهم نضجا . من المحقق أن ذلك كان خطأ فى حالتى، فقد كان الأمر يرجع إلى أن الفتية الآخرين لم تكن بهم مثل هذه الحاجة إلى فهم أنفسهم ، على نحو

ما كان الحال بالنسبة لى، كان بوسعهم أن يكونوا ذواتهم الطبيعية، فيما كان علىّ أن أتقمص دورا ، وهى حقيقة تقتضى فهما ودراسة يعتد بهما. هكذا لم يكن نضجى ، وإنما شعورى بالقلق ، هو الذى يجبرنى على تملك ناصية وعيى ، لأن مثل هذا الوعى كان حجر عثرة فى وجه الضياع، ولا يعدو تفكيرى الراهن أن يكون ضربا من التخمين القائم على المصادفة والبعيد عن اليقين.

حاكى قلقى ذلك الضرب من القلق الذى يتحدث عنه ستيفان زفايج حين يقول : إن «ما ندعوه بالشر هو عدم الاستقرار الكامن لدى كل البشر، والذى يدفعه الإنسان خارج ذاته ، وإلى ما يتجاوزها نحو شىء لا يسبر له غور ، تماما كأنما الطبيعة أضفت على أرواحنا نصيبا لا يتناقص من عدم الاستقرار من مخزون فوضاها العتيقة». وهذا الميراث من القلق يفرز توترا و «يحاول أن يصوغ نفسه مرتدا إلى عناصر تسمو على المستوى البشرى، وتعلو على الحس» هكذا إذن كان عدم الاستقرار ذاك نفسه الذى يدفعنى ، فيما استطاع الفتية الآخرون ، بالنظر إلى عدم حاجتهم إلى الوعى الذاتى، الاستغناء عن الاستبطان.

لكن سائقات الحافلات ما كن يتمتعن بأدنى جاذبية جنسية بالنسبة لى، مع ذلك فقد أدركت أن كلماتى ، التى أطلقتها عمدا

بسبب القياس والاعتبارات الأخرى التى سقتها ، لم تصدم أصدقائى فحسب، وتجعلهم يحمرون احراجا ، وإنما تلاعبت كذلك بقابليتهم المراهقة للاستهواء إزاء الأفكار الموحية ، وأفرزت إثارة جنسية غامضة لديهم . وإزاء هذا المشهد ثار في أعماقى ، على نحو طبيعى ، شعور بالتميز تواق إلى الإغاظة.

لم تتوقف مشاعرى عند هذا الحد ، فقد حان دورى لأغدو ضحية للخديعة. أفقت من شعورى بالتميز ، ولكن بصورة مشوهة، وفى بعد واحد، كان هذا التطور على النحو التالى:

غدا جانب من شعورى بالتميز غرورا ، أصبح انتشاء باعتبار نفسى متقدما عن البشر ، ثم حينما أفاق هذا الجانب الثمل منى ، بأسرع من الجوانب الأخرى ، وقعت فى الهفوة المندفعة، المتمثلة فى الحكم على كل شىء بوعيى الذى أفاق ، دون أن توضع فى الاعتبار حقيقة أن جانبا منى لايزال ثملا، من ثم فإن الفكرة السكرى القائلة : «إننى أسبق الآخرين»، صححت إلى المقولة الحية : «لا ، إننى إنسان كذلك مثل الآخرين». وبسبب إساءة التقدير ضخمت تلك بدورها إلى : «وأنا أيضا إنسان مثلهم فى كل شىء» . وقد جعل ذلك الجزء الذى لم يفق بعد منى مثل هذا التضخيم ممكنا، ودعمه ، وأخيرا وصلت إلى الاستنتاج الموشى بالغرور والقائل : «إن الجميع مثلى»، وقد تدخلت بقوة فى

التوصل إلى هذا الاستنتاج طريقة التفكير، التى وصفتها بأنها حجر عثرة فى طريق الضياع...

على هذا النحو نجحت فى تنويم نفسى مغناطيسيا، منذ ذلك الوقت حكم هذا التنويم المغناطيسى الذاتى تسعين بالمائة من حياتى ، ذلك التنويم المغناطيسى الزائف ، الغبى ، واللاعقلانى ، الذى كنت أعرف على نحو قاطع أنه زائف ، ولربما يدور التساؤل حول ما إذا كان قد وجد أبدا شخص بمثل هذه السذاجة.

ترى هل سيفهم القارىء؟ كان ثمة سبب بسيط للغاية وراء قدرتى على استخدام حتى أدنى الكلمات الحسية لدى الحديث عن سائقات الحافلات، وكانت النقطة نفسها التى لم أستطع إدراكها .. كان سببا بسيطا حقا ، ليس هناك ما هو أبسط منه ، فحيثما تعلق الأمر بالنساء كنت مجردا من الحياء الذى يمتلكه الفتية الآخرون بالفطرة.

ولكي أتجنب أن يوجه إلىّ الإتهام بأننى أخلع على الشخص الذى كنته فى تلك الأيام قدرات إصدار الحكم التى لا أملكها حتى اليوم ، دعنى أدرج هنا فقرة من مقطوعة كنت قد كتبتها في الخامسة عشرة من عمرى.

«... لم يهدر رايوتارا وقتا فى جعل نفسه جزءا من دائرة

الأصدقاء الجدد هذه ، كان يعتقد جازما أن بوسعه أن يقهر كآبته وضجره ، اللذين لا سبب لهما بأن يكون ـ أو على الأقل بالتظاهر بكونه ـ مرحا قليلا، لقد خلفته السذاجة ، قمة الإيمان ، فى حالة من السكينة المنطفئة ، وحينما كان يشارك فى مزاح أو تهريج كان دائما يحدث نفسه قائلا : «الآن لست مكتئبا، الآن لست ضجرا» . وقد جعل من «نسيان المتاعب» هذا أسلوبا له.

إن معظم الناس يتشككون فيما يتعلق بما إذا كانوا سعداء من عدمه ، مرحين أو عكس ذلك ، وتلك هى الوضعية العادية للسعادة ، حيث إن الشك هو أكثر الأمور طبيعية.

وحدة رايوتارا يعلن قوله : «إنى سعيد» ويقنع نفسه بأن ذلك صحيح.

يميل الناس لذلك إلى تصديق ما يدعى «سعادته اليقينية»، وأخيرا يندرج شىء واهن ، وإن يكن حقيقيا ، فى آلة الزيف القوية، وتنطلق الآلة هادرة إلى العمل، ولا يلحظ الناس حتى كتلة من «الغرور»...

«وتنطلق الآلة هادرة إلى العمل ....» ألم تكن تعمل بالفعل فى حالتى؟

إن من أخطاء الطفولة الشائعة الظن بأنه إذا ما جعل المرء

من وحش بطلا فإن الوحش سيغتبط لذلك ويرضى.

هكذا إذن حل الوقت الذى يتعين علىّ فيه ، بشكل أو بآخر، أن أبدأ الحياة ، لم يتجاوز معين المعرفة الذى تزودت به للرحلة الروايات العديدة التى طالعتها ، موسوعة فى الجنس كانت بالدار، الصور العارية التى تتداولها أيدى الطلاب، والعديد من النكات الإباحية التي سمعتها من أصدقاء فى ليالى التدريب الميدانى، وأخيرا كان هناك أيضا ما يفوق كل شىء أهمية ، وهو الفضول المستقر الذى سيكون رفيق ترحالى المخلص، ولكى أشرع فى رحلتى كان علىّ أن أتخذ وضع الرحيل عند البوابة ، ولتحقيق ذلك كان الإصرار على أن أكون «آلة زيف» كافيا.

عكفت على دراسة العديد من الروايات . منقبا عن طبيعة مشاعر الفتية ممن هم فى مثل عمرى ، وكيفية تحاورهم مع أنفسهم. كنت معزولا عن الحياة بالقسم الداخلى فى المدرسة، لم أشارك فى الأنشطة الرياضية المدرسية ، فضلا عن ذلك كانت مدرستى تحفل بالنفاجين الصغار الذين ما عادت تربطهم، بعد تجاوزهم للعبة القذر العبثية تلك التى وصفتها ، صلة إلا نادرا بالأمور السوقية. واكتمل الأمر بحيائى بالغ التطرف . وقد جعلت كافة هذه الحقائق فى مجملها من المتعذر بالنسبة لى أن أعرف نفسية رفاقى بالمدرسة، وكنتيجة لهذا كان ملاذى الوحيد هو أن

استنبط من القواعد النظرية العامة ما يمكن أن يشعر به فتى فى سنى ، حينما ينفرد بنفسه.

بدت الفترة التى تدعى بالمراهقة ، والتى كان لى نصيبى الكامل منها، فيما يتعلق بالفضول المتقد، وكأنها قد أقبلت لتزورنا كالحمى، فبعد أن وصل الفتيان إلى البلوغ ، لاحوا وكأنهم لا يصنعون شيئا إلا أن يفكروا دونما اعتدال فى النساء، يحكون بثورهم، وينظمون أشعارا عاطفية، تمجها رءوس يحفها دائما دوار مشوش. طالعوا هذه الدراسة عن الجنس أولا، والتى تؤكد التأثيرات الضارة للإستمناء، ثم قرأوا تلك التى تتحدث عن أنه ليس هناك كبير ضرر من جرائها، كنتيجة لهذا لاحوا وكأنهم بدورهم قد أصبحوا من الممارسين المتحمسين لها. رحت أحدث نفسى بأن ثمة نقطة أخرى هنا أتماثل معهم كلية فيها . فى غمار حالة التنويم المغناطيسى الذاتى التى كنت أمر بها ، تجاهلت الحقيقة القائلة بأنه على الرغم من الطبيعة المتماثلة للحدث العضوى ، كان ثمة خلاف عميق فيما يتعلق بالموضوع الذهنى لهذا الحدث.

كان الفارق الأساسى هو أن الفتية الآخرين يستمدون ، فيما يبدو ، استثارة غير عادية من مجرد كلمة امرأة ، يحمرون خجلا إذا ما خطرت الكلمة ببالهم ، أما أنا فما كانت كلمة امرأة

تثير لدى انطباعا حسيا يتجاوز ما تثيره كلمة «قلم» أو «سيارة» أو «مكنسة». بل إنى فى حديثى مع أصدقائى غالبا ما كنت أفصح عن نقص مماثل فى ملكة ربط الأفكار، كما فى الواقعة التى دارت حول والدة كاتاكورا ، وأبدى ملاحظات تلوح لهم بعيدة عن التماسك ، وقد حلوا هذه الأحجية بصورة ترضيهم، وذلك باعتبارى شاعرا . لكنى بدورى لم أكن أرغب على نحو قاطع فى أن يظن بى أنى شاعر .فقد سمعت أن الرجال الذين ينتمون إلى النوعية التى تدعى بالشعراء يتعرضون لنكث العهود من جانب النساء دوما ، ولهذا فإننى من أجل جعل حديثى متماشيا مع حديث أصدقائى، تملكت ناصية قدرة مصطنعة على التوصل للربط بين الأفكار التى يقومون به.

لم أضمن أبدا أنه يمكن تمييزهم عنى بصورة جلية، لا من حيث المشاعر الداخلية فحسب ، وإنما من حيث الدلائل الخارجية المحتجبة كذلك. باختصار لم أدرك أنهم ينتصبون ، على الفور ، حينما يشاهدون صورة لجسم امرأة عارية، وأننى وحدى أظل على جمودى فى مثل هذا الوقت ، كما لم أدرك أن الموضوع الذى يمكن أن يحدث انتصابا فى حالتى (من الغريب أن مثل هذه الموضوعات قد اقتصرت منذ البداية على النوعية من الأشياء التى تعد الموضوعات الجنسية المميزة للواط) ولنقل تمثالا لشاب عار نحت

على النمط الأيونى ، ماكان يثيرهم على الإطلاق.

استهدفت من تقديم توصيف مفصل لحالات الانتصاب العديدة، فى الفصل السابق، أن أجعل هذه النقطة المهمة المتعلقة بجهلى بنفسى مفهومة بصورة أكبر، لأن جهلى بالموضوعات التى تثير الفتية الآخرين قد دعم التنويم المغناطيسى الذاتى ، وقوامه اعتبار نفسى مثلهم . ترى من أى مصدر كان يمكن أن أستمد الاستنارة فى هذا الشأن؟ إن الروايات تحفل بمشاهد التقبيل، لكنه ما من رواية طالعتها أشارت إلى أمور من نوعية الانتصاب . فى مثل هذه المناسبات . كان ذلك أمرا طبيعيا ، حيث أنه ليس من الموضوعات التى يمكن أن تتعرض لها رواية ، لكن موسوعة الجنس ذاتها لم تتحدث عن الانتصاب كمصاحب نفسى للقبلة، الأمر الذى ترك لدى انطباعا بأن الانتصاب يحدث فحسب كمقدمة للعلاقات الجسدية، أو كاستجابة بصورة ذهنية للحدث، اعتقدت أنه حين يحين الوقت ، وحتى إذا لم تكن هناك رغبة، فإننى بدورى سأنتصب ، تماما كما لو أن الأمر إلهام من السماء. وأصل شىء غامض ضئيل فى أعماقى الهمس قائلا: «لا ، ربما لن يحدث ذلك لك وحدك». وتجلى هذا الشك الضئيل فى كل مشاعرى بعدم الأمان.

لكن ألم يحدث أبدا ، فى غمار انغماسى فى عادتى السيئة،

أن استحضرت عضوا ما من أعضاء المرأة، ولا حتى من قبيل التجريب؟ كلا ، أبدا ، وقد فسرت هذا الانحراف لنفسى على أنه يرجع ببساطة إلى تكاسلى.

باختصار لم أكن أعرف شيئا على الإطلاق عن الفتية الآخرين . لم أكن أعلم أنه كل ليلة تراود الأحلام الفتية جميعا عداى، أحلام تتراءى فيها نساء ، نساء شوهدن فى لمحة بالأمس عند منعطف الطريق ، يجردن من ثيابهن ، ويوضعن واحدة إلى جوار الأخرى فى استعراض أمام أعين الحالمين. ما عرفت أنه فى أحلام الفتية غالبا ما يطفو نهدا امرأة عاليا ، مثل قنديل البحر، ناهضين من بحر الليل . ما علمت أنه فى حميمية تلك الأحلام يباعد جزء ثمين من المرأة شفتيه المبللتين ، ويواصل الشدو بلحن أغنية آسرة ، قاتلة ، عشرات ، مئات ، آلاف المرات، إلى الأبد..

أكان الكسل هو السبب فى أن مثل هذه الأحلام لم تراودنى؟ أيمكن أن يعود الأمر للكسل حقا؟ ظللت أسائل نفسى، ثار شغفى بالحياة ككل، انطلاقا من هذا التشكك فى أنى كنت ببساطة كسولا، وفى النهاية أفنى هذا الشغف نفسه فى الدفاع عن ذاتى ضد الاتهام بالكسل إزاء هذه النقطة ، مؤكدا بذلك أن كسلى أمكن ، رغم كل شىء ، أن يظل كسلا .

- في المقام الأول قادني هذا الشغف إلى أن أعقد عزمي على تجميع كل ذكرياتي عن النساء، منذ البداية ذاتها، ويا للمجموعة الهزيلة من الذكريات التي لاحت لي!

تذكرت واقعة حدثت حينما كنت في الثالثة أو الرابعة عشرة من العمر . كان ذلك يوم انتقال أبي إلى أوساكا، مضينا جميعا إلى محطة طوكيو لوداعه. عقب ذلك رجع عدد من الأقارب معنا إلى الدار ، ومن بينهم إبنة عمتي الثانية سوميكو، وهي عذراء في العشرين من عمرها.

كانت أسنان سوميكو الأمامية ناتئة، بدرجة ضئيلة للغاية ، ناصعة ، وبالغة الجمال ، وحينما تضحك تلتمع في إشراق بالغ، حتى يتساءل المرء عما إذا لم تكن تضحك عامدة لتعرض أسنانها. أضاف بروزها الخفيف جاذبية مراوغة لابتسامة صاحبتها. في هذه الحالة كان هذا العيب المتمثل في بروز الأسنان يحاكي قطرات من عطر ، أضيفت إلى روعة وبهاء وجهها وقوامها المتناسقين . مؤكدة هذا التناسق، ومضيفة نكهة خاصة إلى هذا الجمال.

إذا لم تكن كلمة «الحب» قابلة للتطبيق ، فإنني على الأقل

كنت أشعر «بالود» نحو إبنة العمة هذه. منذ الطفولة كنت أستمتع بمراقبتها من بعد ، أجلس إلى جوارها لساعات فيما هي تطرز ، دون إتيان شيء الا بالتحديق فيها ، دون أن يرتسم تعبير محدد على ملامحي.

مضت عماتي بعد مدة إلى غرفة داخلية ، وبقيت مع سوميكو وحدنا في قاعة الاستقبال . ظللنا على ما كنا عليه جالسين جنبا إلى جنب على أريكة صامتين ، ورأسانا لا يزالان يطنان بضجيج رصيف المحطة . شعرت بإعياء غير مألوف.

قالت وقد ند عنها تثاؤب قصير:

ـ أوه ، إنني متعبة.

رفعت يدها في إعياء ، ومست فمها بخفة عدة مرات بأصابعها البيضاء، كأنما تؤدي طقسا أسطوريا ، قالت:

ـ ألست متعبا ، يا كوشان؟

لسبب مجهول ، فيما هي تقول هذا ، حجبت وجهها بكمي الكيمونو، دفنته في سقوط مفاجيء على فخذي، مرغت خديها ببطء في سراويلي، رفعت وجهها ، ظلت دونما حراك لبعض الوقت.

ارتجفت سراويل ردائي المدرسي ، إذ حظيت بشرف أن

تكون وسادة لها ، أصابنى عبير عطرها وذرورها بالاضطراب . حدقت فى جانب وجهها الساكن ، فيما هى منحنية هناك بعينيها المتعبتين الصافيتين اللتين تحدجاننى ، وشعرت بالضياع..

كان هذا هو كل ما حدث ، مع ذلك فلم أنس أبدا الشعور بذلك الثقل البديع الذى ضغط لبرهة على فخذى ، لم يكن شعورا جنسيا ، لكنه بشكل ما شعور بديع ، كذلك الشعور الذى يولده ثقل وسام يتدلى على الصدر.

غالبا ما كنت ألتقى بسيدة شابة مهزولة فى الحافلات التى استقلها إلى المدرسة. لفت برودها نظرى. اعتادت أن تحدق فى فتور عبر النافذة، كأنها ضجرة من كل شىء ، وفيما هى تفعل ذلك كان حزم شفتيها الناتئتين يبدو جليا، وحينما تغيب كان يبدو أن ثمة شيئاً يفتقده المرء ، وقبل أن أدرك الأمر يساورنى أمل متقطع الأنفاس فى أن أراها، فى كل مرة استقل فيها الحافلة.

تساءلت عما إذا كان ذلك يمكن أن يكون ما يدعى بالحب، لم أصل إلى جواب على تساؤلاتى . لم يكن لدىّ أدنى فكرة عن أن هناك صلة بين الحب والرغبة الجنسية. غنى عن البيان أنه فى الوقت الذى كنت فيه مفتونا بأومى لم أبذل جهدا لتطبيق كلمة الحب على تلك الفتنة الوحشية، التى كان يلقى شباكها علىّ. الآن وفى اللحظة ذاتها التى أتساءل فيها عما إذا كان الانفعال الغامض

الذى استشعره نحو فتاة الحافلة يمكن أن يكون حبا، بمقدورى أن أحس بالانجذاب نحو سائق الحافلة الشاب الخشن، الذى كان شعره يلتمع بدهان عطرى ثقيل.

كان جهلى من العمق بحيث لم أدرك التناقض الكامن هنا. لم أدرك أن هناك فى طريقة نظرى إلى الملمح الجانبى لسائق الحافلة الشاب شيئا حتميا، خانقا ، مؤلما، بينما كنت أرمق السيدة الشابة المهزولة بعينين فاحصتين، مصطنعتين ، مدروستين، تضجران بسهولة. وظللت دونما إدراك للخلاف بين هاتين النظرتين، تعايشتا كلاهما معا فى أعماقى ، دون أن تكترث إحداهما بالأخرى ، ودونما صراع.

بدوت، بالمقارنة بالفتية فى مثل سنى، متفردا بعدم الاهتمام بما يسمى «النظافة الأخلاقية» أو إذا استخدمنا عبارة أخرى بكونى مفتقرا إلى موهبة «التحكم فى النفس». وحتى إذا كان بوسعى أن أفسر هذه الحقيقة بالقول بأن فضولى متزايد الحدة لم يدفعنى بصورة طبيعية إلى الاهتمام بالأخلاق، فستظل هناك الحقيقة القائلة بأن فضولى هذا كان يشبه فى الوقت نفسه الأشواق اليائسة لمريض مدنف ملازم الفراش إلى العالم الخارجى، وكذلك تختلط ، على نحو لا يمكن التخلص منه ، مع الإيمان بإمكان وقوع المستحيل. وقد كان هذا التداخل، الذى يضم من

جانب يقينا غير واع ومن جانب آخر يأسا غير واع، هو الذى عجّل بسرعة بالغة برغباتى ، بحيث بدت وكأنها طموحات يائسة.

على الرغم من أننى كنت لا أزال يافعا ، فلم أعرف ما الذى تعنيه معايشة الشعور الواضح بالحب الأفلاطونى، أكان ذلك من سوء الطالع؟ لقد جعل القلق الغامض الذى أحاط برغباتى الجنسية العالم الجسدى هاجسا، بالنسبة لى ، من الناحية العملية . كان فضولى ذهنيا محضا بالفعل، لكنى برعت فى إقناع نفسى بأنه رغبة حسية متجسدة ، بل مضيت فى الأمر قدما، حتى تملكت ناصية فن التضليل، إلى أن تمكنت من اعتبار نفسى شخصا فاسق الذهن حقا، كنتيجة لهذا انتحلت لنفسى المظاهر التقليدية للمراهق وللشخص المحنك، وافتعلت لنفسى اتخاذ موقف من سئم النساء تماما .

هكذا تملكنى على هذا النحو هاجس فكرة القبلة، ولم يمثل الفعل الذى يدعى بالتقبيل بالنسبة لى إلا مكانا تنشد فيه روحى ملاذا . بوسعى الآن أن أقول ذلك، لكن فى ذلك الوقت، ولكى أضلل نفسى وأقنعها بأن تلك عاطفة حيوانية ، اضطررت إلى إضفاء تنكر متعمد على ذاتى الحقة، وفى عناء شدد شعورى غير الواعى بالذنب الناشىء عن هذا الادعاء الزائف على أننى أقوم بدور مزيف وواع.

لكن قد يطرح تساؤل: أيمكن أن يكون شخص زائفا تماما على هذا النحو في مواجهة طبيعته الحقة؟ حتى ولو للحظة واحدة؟ إذا كانت الإجابة هي لا، فليس ثمة إذن طريقة لإيضاح العملية الذهنية الغامضة، التي من خلالها نتوق إلى أشياء لا نرغب فيها على الإطلاق ، أترى هناك مثل هذه الطريقة؟ إذا تم التسليم بأنني كنت على وجه الدقة نقيض الرجل الأخلاقي الذي يقمع رغباته اللاأخلاقية فهل يعني هذا أن قلبي كان يضم أكثر الرغبات تجردا من الأخلاق؟ على أية حال ، أما كانت رغباتي مضيعة بصورة متفاقمة؟ أم تراني خدعت نفسي تماما؟ أكنت أتصرف حتى أدق في التفاصيل كعبد بالفعل للعرف؟.. سرعان ما سيحل الوقت الذي يغدو بوسعي فيه تجنب ضرورة العثور على ردود لهذه الأسئلة ...

مع نشوب الحرب اجتاحت البلاد بأسرها موجة من الرواقية الزائفة، وحتى المدارس الثانوية لم تنج منها. طوال دراستنا بالمدرسة الوسطى كنا نتوق إلى يوم الانتقال السعيد ذاك إلى المدرسة العليا، حينما يكون بمقدورنا أن نطلق شعرنا، أما الآن وحينما حل هذا اليوم فلم يعد يسمح لنا بتحقيق طموحنا، كان لازال من المتعين علينا أن نقص شعرنا، وبالمثل كانت حمى الجوارب الزاهية قد فات أوانها، وبدلا من هذا أصبحت فترات التدريب العسكري متكررة بصورة عبثية ،

وأدخلت تجديدات عديدة أخرى مثيرة للسخرية.

غير أنه بفضل مراننا الطويل بالمدرسة على إبداء انصياع بارع، وإن كان مظهريا فحسب، تمكنا من مواصلة حياتنا الدراسية ، دون أن نتأثر بشكل خاص بالضوابط الجديدة. كان العقيد الذى عينته وزارة الحربية فى مدرستنا رجلا متفهما، بل وكان الضابط المنوب الذى أطلقنا عليه اسم السيد «زو» بسبب طريقته الريفية فى نطق حرفى «سو» كما لو كانا «زو»، وكذلك زميلاه اللذان دعوناهما السيد «أطيش» والسيد «منخار» بسبب أنفه الأفطس ، قد أدركوا طريقة عمل المدرسة وروحها ، واستجابوا لها بصورة معقولة بما فيه الكفاية. كان ناظرنا قائدا بحريا مخضرما، أقرب إلى لين الأنوثة ، وبمساعدة وزارة التربية الإمبراطورية احتفظ بمنصبه عن طريق اتباع مبدأ الاعتدال القائم على تبديد الوقت والابتعاد عن روح الهجوم فى جميع الأمور.

خلال هذه الفترة تعلمت معاقرة الشراب والتدخين ، أو بالأحرى تعلمت التظاهر خلال العكوف على الشراب والتدخين. كانت الحرب قد أفرزت فينا على نحو غريب نضجا عاطفيا ، نبع ذلك من التفكير في الحياة بحسبانها شيئا يمكن أن ينتهي فجأة، ونحن فى العشرينيات من أعمارنا، بل إننا لم نفكر فى احتمال وجود شىء يتجاوز هذه السنوات القلائل الباقية. داهمتنا الحياة

بكونها شيئا سريع الزوال على نحو غريب. بدا الأمر ، على وجه الدقة، كما لو أن الحياة كانت بحيرة ملحية تبخر منها معظم الماء على حين غرة، تاركا تركزا هائلا فى الملح ، حتى أن أجسامنا طفت فى مرح على سطحه. وحيث أن لحظة نزول الستار لم تكن بعيدة كثيرا، فلربما يكون من المتوقع أن أسخر بمزيد من الاجتهاد القناع الذى اخترعته لنفسى، لكن فيما كنت أحدث نفسى بأننى سأبدأ غدا، غدا بالتأكيد ، رحلتي إلى الحياة، فإن هذه الرحلة أجلت يوما إثر آخر، وغذت سنوات الحرب السير، دون أدنى إمارة تدل على رحيلى.

ألم تكن تلك فترة سعادة فريدة بالنسبة لى؟ رغم أننى كنت لا أزال أشعر بالقلق، إلا أنه كان واهنا فحسب، كان الأمل لايزال يراودنى، رحت أتطلع إلى السماوات الزرقاء المجهولة لكل غد. أحلام خيالية عن الرحلة المقبلة، رؤى حول مغامرتها، الصورة الذهنية للشخص الذى سأكونه فى العالم يوما، العروس الجميلة التى لم أرها بعد، آمالى فى الشهرة ـ فى تلك الأيام كانت كل هذه الأمور منسقة على نحو بديع فى حقيبة سفر تنتظر الرحيل، تماما كما لو كانت أدلة للرحلات ومنشفة وفرشاة أسنان ومعجون لها. استشعرت بهجة طفولية فى الحرب، على الرغم من وجود الموت والدمار حولى لم تنكص أحلام اليقظة، التى اعتقدت فيها أننى

بعيد المطال عن كل ضرر وعن أية طلقة، بل إن رعدة النشوة الغريبة انتابتنى لدى تفكيرى فى موتى، شعرت كأننى أملك العالم بأسره، ولا غرو فى ذلك ، لأنه ما من وقت تستحوذ فيه علينا رحلة، حتى آخر أركانها وشقوقها ، مثلما يحدث لدى أنهماكنا بالإعداد لها، وعقب ذلك لا يبقى إلا الرحلة نفسها، التى لا تعدو أن تكون العملية التى نفقد خلالها تملكنا لهذه الرحلة، وهذا هو ما يجعل السفر دون جدوى على الإطلاق على هذا النحو.

بمرور الوقت أصبح استحواذ فكرة التقبيل علىّ مثبتا على شفتين وحيدتين، وحتى هنا ربما كان مصدر إلهامى هو الرغبة فى أن أضفى على أحلامى ادعاءات بالانتماء إلى أصل أكثر نبلا. كما أشرت من قبل، فعلى الرغم من أننى لم أعايش لا الرغبة ولا أى انفعال آخر إزاء هاتين الشفتين، فقد حاولت يائسا إقناع نفسى بأننى كنت أرغب فيهما. باختصار أخطأت فاعتبرت شيئا كان بالفعل لا يتجاوز كونه الرغبة اللاعقلانية والثانوية فى إرادة الاعتقاد بأننى أرغبه ـ اعتبرته أولى ، كنت أخلط بين الرغبة الوحشية والمستحيلة فى ألا أريد أن أكون ذاتى وبين الرغبة الجنسية التى تراود رجلا محنكا، رغبة تنبع من كونه ذاته.

كان لى فى ذلك الوقت صديق تربطنى به المودة ، على الرغم من أننا لم نكن متقاربين بأى شكل حتى فى حديثنا، كان

زميلا فى الدراسة، عابثا، يدعى نوكادا. اختارنى كصديق فيما يبدو ، باعتبارى شريكا مقبولا يستطيع أن يكون معه بعيدا عن التوتر، فيما يطرح عليه العديد من الأسئلة عن دروس السنة الأولى فى اللغة الألمانية ، التى كان يعانى صعوبة كبيرة منها، وبما أنى متحمس دائما لكل ماهو جديد، إلى أن تبلى جدته ، فقد بدا أنى ممتاز كطالب يدرس الألمانية، وإن كان ذلك فى خلال تلك السنة الأولى فحسب. من المحقق أن نوكادا قد حدس مدى ضيقى المكتوم بلقب تلميذ الشرف الذى خلع على ومدى حنينى إلى «السمعة السيئة». حدثت نفسى بأن تلميذ الشرف هو وصف يلائم بصورة أكبر طالبا متخصصا فى علم اللاهوت ، مع ذلك فلم أستطع أن أجد لقبا آخر يزودنى بقناع أفضل. وقد تضمنت صداقة نوكادا شيئا يخاطب نقطة الضعف تلك عندى، لأنه كان موضع الكثير من الغيرة من جانب «الفتية الأشداء» فى مدرستنا ، ولأنه من خلاله تعلقت بأصداء واهنة للاتصالات بعالم النساء . تماما على نحو ما يتصل المرء بعالم الروح عن طريق وسيط روحانى.

كان أومى هو الوسيط الأول بينى وبين عالم النساء ، لكنى فى هذا الوقت كنت أقرب إلى ذاتى الطبيعية ، هكذا اقتنعت باعتبار مؤهلاته الخاصة كوسيط مجرد من جماله، غير أن دور نوكادا كوسيط أصبح الإطار الفائق لفضولى، ربما كان ذلك

راجعا، على الأقل فى أحد جوانبه ، إلى حقيقة أن نوكادا لم يكن جميلا على الإطلاق.

لم تكن الشفتان اللتان أصبحتا هاجسا بالنسبة لى إلا شفتى أخت نوكادا الكبرى، وكنت قد رأيتهما حينما مضيت إلى داره لزيارته. كان يسيرا على هذه الفتاة الجميلة ، ذات الثلاثة والعشرين ربيعا، أن تعاملنى كطفل. بمراقبة الرجال الذين يتهافتون عليها أدركت أننى لا أتمتع بمزية واحدة، يمكن أن تجتذب امرأة. هكذا اعترفت لنفسى أخيرا بأننى لن أصبح أومى أبدا، وبمزيد من التأمل أقررت بأن رغبتى فى أن أغدو مثل أومى لم تكن فى الحقيقة إلا حبا له .

رغم ذلك كنت لا أزال مقتنعا بأننى أحب أخت نوكادا. سلكت على وجه الدقة السلوك الذى يمكن أن يأتيه أى طالب بمدرسة ثانوية، فى مثل عمرى، لا خبرة له، رحت أنتظر إلى جوار دارها، منفقا فى صبر ساعات طويلة فى مكتبة قريبة، آملا أنها قد تمر بالصدفة فاستوقفها. كنت أحتضن الوسادة، أتخيل الشعور بمعانقتها، أرسم صورا لا حصر لها لشفتيها، أحدث نفسى كما لو كنت قد جننت . وماذا كانت جدوى كل ذلك؟ لم تؤد هذه الجهود المصطنعة إلا إلى إصابة ذهنى بإرهاق خدر غريب. وتلمس الجانب الواقعى من ذهنى الاصطناع فى الاحتجاجات الأزلية التى كنت

أقنع بها نفسى بأننى أحبها، وشن حرب مضاعة بذلك الإرهاق الذهنى الباعث على الغيظ، بدا أن ثمة لونا رهيبا من السم فى هذا الإرهاق الذهنى.

بين فترات السكينة، فى غمار هذه الجهود التى أبذلها للوصول إلى الاصطناع، كان يغلبنى فى بعض الأحيان خواء يبعث الشلل ، ولكى أهرب منه، كنت أنتقل إلى نوع آخر من أحلام اليقظة، دونما حياء، عندئذ أغدو على الفور متوافقا مع سرعة الحياة ، أصبح ذاتيا ، أتوهج محلقا نحو صور غريبة ، فضلا عن هذا فإن اللهب الذى يخلق على هذا النحو يمكث فى ذهنى ، كشعور مجرد منفصل عن واقع الصور التى سببته، وأظل أحرف تفسيرى لهذا الشعور عن موضعه، إلى أن يساورنى الاعتقاد بأنه برهان العاطفة التى فجرتها الفتاة نفسها .. هكذا خدعت نفسى مرة أخرى.

إذا كان هناك من يوجهون اللوم لى قائلين إن ما وصفته بالغ التعميم والتجريد، فليس بمقدورى إلا الرد بالقول إننى لم أعتزم تقديم وصف مسهب لفترة من حياتى لا تختلف فى جوانبها الخارجية بحال عن جوانب المراهقة العادية ، فباستثناء الجانب الفاضح من ذهنى، كانت مراهقتى عادية تماما، حتى فى جوانبها الداخلية، خلال هذه الفترة كنت كأى فتى آخر تماما. ولا يحتاج

القارىء إلا إلى أن يصور لنفسه طالبا مجتهدا بصورة طيبة، لم يبلغ العشرين من عمره بعد، يساوره فضول عادى، يتمتع بشهوة عادية للحياة، ويحتل موضع المعتكف ، ربما لا لشىء إلا لأنه كان عاكفا على الاستبطان، يحمر خجلا سريعا لدى أدنى كلمة، ويفتقر إلى الثقة التى تنبع من كونه يتمتع بما يكفى من الوسامة لاجتذاب الفتيات، فيتشبث بحكم الظروف بكتبه، وسيكون ذلك كافيا لكى يصور المرء لنفسه كيف كان هذا الطالب يحن إلى النساء، وكيف كانت النار تتقد بصدره، وكيف أنه كان يعيش عذابا لا جدوى منه.

أيمكن أن يكون هناك ما هو أكثر عادية وأيسر في تصوره؟ لعله من قبيل التوفيق أن أحذف هذه التفاصيل المضجرة، التى تكرر فحسب ما يعرفه الجميع بالفعل. فلنكتف إذن بالقول إنه ـ باستثناء دائم للفارق الفاضح الذى أصفه ـ فى تلك الفترة المتجردة من الألوان من حياة الطالب الخجول كنت كسائر الفتية تماما، وإننى أقسمت يمين الولاء غير المشروط لمدير المسرح الذى عرضت عليه المسرحية المسماة بالمراهقة.

خلال هذه الفترة امتد الانجذاب الذى كنت أشعر به ، فيما سبق ، نحو الفتية الأكبر سنا شيئا فشيئا ليشمل الفتية الأصغر سنا كذلك. كان هذا أمرا طبيعيا، حيث أنه فى هذه الفترة كان الفتية الأصغر سنا فى العمر ذاته الذى كان فيه أومى حينما

أحببته، لكن هذا الانتقال بحبى إلى مجموعة عمرية مختلفة كان مرتبطا كذلك بتغير أكثر جذرية فى طبيعة حبى، وكما هو الشأن من قبل أبقيت هذا الشعور الجديد طى الكتمان فى سويداء قلبى، لكن إلى جوار عشقى لمن هو وحشى أضيف الآن عشق لمن هو رشيق ومهذب ، ومع نموى الطبيعى نما فى أعماقى شىء يحاكى عشق الوصى ، شىء يشبه حب الغلمان.

يقسم هيرشفيلد اللواطيين إلى فئتين: الأندروفيليين الذين لا ينجذبون إلا إلى البالغين، والايفيبيوفيليين الذين يولعون بالفتية ممن هم بين الرابعة عشرة والحادية والعشرين. كنت أوشك على فهم مشاعر الفئة الثانية .. فى بلاد الإغريق كان الفتى يدعى ايفيبى وهو فى الفترة من الثامنة عشرة إلى العشرين من عمره وذلك خلال تلقيه التدريب العسكرى، وقد استمد الاصطلاح من الكلمة الإغريقية ذاتها التى تبدو فى اسم هيبى، ابنة زيوس وهيرا ، حاملة قدح الآلهة فى الاوليمب، زوجة هرقل الخالد، ورمز ربيع الحياة.

كان هناك فتى جميل المحيا، لم يبلغ السابعة عشرة من عمره ، التحق لتوه بالمدرسة الثانوية، كانت له بشرة فاتحة اللون، وشفتان رقيقتان وحاجبان مكتملا الاستدارة، علمت أن اسمه ياكومو. اجتذبتنى ملامحه إلى حد كبير.

دون أن يدرك الأمر، شرع يهدينى سلسلة من الهدايا،

يتألف كل منها من أسبوع كامل من السرور، كان عرفاء القسم من طلاب الصف الأعلى، الذين كنت واحدا منهم، يصدرون الأوامر فى نوبات أسبوعية فى الاصطفاف الصباحى والتمارين الرياضية والتدريب العسكرى فى الأصيل (كان هذا الأخير، على نحو ما هو مفروض فى المدارس الثانوية فى تلك الأيام ، يضم نصف ساعة من الرياضات البحرية، كنا نحمل الأدوات فى أعقابها، ونمضى لحفر ملاجىء الغارات ، أو اجتزاز العشب). كانت نوبتى فى إصدار الأوامر تحل مرة كل شهر، وقد بدا أنه حتى مدرستنا رغم كل أساليبها الحساسة قد انصاعت لصرعات العصر الخشنة، ومع مقدم الصيف أمرنا بالتجرد من ملابسنا، حتى الخاصرة، لأداء تدريبات الصباح والرياضات البحرية فى الأصيل.

كان النظام يقضى بأن يصدر العريف أولا الأوامر بالاصطفاف الصباحى من فوق المنصة، وحينما يتم الاصطفاف كان عليه أن يصدر الأمر: «سترات إنزع!» وبعد أن يشرع الجميع فى نزع السترات كان عليه أن يهبط، يقف إلى جانب الصف، وعندئذ يصدر الأمر للطلاب بالانحناء لمدرب التربية البدنية، الذى يكون قد احتل مكانه فوق المنصة، وهنا تنتهى مهمة العريف، حيث يأخذ المدرب فى توجيه التدريبات، من ثم يسرع عائدا للطابور الأخير من صفه الدراسى ، حيث ينزع بدوره سترته، يتجرد من

ملابسه حتى الخاصرة، ويشارك فى التدريبات.

كنت أرهب إصدار الأوامر للغاية ، حتى أن مجرد التفكير فيه كان يجعلنى أتجمد خوفا ، مع ذلك فقد كانت المراسم الشكلية العسكرية المتصلبة لهذا الإجراء تتيح لى فرصة بالغة الندرة ، حتى أننى كنت بشكل ما أتوق إلى الأسبوع الذى يحل فيه دورى لإصدار الأوامر، ذلك أنه بفضله كان جسد ياكومو ، نصف العارى، يوضح أمام عينى مباشرة ، دون خطر مشاهدته لعريى البشع .

كقاعدة عامة، كان ياكومو يقف أمام المنصة مباشرة فى الصف الأول أو الثانى، وخداه المراوحان بين البنفسج المعتدل والأرجوان الباهر يتوقدان حمرة، فتداخلنى البهجة لمرآهما، يلهث قليلا حينما يقبل عدوا إلى مكان الاصطفاف، ويحتل مكانه فى الصف، لاهثا كان يفك دائما أزرار قميصه بحركات خشنة، ثم ينتزع ذيل قميصه بعنف من سراويله كأنما ليمزقه إربا .

ألفيت أنه من المستحيل أن أشيح بناظرى بعيدا عن بدنه الحليبى اللدن، فيما هو معرى هكذا، نهبا للأنظار بمثل هذه اللامبالاة، حتى حين أعقد العزم على ألا أنظر إليه (ذات مرة تجمد الدم فى عروقى حينما استمعت إلى ملاحظة بريئة لصديق وهو

يقول: «إنك تنكس عينيك دائما حين تلقى الأوامر من المنصة، أحقا أنت «خرع» هكذا؟). لكنى فى المناسبات لم تتح لى فرصة المزيد من الاقتراب من عريه النصفى المورد.

حينما حل الصيف مضت كل الصفوف العليا لقضاء أسبوع من الدراسة والمراقبة فى مدرسة للهندسة البحرية فى مدينة «م». وذات يوم ، فيما كنا هناك، تم اصطحابنا جميعا للسباحة فى المسبح، وبدلا من الإقرار بأنى لا أستطيع السباحة اعتذرت بدعوى الإصابة بألم فى المعدة. توقعت أن أظل متفرجا لا غير ، غير أن نقيبا قال إن حمام الشمس علاج لجميع الأمراض، وحتى أولئك الذين ادعوا أن المرض ألم بهم وما عاد بوسعهم السباحة أجبروا على نزع ملابسهم، عدا سراويلهم القصيرة .

فجأة لاحظت أن ياكومو بين مجموعتنا. كان يرقد ، وقد عقد ذراعيه الأبيضين بعضلاتهما الناتئة ، معرضا صدره الذى لوحته الشمس قليلا للنسيم، عاضا شفته السفلى باستمرار، كأنما يداعبها بأسنانه البيضاء. شرع المتمارضون فى التجمع تحت ظل شجرة إلى جوار المسبح، لم أجد صعوبة فى الاقتراب منه ، جلست إلى جواره ، قست بعينى خصره النحيل، حدقت فى بطنه ، التى راحت تعلو وتنخفض مع تنفسه، فيما كنت أقوم بذلك استعدت بيتا من الشعر لوايتمان يقول :

طفا الشباب على ظهورهم وبطونهم البيضاء تبرز نحو الشمس ...

مرة أخرى التزمت الصمت، لفنى الخجل من صدرى المهزول وذراعىّ الشاحبتين ناتئتى العظام ...

فى سبتمبر ١٩٤٤ ، العام الذى سبق نهاية الحرب ، غادرت المدرسة التى التحقت بها منذ طفولتى ، التحقت بجامعة معينة. وإذ لم يدع أبى أمامى أى مجال آخر، التحقت بكلية الحقوق، لكن ذلك لم يضايقنى كثيرا، حيث كنت مقتنعا بأننى سرعان ما أستدعى إلى الجيش، فألقى حتفى فى الميدان، وستلحق الرحمة بأسرتى كذلك، فتقتل فى الغارات الجوية ، دون أن ينجو منا ناج .

وعلى نحو ما كان مألوفا فى ذلك الحين، اقترضت ثوبا جامعيا من طالب بصف أعلى ، كان على وشك الذهاب إلى الميدان، لدى التحاقى بالجامعة، مع وعد بإعادته إلى أسرته، حينما يأتى علىّ الدور فى الذهاب إلى الميدان . ارتديت هذا الزى ، وشرعت فى شهود المحاضرات .

أضحت الغارات أكثر تواترا، كنت أرهبها على نحو غير مألوف، رغم ذلك كنت فى الوقت نفسه أترقب الموت بصبر نافد وبتوقع عذب. كما سبق أن أشرت مرات عديدة ، كان المستقبل

وقرا ثقيلا، منذ البداية ذاتها أبهظتنى الحياة بشعور ثقيل بالواجب، وعلى الرغم من أننى كنت عاجزا بصورة جلية عن أداء هذا الواجب ، فإن الحياة ما فتئت تقض مضجعى لوما وتعنيفا لتقصيرى . هكذا كنت أتوق للشعور العظيم بالارتياح ، الذى من المؤكد أن الموت سيجلبه لو أنى استطعت أن أزيح كمصارع وقر الحياة الثقيل عن كاهلى، تقبلت بأحاسيس الإيمان بالموت، الذى كان شائعا خلال الحرب، اعتقدت أننى إذا استطعت بالمصادفة أن ألقى حتفى على نحو مجيد فى الميدان (كم كان ذلك حريا ألا يناسبنى!) فإن ذلك سيكون نهاية ساخرة حقا لحياتى ، وسيغدو بمقدورى أن أضحك ساخرا منه للأبد فى قبرى ... حينما كانت صفارات الإنذار من الغارات تدوى، كان ذلك الشخص ذاته الذى يقبع فى إهابى يندفع سابقا الجميع إلى المخابىء ..

سمعت صوت بيان ، يعزف دونما إتقان .

كان ذلك فى دار صديق قرر التطوع قريبا كطالب خاص بالكلية الحربية. كان اسمه كوسانو، كنت أقدره وأعده الصديق الوحيد بالمدرسة الثانوية الذى أستطيع مجاذبته أطراف الحديث حول موضوعات جادة. بل إنى لازلت حقا أقدر صداقته اليوم حق قدرها . أنا إنسان ليست لديه رغبة خاصة فى أن يكون له أصدقاء،

لكننى أشعر بالأسى إزاء شىء ما فى أعماقى يجبرنى على أن أقول ما سيلى من حديث ، وذلك على الرغم من أنه يحتمل إلى حد كبير أن يقضى على الصداقة الوحيدة التى لى.

ـ ترى أيبدو واعدا من يعزف على البيان، فى بعض الأحيان يبدو العزف أقل توازنا ، ألا يبدو كذلك؟

ـ هذه أختى ، وقد خرج مدرسها لتوه، وهى تراجع الدرس.

توقفنا عن الحديث ، أصغينا بانتباه ، وبما أن التحاق كوسانو بالكلية الحربية كان وشيكا، فربما لم يكن صوت البيان وحده هو الذى يتردد فى مسامعه ، وإنما كان شيئا يوميا مألوفا، ضربا من البهاء المربك ، الذى يبعث الضيق، والذى سرعان ما يتعين عليه أن يخلفه وراءه، كان فى اللون النغمى لأصوات البيان تلك شعور بالحميمية ، يحاكى لونا من الحلوى ، أعده طاه هاو وفيما ينظر فى كتاب للطهو. لم أملك إلا أن أتساءل:

ـ كم عمرها؟

رد كوسانو:

ـ سبعة عشر عاما. إنها أختى التى تصغرنى مباشرة.

كلما أمعنت فى الإصغاء أمكننى أن أدرك بالسماع أنه صوت بيان حقا تعزف عليه فتاة فى السابعة عشرة من عمرها، ممتلئة بالأحلام، لم تدرك بعد جمالها، ولا تزال أطراف أصابعها تحتفظ بلمسات الطفولة، دعوت أن يستمر مرانها إلى الأبد.

استجيب دعائى ، ففى فؤادى لايزال يتواصل نغم ذلك البيان اليوم وبعد انقضاء خمس سنوات. كم من مرة حاولت أن أقنع نفسى بأن الأمر لم يعد كونه هذيانا! كم من مرة سخر عقلى من هذا الوهم! كم من مرة سخرت إرادتى المتهافتة من قدرتى على خداع النفس؟ رغم هذا كله تظل قائمة حقيقة أن ذلك البيان تملك ناصيتى ، ذلك يعنى بالنسبة لى إذا ما أمكن أن نحذف الإسقاطات المعتمة من الكلمة ـ أنه كان حقا شيئا بعث به «القدر».

منذ وقت قريب فحسب كنت أتذكر الانطباع الغريب الذى تركته كلمة «القدر» هذه عندى. بعد إنهاء الدراسة بالمدرسة الثانوية، ذهبت فى سيارة مع ناظر المدرسة ـ الأميرال العجوز ـ للقيام بزيارة شكر وعرفان رسمية للقصر. فيما كانت السيارة تمضى بنا شرع هذا العجوز الجهم ، الذى تجمعت الإفرازات فى ركنى عينيه، ينتقد قرارى بعدم التطوع كطالب بالكلية الحربية وانتظار التجنيد العادى، راح يؤكد لى أننى بضعف بنيتى لن

أتمكن أبدا من احتمال مشاق الحياة فى صفوف الجنود العاديين.

ـ لكنى حسمت رأيى.

ـ تقول هذا لأنك لاتدرك ما يعنيه، لكن يوم التطوع انقضى بالفعل وما عاد بالوسع القيام الآن بشىء حيال هذا الأمر . إنه قدرك.

استخدم الكلمة الانجليزية مسيئا نطقها بالطريقة العتيقة. تساءلت : ماذا؟

ـ القدر، إنه قدرك.

كرر قوله على نحو مضجر، مستخدما نبرة الصوت اللامبالية الخجول، التى تميز الكهول، الذين يحذرون أن يظن بهم شبها بالجدات الثرثارات.

لابد أننى كنت قد شاهدت خلال زيارات سابقة لدار كوسانو تلك الأخت التى كانت تعزف على البيان ، لكن أسرة كوسانو كانت شديدة التزمت ، لا تشبه من قريب أو بعيد أسرة نوكادا المتحررة، وحينما كان أصدقاء كوسانو يقبلون لزيارته كانت الشقيقات الثلاث يختفين عن العيان، على الفور ، مخلفات وراءهن ابتساماتهن الحيية .

فيما كان موعد التحاق كوسانو بالكلية الحربية يزداد اقترابا تواترت زياراتنا أحدنا للآخر، تعمق ترددنا فى الافتراق، أصابتنى تجربة الإصغاء إلى ذلك البيان بتبلد تام حيال تلك الأخت، كان سماعه يشبه التلصص على سر من أسرارها، منذ ذلك الوقت لم أعد قادرا بشكل ما على أن أحدق فى عينيها أو أحدثها مباشرة، وحينما يتصادف أن تجلب الشاى كنت أنكس رأسى ، فلا أرى منها إلا ساقيها الرشيقتين وقدميها، وهما تطأن الأرض بخفة. فتنت بجمال ساقيها ، ربما لأنى لم أكن قد اعتدت بعد على رؤية نساء المدينة وهن يرتدين سراويل الفلاحات تحت تنورة قصيرة، أو هذه السراويل الفضفاضة، التى غدت صرعة تلك الأوقات المحفوفة بالمخاطر ...

مع ذلك ، سيكون من قبيل الخطأ أن أترك الانطباع بأن ساقيها أحدثت أى استثارة جنسية لدىّ، فكما سبق لى القول كنت افتقر تماما إلى أى شعور بالرغبة الجنسية تجاه الجنس الآخر، تبرهن على ذلك إلى حد كبير حقيقة أنه لم تساورنى أبدا أدنى رغبة فى أن أرى جسد امرأة عاريا، لهذا كله ما إن أشرع فى التصور جادا بأنني أحب فتاة ما، ويبدأ الإعياء الحاقد الذى تحدثت عنه قبلا فى عرقلة ذهنى، حتى أستشعر فرصة فى النظر إلى نفسى كشخص يحكم العقل حياته، وأرضى رغبتى المزهوة فى

أن أبدو ناضجا، بتشبيه عواطفي المتصلبة المتقلبة بعواطف رجل سئم النساء. غدا هذا الدوران الذهني حول نقطة واحدة تلقائيا عندي، كأنما كنت إحدى آلات الحلوى تلك التي تعمل فتقذف قطعة من الحلوى منزلقة خارجا، في اللحظة التي تدس بها عملة معدنية.

توصلت إلى أن بمقدوري أن أحب فتاة دون أن أشعر بأية رغبة على الإطلاق نحوها، وربما كان ذلك أكثر المشروعات طيشا منذ بداية التاريخ الإنساني، فدون أن أدرك الأمر بنفسي أخذت على عاتقي - وأرجو أن تغتفر لي ميلي الطبيعي إلى الإغراق ، والمبالغة - أن أكون كوبرنيكوس نظرية الحب ، فبقيامي بذلك وصلت دونما قصد إلى ما لا يتجاوز الإيمان بمفهوم أفلاطون للحب. وعلى الرغم من أنني قد أبدو لو كنت أناقض ما قلته من قبل، فقد كنت أومن بهذا المفهوم الأفلاطوني مخلصا، أعني بقيمته الإسمية الكاملة وبصورة نقية. على أية حال أما كان النقاء نفسه لا المفهوم هو ما أؤمن به؟ ألم يكن النقاء هو الذي أقسمت يمين الولاء له؟ لكني سأفصل القول بهذا فيما بعد.

إذا كنت أبدو في بعض الأحيان كما لو كنت لا أومن بالحب الأفلاطوني، فإن ذلك يمكن أن يلام عليه ذهني ، الذي يبالغ في الميل إلى تفضيل مفهوم الحب الشهواني، الذي كان قلبي خاويا منه، وذلك الإعياء الذي يفرزه إدعاء بالغ الميل إلى مصاحبة أي

إرضاء لجنونى بالظهور بمظهر الرجل الفاضح، وباختصار فإن ما ألام عليه هو قلقى.

أقبل العام الأخير من الحرب. بلغت العشرين من العمر. فى مطالع ذلك العام ، أرسل جميع طلاب جامعتى للعمل بمصنع «ن». للطائرات، بالقرب من مدينة «م». أصبح ثمانون بالمائة من الطلاب عمالا بالمصنع، أما الطلاب المهزولون ، الذين شكلوا العشرين بالمائة الباقية، فقد عهد إليهم بأعمال كتابية، وكنت ضمن هذه الفئة الأخيرة ، ومع ذلك فقبل عام ، ولدى حلول موعد الفحص الطبى للتجنيد صنفت ضمن الفئة الثانية (الشريحة ب) وبعد أن أعلنت لائقا للخدمة العسكرية ساورنى القلق حول أن أوراق استدعائى يمكن أن تصل غدا، إن لم يكن اليوم.

كان مصنع الطائرات الواقع فى منطقة معزولة ، تتقد بلفح الغبار ، ومن الضخامة بحيث أن عبوره سيرا على الأقدام من أحد جانبيه إلى الجانب الآخر كان يستغرق نصف ساعة، ويموج بعمل عدة آلاف من العمال، كنت واحدا منهم، أحمل تصنيف الموظف المؤقت رقم ٩٥٣ وبطاقة الهوية رقم ٤٤٠٩.

هذا المصنع الهائل كان يعمل وفقا لنظام تكاليف إنتاج غامض: ففى إطار تجاهل القول الاقتصادى الفصل الذى يقرر أن

استثمار رأس المال لابد أن يدر عائدا ، كان المصنع مكرسا لعدم «وحشى»، فلا عجب إذن أن العمال كان يتعين عليهم كل يوم أن يؤدوا قسما طقوسيا. لم أر أبدا مثل هذا المصنع الغريب، ففيه كانت الأساليب الفنية، التي أبدعها العلم والإدارة الحديثان ، تكرس جنبا إلى جنب مع التفكير الدقيق والعقلانى للعديد من العقول النابهة لتحقيق غاية واحدة، هى الموت . كان هذا المصنع الهائل بإنتاجه للنمط صفر من الطائرة المقاتلة ، التى تستخدمها الأسراب الانتحارية، يحاكى طائفة سرية ، تعمل على نحو راعد، متنمر، صارخ ومزمجر، لم أفهم كيف يمكن لمثل هذا التنظيم الهائل أن يوجد، دون بعض التضخيم الدينى، وفى الحق أن المصنع كان يتمتع ببعض الجلال الدينى ، حتى إلى الحد الذى يضخم به المديرون المترهبنون أكراشهم.

بين الحين والآخر ، كانت أصوات صفارات الإنذار بالغارة تعلن حلول الساعة التى ينبغى أن تقيم فيها هذه الطائفة المرتكسة قداسها المظلم.

عندئذ يبدأ المكتب فى الهياج. لم يكن هناك مذياع فى الغرفة، لذا لم تكن لدينا طريقة نعرف بها ما يجرى، يقول أحدهم متحدثا بلهجة ريفية غليظة: «ترى ما الذى يجرى؟»، وفى هذا

الوقت تقبل فتاة من الاستقبال بمكتب المدير بنبأ من قبيل : «شوهدت تشكيلات لطيران العدو» وسرعان ما تصدر الأصوات العملاقة لمكبرات الصوت الأمر للطالبات وفتية المدارس باللجوء إلى المخبأ، يمر المسئولون عن أعمال الإنقاذ، موزعين بطاقات حمراء تحمل الكلمات المطبوعة: «أوقف النزيف الساعة ـ الدقيقة ـ ». فإذا ما جرح أحد تملأ إحدى هذه البطاقات ، وتعلق حول رقبته موضحة الموعد الذى ثبتت فيه المرقاة، وبعد حوالى عشر دقائق من تردد دوى صفارات الإنذار ، تعلن مكبرات الصوت: «جميع العاملين يتجهون إلى المخابىء».

يسارع العاملون بالمكاتب ، متأبطين ملفات الأوراق المهمة لإيداعها في قبو تحت الأرض ، حيث تحفظ السجلات المهمة، ثم يندفعون خارجين، فينضمون إلى أسراب العمال المسرعين عبر الميدان، وقد وضعوا على رءوسهم خوذات الغارات أو أغطية الرأس المدثرة ، فيتدفق الجمع نحو البوابة الرئيسية.

خارج البوابة كانت هناك ساحة مهجورة ، جرداء ، مصفرة، وعلى بعد سبعمائة أو ثمانمائة متر وراءها حفرت ملاجىء عديدة، وسط أجمة صنوبر على تل دقيق الإنحدار وباتجاه هذه الملاجىء يندفع رتلان منفصلان ، صامتان، نافدا الصبر من الجمع الأعمى ، عبر الغبار، نحو ما ليس على أى حال موتا، بغض النظر عما إذا كان ملجأ قابلا للإنهيار بسهولة من الطين الأحمر، باتجاه

ما ليس موتا على أية حال.

كنت أمضى إلى الدار فى إجازاتى العشوائية ، وهناك تلقيت فى الحادية عشرة من إحدى الليالى إخطار تجنيدى، كانت برقية تتضمن أمرا بتقديم نفسى إلى وحدة معينة فى منتصف فبراير.

بناء على نصيحة أبى ، كنت قد اجتزت الكشف الطبى ، لا فى طوكيو ، وإنما فى المقر الرئيسى للفوج المتمركز بالقرب من الموضع الذى كان الموطن القانوني لعائلتى، فى مقاطعة «هـ»، بإقليم أوساكابكيوتوه تمثلت نظرية أبى فى أن تركيبى الجثمانى الواهن سيجذب المزيد من الاهتمام فى منطقة ريفية، على نحو يفوق ما يمكن أن يحدث فى المدينة، حيث لم يكن مثل هذا الوهن أمرا نادرا، وأنه كنتيجة لهذا قد لا أجند. وفى الحقيقة فقد قدمت للمسئولين عن الكشف الطبى مبررا للإغراق فى الضحك ، حينما عجزت عن رفع جوال من الأرز حتى مستوى صدرى، فيما كان الفتية الريفيون يرفعونه بسهولة فوق رءوسهم عشرات المرات، ورغم ذلك صنفت فى النهاية ضمن الفئة الثانية (الشريحة ب).

الآن أصبحت مستدعى للإلتحاق بوحدة ريفية خشنة. بكت أمى أسفا ، وبدا أبى مغتما هونا ما. أما عنى أنا الذى تصورت

نفسى بطلا فإن منظر أوراق الاستدعاء لم يثر فى نفسى حماسا، من ناحية أخرى كان هناك أملى فى أن ألقى حتفى على نحو يسير، وإجمالا بأن كل شيء على ما يرام .

تفاقمت نوبة البرد التى أصابتنى فى المستشفى كثيرا، خلال رحلتى على ظهر باخرة للإلتحاق بوحدتي، وفى الوقت الذى بلغت فيه دار عائلة تربطها صداقة حميمة بعائلتى فى القرية التى بها موطننا ـ ما كنا نملك قطعة واحدة من الأرض منذ إفلاس جدى ـ داهمتنى حمى بالغة الشدة حتى أننى عجزت عن الوقوف . غير أنه بفضل الرعاية التى تلقيتها فى هذه الدار، وبصفة خاصة بفضل التأثير الفعال للكمية الضخمة التى تناولتها من مهدئات الحمى ، تمكنت أخيرا من شق طريقى عبر بوابة الثكنات ، وسط وداع حار من أصدقاء العائلة.

الآن عاودتنى الحمى، التى كانت الأدوية قد كبحت جماحها فحسب، خلال الكشف الطبى الذى يسبق التجنيد النهائى اضطررت للوقوف عاريا تماما، منتظرا كحيوان برى ، وقد غلبتنى موجة من العطاس المتواصل، أخطأ الطبيب العسكرى الشاب الذى فحصنى صفير شعبى الهوائية ، فحسبه صادرا عن الصدر، ثم أكدت له ردودى العشوائية حول تاريخى الطبى خطأه، ومن هنا

ـ أجرى لي فحصا للدم أدت نتائجه المتأثرة بالحمى المرتفعة الناتجة عن نوبة البرد إلى تشخيص خاطيء لمرحلة أولى من السل. في اليوم نفسه تلقيت أمرا بالعودة إلى داري، باعتبارى غير لائق للخدمة العسكرية .

حينما وليت بوابة الثكنات دبرى ، انطلقت عدوا عبر المنحدر الشتوى الكابى الهابط نحو القرية ، وكما كان الحال فى مصنع الطائرات تماما قادتنى قدماى عدوا نحو ذلك الشيء الذى ليس موتا على أية حال، وأيا كان شأنه فإنه لم يكن موتا ..

عانيت بالقطار فى تلك الليلة وقد انكمشت من الريح ، التى كانت تنفذ من نافذة زجاجية مكسورة، من موجات الرعدة الناتجة عن الحمى ، فضلا عن صداع قاس. إلى أين أمضى الآن؟ رحت أساءل نفسى، بفضل عجز أبى الموروث عن اتخاذ أى قرار حول أى شيء ظلت عائلتى قابعة دون إخلاء من دارنا في طوكيو. أتراني أمضى إلى هناك، إلى تلك الدار التى يرقد فيها الجميع خوف الفجاعة ؟ إلى تلك المدينة التى تطوق الدار برهبتها المعتمة؟ إلى خضم هذه الحشود حيث للجميع عيون كعيون الخراف ويبدو كل منهم دائما وكأنه يرغب فى أن يسأل الآخر: «أأنت بخير؟ أأنت بخير»؟ أو إلى مهجع مصنع الطائرات الخاوى إلا من وجوه طلاب الجامعة المصدورين التى تجردت من الروح ؟!!

راحت العوارض الخشبية للمقعد التى أسندت ظهرى إليها تتقلقل ، وقد تعتعها الضغط مع اهتزازات القطار . بين الفينة والأخرى أغمض عينى، وأتخيل مشهدا تلقى فيه عائلتى بكاملها حتفها فى غارة تقع خلال زيارتى لها. كانت الفكرة فحسب تفعمنى باشمئزاز لا يوصف. ما من شىء أثار فىّ مثل هذا الشعور الغريب بالتقزز على نحو ما أثارته فكرة الربط بين الحياة اليومية والموت. ألا تخفى القطة نفسها حين يقترب الموت حتى لا يراها أحد تلفظ أنفاسها الأخيرة؟ أدى مجرد التفكير فى أننى قد أرى المصارع الضاربة التي تلقاها عائلتى ، وأنها قد تشهد مصرعى إلى جعل موجة غثيان مقيتة تعلو فى صدرى، التفكير فى الموت وهو يدفع أسرة نحو هذا المجاز، فى أن الموت سيسيطر على الأم، الأب، الأخت ، الأبناء، البنات، ويجعلهم يتقاسمون الشعور بالاحتضار ، فى النظرات التى سيتبادلونها فيما بينهم ـ بدا هذا كله لى تقليدا فاحشا وساخرا لمشاهد السعادة والوئام العائليين الكاملين.

كان ما أوردته هو أن ألقى حتفى وسط غرباء، دونما اضطراب ، تحت سماء لا تشوب السحب صفاءها، مع ذلك فقد اختلفت رغبتى عن مشاعر ذلك الإغريقى القديم الذى أراد أن يموت تحت شمس وهاجة. كان ما أردته انتحارا طبيعيا ، عضويا،

أردت موتا كذلك الذى يلقاه ثعلب لم يتمرس بعد بالخداع، فيسير دونما حذر علي امتداد ممر جبلى، فيرديه صياد قتيلا بسبب بلاهته..

لو أن الأمر كذلك، أما كان الجيش يغدو مثاليا لتحقيق هدفى؟ لماذا بدوت بالغ الصراحة فيما كنت أدلى بالأكاذيب لطبيب الجيش؟ لماذا قلت إن الحمى كانت تداهمنى طوال ما يزيد على نصف العام، وإن كتفى متصلبان بصورة مؤلمة ، وإنني أبصق دما، بل وإنني كنت فى الليلة الماضية غارقا فى العرق؟ (تصادف أن هذه النقطة الأخيرة كانت حقيقة، ولكن لا عجب فى ذلك إذا ما تذكرنا عدد أقراص الأسبرين التى تناولتها) لماذا حين حكم عليّ بالعودة إلى الدار شعرت بوقر ابتسامة تنهل ضاغطة فى إصرار بالغ على شفتى، حتى أنى وجدت صعوبة فى حجبها؟ لماذا عدوت على هذا النحو حين اجتزت بوابة الثكنات؟ ألم تنهر آمالى؟ لماذا إذن لم أنكس رأسي وأبتعد بخطى متثاقلة؟

أدركت بجلاء أن حياتى فى المستقبل لن ترقى أبدا إلى ذرى المجد، التى تكفى لتبرير هربى من الموت فى الجيش ، ومن هنا لم أستطع فهم مصدر القوة التى جعلتنى أعدو بمثل هذه السرعة، مبتعدا عن بوابة الفوج. هل عني ذلك أنني أردت الحياة فى النهاية؟ وتلك الاستجابة التلقائية تماما، التى تجعلنى أندفع

لاهث الأنفاس نحو الملجأ في الغارات، ترى ماذا كانت غير رغبة فى الحياة؟

فجأة تناهى إليّ صوتى الآخر يحادثنى، و يخبرنى بأننى لم أرغب ، ولو مرة واحدة، فى أن ألقى حتفى. عند سماع هذه الكلمات اكتسح شعورى بالعار السر الذى كنت أحتجزه خلفه. كان إقرارا مؤلما ، لكنى عرفت فى تلك اللحظة أنني كنت أكذب على نفسي حينما أقول إننى أردت دخول الجيش لألقى حتفى . فى تلك اللحظة أدركت أننى كنت آمل فى قرارة نفسى أن الجيش سيتيح لى أخيرا فرصة إرضاء رغباتى الحسية الغريبة تلك. عرفت أننى أبعد ما أكون عن الرغبة فى الموت، وأن الشىء الوحيد الذى جعل من الممكن على الإطلاق أن أتطلع إلى حياة الجيش هو القناعة الثابتة، التى تنشأ من إيمان بسحر بدائى مألوف لدى جميع الرجال، بأننى وحدى لا يمكن أن ألقى حتفى أبدا..

لكن ما كان أبعد هذه الأفكار عن أن تناسبنى! كنت أوثر التفكير فى نفسى بحسبانى شخصا تخلى عنه كل شىء ، وهجره الجميع، حتى الموت، وبالطريقة ذاتها فإن الطبيب الذى يقوم بجراحة لعضو داخلى يركز بدقة جميع ملكاته فى العملية التي يجريها ، مع ذلك فإنه يظل متجردا من الشخصية ، هكذا أبتهج بتصوير المعاناة الغريبة التى يلقاها شخص يريد الموت، لكن الموت،

رده عن رحابه ، بدت درجة النشوة الذهنية التى وصلت إليها على هذا النحو لا أخلاقية تقريبا.

اختلفت الجامعة والمصنع فى الرأى، فتم سحبنا جميعا من المصنع فى نهاية فبراير، كانت الخطة بالنسبة لنا تقضى بتلقينا محاضرات مرة أخرى فى مارس، على أن نرسل عقب ذلك إلى مصنع مختلف فى أبريل، لكن فى نهاية فبراير قام حوالى ألف طائرة من طائرات العدو بتوجيه ضربة جوية، وأصبح جليا أن المحاضرات التى سنتلقى في مارس ستكون شكلية فحسب.

هكذا منحنا شهرا كعطلة فى سمت الحرب، كان ذلك يشبه أن تعطى هدية من الألعاب النارية المبتلة، رغم ذلك كنت أوثر تلقى هذه الألعاب المبللة على تلقى ضرب من الهدايا العملية على نحو سخيف، والتى كان يمكن أن تكون أكثر اتساقا مع روح الجامعة، ولنشبهها بصندوق من رقائق الصودا الجافة، كان الإسراف المحض فى الأمر هو الذى بعث السرور فى نفسى، وجعلت الحقيقة القائلة بأن هذه الهدية لا جدوى منها ، جعلتها أمرا هائلا فى تلك الأيام .

بعد أيام من شفائى من نوبة البرد التى ألمت بى ، إتصلت بى أم كوسانو هاتفيا، قالت إنه سيسمح لأول مرة بالزيارات للفوج

الذى إلتحق به كوسانو فى مدينة «م»، فى العاشر من مارس. وسألتنى عما إذا كنت أود الذهاب معهم لزيارته.

قبلت الدعوة، بعد فترة قصيرة مضيت إلى دار كوسانو، لإعداد الترتيبات الضرورية. فى هذه الأيام كانت الساعات فيما بين الغسق والثامنة مساء تعد أكثر ساعات اليوم أمانا. حينما بلغت الدار كانت العائلة قد فرغت لتوها من تناول طعام العشاء.

بما أن والد كوسانو كان قد رحل عن عالمنا، فإن العائلة تألفت من أمه وجدته وشقيقاته الثلاث. دعيت للإنضمام إليهن حول المدفأة الصغيرة، حيث يجلسن، وقدمتنى الأم للأخت التى كنت قد سمعتها تعزف على البيان فى تلك المرة السابقة.

كان اسمها سونوكو.

ألمحت ضاحكا إلى أنى كنت قد سمعت عزفها من قبل، مشيرا إلى أن هناك عازفة بيان شهيرة تحمل الاسم نفسه، فتضرجت وجنة الفتاة ذات الثمانية عشرة ربيعا فى الضوء الكابى، الذى كان المصباح الخافت بسبب تقييد الإضاءة يلقيه ، والتزمت الصمت، كانت ترتدى سترة جلدية حمراء اللون .

فى صباح التاسع من مارس انتظرت عائلة كوسانو على

رصيف محطة قريبة من دارها ، كانت الحكومة قد أصدرت أمرها بهدم صف المحال الواقع على الجانب الآخر من القضبان ، لإفساح المجال لحاجز النار، وكان بالوسع مشاهدة العمل فى الهدم، الذي كان قد بدأ بالفعل تفصيلا، إندلع النشاط عبر هواء مطالع الربيع الصافى بضوضاء صاكة حديثة العهد، وسط الهياكل المهدمة كان من الممكن رؤية الأسقف المكشوفة حديثا، والمؤلفة من الخشب العارى الذى يخطف البصر.

كان الصباح لايزال ملتفا بالبرد. لم تدو منذ أيام عديدة صفارة غارة واحدة. خلال هذه الفترة الانتقالية القصيرة تزايد لمعان الهواء وامتداده خفيفا، إلى حد أنه بدا الآن معرضا لخطر الانهيار. بدا المناخ كوتر سميسن[1]، مشدود بإحكام ، متأهب للتذبذب لدى أول لمسة. ذكرنى بواحدة من لحظات الصمت القليلة تلك الثرية في خوائها ، والتى تتحقق فى اندلاع الموسيقى. حتى شعاع الشمس الباردة الذى سقط على الرصيف المهجور كان يرتعش بشىء يحاكى هاجس الموسيقى.

ثم ظهرت سونوكو مرتدية معطفا أزرق اللون مقبلة على الدرج المقابل مع أختها. أمسكت بيد أختها الصغرى، وهى

---

(١) السميسن: آلة موسيقية يابانية الأوتار تشبه الكمان فى شكلها العام غير أن الصندوق الرنان أصغر حجما ومربع الشكل (هـ.م)

تراقبها بعناية هابطة الدرج درجة فأخرى، بدت الأخت آنذاك فى حوالى الرابعة عشرة من عمرها أو الخامسة عشرة، نافدة الصبر إزاء هذا البطء في الهبوط، لكنها بدلا من أن تسبق أختها أقبلت هابطة الدرج الخاوى فى خط متعرج.

لم يلح عليها أنها لاحظتنى. كان بوسعى أن أراها بجلاء من حيث وقفت، لم يحدث أبداً طوال حياتى أن مس قلبى على هذا النحو مرأى الجمال الذى تجسده امرأة، خفق قلبى، شعرت بالنقاء.

ربما يرفض القارىء الذى تبعنى إلى هذا الحد، أن يصدق أى شىء أقوله، لسوف يراوده الشك فىّ، لأنه لن يبدو أن ثمة خلافا بين حبى المصطنع المهدر لأخت نوكادا وخفق قلبى الذى أتحدث عنه الآن، حيث لن يلوح سبب ظاهر كعدم قيامى فى هذه المناسبة دون غيرها بإخضاع انفعالاتى لذلك التحليل الذى لا يعرف الرحمة، الذى استخدمته فى الحالة الأولى، وإذا أصر القارىء على هذه الشكوك فإن فعل الكتابة يكون قد غدا منذ البداية أمرا لا طائل وراءه، إذ سيظن أنني أقول شيئا ما لأننى أريد قوله على هذا النحو، دون أى اعتبار للحقيقة، وسيكون أى شىء أقوله لا غبار عليه مادام أننى أجعل قصتى متماسكة . ورغم ذلك فإنه جزء بالغ الدقة من ذاكرتى ذلك الذى يزعم أن هناك نقطة خلاف

جوهرية بين الانفعالات التى ساورتنى قبل هذا وبين تلك التى تثيرها فىّ سونوكو الآن. تمثل الخلاف فى أننى الآن يساورنى شعور بالندم.

حينما بلغت سونوكو نهاية الدرج لمحتنى، فابتسمت، كانت وجنتاها الفتيتان متضرجتين إحمرارا بتأثير البرد، أما عيناها ـ كان بؤبؤاها الواسعان السوداوان وأجفانها الوطفاء تخلع عليها مظهر الوسنى ـ فتألقتا كأنما تحاولان الحديث، ثم عهدت بيد أختها الصغرى إلى شقيقتها الثانية، وأقبلت تعدو عبر الرصيف نحوي بحركة رشيقة مثل ارتعاشة النور.

لم يكن ما رأيته مقبلا يعدو نحوى فتاة، لم يكن ذلك التجسيد من اللحم الحى الذى صورته لنفسى عنوة منذ الطفولة، وإنما هو شيء يحاكى رسولا يحمل أنباء الصباح ، ولولا هذه الحقيقة لاستطعت أن ألقاها بآمالى الخادعة ، ولكن لدهشتى أجبرت غريزتى على الاعتراف بسمة مختلفة فى سونوكو وحدها . أفعمنى هذا بشعور عميق بالخجل لعدم جدارتى بسونوكو . مع ذلك لم يكن هذا شعورا بالتدنى العبودى نحوها. فى كل ثانية أمضيتها مراقبا سونوكو هاجمنى حزن لا طاقة لي به. حتى تلك اللحظة كان الشعور الذى أجابه به النساء هو مزيج مفتعل من الفضول الطفولى والرغبة الجنسية الزائفة. لم يترنح قلبى أبدا على

هذا النحو ، وعند النظرة الأولى ، أمام مثل هذا الحزن الغامض العميق، حزن لم يكن فوق ذلك جزءا من قناعى.

كنت أدرك أن هذا الشعور هو شعور بالندم. لكن أترانى اقترفت خطيئة يتعين علىّ الندم عليها؟ رغم ما قد يبدو فى ذلك من تناقض، أترى هناك ضرب من الندم يسبق الخطيئة ؟ أكان ندما على حقيقة وجودى ذاتها؟ هل نادانى مرآها وأيقظ هذا الندم؟ ألا يحتمل أن شعورى لم يكن إلا إحساسا مسبقا بالخطيئة؟..

كانت سونوكو تقف أمامى بالفعل فى رزانة، شرعت فعلا فى الانحناء تحية لى ، لكنها حينما ألفتنى غارقا فى أفكارى بدأت فى الانحناء من جديد بدقة بالغة.

ـ هل أبقيتك منتظرا؟ إن أمى وجدتى.......

استخدمت صيغ التشريف فى الإشارة إلى هاتين العضوتين من أعضاء عائلتها ، فتوقفت عن الحديث ، وتوردت وجنتاها خجلا، على نحو مفاجىء ، حين أدركت إلى أى حد جانب التوفيق كلماتها ، إذ وجهت إلى من لا ينتمى لدائرة العائلة.

ـ طيب ، إنهما لم تستعدا بعد، وستتأخران قليلا، لذا انتظر قليلا..

توقفت مرة أخرى ، ثم فى رقة صوبت حديثها:

ـ لذا إذا سمحت عليك بالانتظار قليلا، فإذا لم تصلا سنمضي إلى محطة القطار ، أي إذا أردت ذلك.

بعد أن أفلحت في أن تغمغم بهذا الخطاب الطويل بلغة رسمية متعثرة ندت عنها تنهيدة ارتياح طويلة.

كانت وافرة البدن ، هيفاء، حتى لتبلغ جبيني، جسمها رشيق، على نحو غير عادي، متناسق الأعضاء ، تتمتع بساقين بديعتين، بدا وجهها البدري الطفولي ، الذي لم تستخدم أية مادة لتجميله، انعكاسا لروح طاهرة لا تعرف التبرج. كانت شفتاها مشققتين قليلا ، وبدتا كذلك أكثر حمرة.

تبادلنا كلمات قلائل مرتبكة، رغم كراهيتي لنفسي في هذا الدور فقد حاولت بكل قوتي أن أظهر مرحا خفيف الروح، لأبدو شابا موفور الذكاء.

توقف عدد كبير من قطارات المدينة إلي جوارنا صافرا، ناضحا الضوضاء، ثم انطلق راحلا، غدا ضغط الركاب الهابطين والصاعدين أثقل فأثقل ، في كل مرة يقبل قطار كان يحال بيننا وبين دفق أشعة الشمس الذي كان يحممنا في دفئه البهيج ، وفي كل مرة يرحل فيها قطار كان الرعب يجتاحني مجددا ، إزاء رهافة شعاع الشمس الذي سمح له بالسقوط مرة أخرى على وجنتي .

اعتبرت أنه من قبيل نذر الشؤم أن تسقط الشمس وارفة الزخم عليّ هكذا، وأن يمتلىء فؤادى بلحظات لا تترك بعدها رغبة تتوق إليها النفس، يقينا ستقع غارة خلال دقائق قليلة أو حادث فاجع بالقدر ذاته يصرعنا حيث نقف. رحت أحدث نفسى قائلا إننا لا نستحق يقينا حتى القليل من السعادة، أو ربما كنا قد اكتسبنا العادة السيئة المتمثلة فى النظر إلى القليل من السعادة بحسبانه جميلا كبيرا سيتعين علينا رده. كان ذلك هو على وجه الدقة الشعور الذى خالجنى من جراء وقوفى وجها لوجه مع سونوكو على هذا النحو. لاحت هي كذلك كما لو كان الإحساس ذاته قد غلبها.

انتظرنا طويلا، لكن أم سونوكو وجدتها لم تصلا، فاستقللنا أخيرا أحد قطارات المدينة، ومضينا إلى محطة «ى».

وسط صخب المحطة حيانا السيد أوهبا ، الذى كان فى طريقه إلى زيارة ابنه بالفوج نفسه الذى التحق به كوسانو. كانت بصحبة هذا المصرفى الكهل - الذى يمقت الزى المدنى الكاكى الذى حظى وقتها بتعاطف رسمى، وتشبث فى عناد بقبعة هومبورج وسترة رجالية قصيرة فضفاضة - ابنته التى كنت وسونوكو على معرفة يسيرة بها . ترى لماذا ابتهجت إزاء كون هذه الفتاة أقل جمالا بكثير من سونوكو؟ ما هو هذا الشعور؟ على الرغم من مرح سونوكو الساذج، الذى تبدى أمام عينى هناك، حيث كانت تعانق

ابنة أوهبا ، وتظهر مودتها الحميمة لها ، أدركت أن سونوكو قد وهبت السماحة المشرقة التى تلازم الجمال، وأن هذا جعلها تبدو أكبر بسنوات عديدة مما هى عليه بالفعل.

حينما ولجنا القطار كان خاويا. اقتعدت وسونوكو، وكأنما مصادفة، مقعدين متقابلين إلى جوار النافذة.

بإضافة الخادم التى تصاحب جماعة أوهبا فإن عددهم يغدو ثلاثة أشخاص أما جماعتنا التى اكتمل جمعها أخيرا فتتألف من ستة أشخاص، وبما أن مجموع الكل تسعة أشخاص فقد كنا جميعا أكبر عددا من أن نشغل فحسب مجموعتين متقابلتين عبر الممر من المقاعد.

قمت بهذا التقدير سريعا حتى دون أن أدرك ما أنا فاعله. ترى أيمكن أن تكون سونوكو قد قامت بالشىء نفسه؟ على أية حال حينما جلسنا بدقة أحدنا أمام الآخر تبادلنا ابتسامات مرحة.

بالنظر إلى عدد جماعتنا المشتركة ، الذى لا يمكن تدبر أمره، وافق الآخرون صامتين حينما شكلت وسونوكو هذه الجزيرة الصغيرة المنفصلة لنفسينا. وكمسألة تتعلق بقواعد الذوق اضطرت أم سونوكو وجدتها للجلوس فى مواجهة أوهبا وابنته. على الفور اختارت أخت سونوكو الصغرى الجلوس بالمقعد المواجه للنافذة،

عبر الممر الذى يمكنها منه أن ترى أمها وتتطلع من النافذة فى وقت واحد، وحذت الأخت الثالثة حذوها ، فتحول مقعدها إلى ملعب مع انضمام خادم آل أوهبا إليهما لرعايتهما. وعزلنى مسند المقعد العتيق مع سونوكو عن الآخرين.

سيطر السيد أوهبا الثرثار على مقاليد الحديث، حتى قبل أن يغادر القطار المحطة. لم تدع ثرثرته النسوية خفيضة الصوت لمستمعيه إلا موافقته فيما يذهب إليه . بل إن الدهشة ألزمت الجدة خفيفة الروح التى تعد الممثل الثرثار لأسرة كوسانو الصمت، وما عاد بوسعها هى والأم إلا أن تقولا : «نعم ، نعم» وأن تنشغلا تماما بمهمة الضحك، أما ابنته فلم تند عنها كلمة واحدة.

سرعان ما بدأ القطار فى التحرك ، حينما ابتعدنا عن المحطة تدفقت أشعة الشمس عبر زجاج النوافذ المتسخ، سقطت على إطار النافذة المنبعج الذى جلست وسونوكو إلى جواره ، وانسكبت على حجرينا. التزم كلانا الصمت، رحنا نصغى إلى ثرثرة السيد أوهبا المتناهية من المقعد المجاور. بين الحين والآخر كانت ابتسامة ترف على شفتى سونوكو، وتدريجيا تسلل إلىّ مرحها، حينما تلتقى أعيننا كانت تصطنع نظرة متألقة، عابثة، منطلقة كمن يصغى إلى الصوت القريب وتتجنب لقاء عينى.

- ... وحينما أموت أعتزم أن يحدث لى ذلك وقد ارتديت

ملابسى على هذا النحو تماما، فالاحتضار فى زى مدنى رسمى وأربطة للساقين سيكون مما لا ينتمى للموت فى شىء. أتراه كذلك؟ ولن أدع ابنتى ترتدى سراويل فضفاضة كذلك . أليس من واجبى كأب أن أهتم بأن تلقى حتفها وهى بمظهر النساء.

ـ نعم ، نعم.

ـ وعلى فكرة ، أخبرونى من فضلكم حينما ترغبون فى إخلاء أمتعتكم من المدينة ، فلابد أنه من العسير على أسرة دون مساعدة رجل أن تقوم بذلك ، أيا كان الأمر أخبرونى من فضلكم.

ـ أنت بالغ اللطف حقا.

ـ استطعنا شراء مخزن فى منتجع «ت»، ونقوم الآن بإرسال أمتعة كل موظفى البنك إلى هناك. وبمقدورى أن أؤكد لكم أن أمتعتكم ستكون آمنة هناك، سيكون مناسبا أى شىء ترغبون فى إرساله. بيانكم أو أى شىء.

ـ هذا لطف منك.

ـ وعلى فكرة ، من حسن الحظ أن قائد وحدة ابنكم فيما يبدو رجل طيب ، سمعت أن قائد وحدة ابنى يحصل على حصة من الطعام المجلوب فى يوم الزيارة، هذه هى النوعية التى يمكن توقعها من أولئك الذين يأتون عبر البحر ، ويقولون إن القائد يعانى

من المغص دائما عقب يوم الزوار.

ـ يا إلهى ، يا إلهى...

مرة أخرى أطلت ابتسامة على شفتى سونوكو، بدت قلقة، أخيرا أخرجت كتابا من الحقيبة التى كانت تحملها، فشعرت بقليل من خيبة الأمل، لكنى أبديت اهتماما بعنوان الكتاب.

تساءلت:

ـ ما الذى تقرأين؟

أرتنى غلاف الكتاب المفتوح مبتسمة ، فيما هى ترفعه كالمروحة أمام وجهى ، كان العنوان «قصة عفريت الماء» وتبعه بين أقواس العنوان الألمانى الأصلى «أوندين».

استطعنا سماع أحدهم ينهض من المقعد خلفنا، كانت أم سونوكو، اعتقدت أنها تحاول الهرب من ثرثرة السيد أوهبا ، بالمضى لتهدئة ابنتها الصغرى ، التى كانت تتقافز وتعبث فوق المقعد المقابل، لكنها كما اتضح كان لها هدف آخر، فقد أقبلت جالبة الطفلة المزعجة وأختها الأكبر منها والمفعمة بالحيوية إلي مقعدنا قائلة:

ـ تعاليا ، من فضلكما دعا هؤلاء الأطفال الأشقياء ينضمون إليكما!

كانت أم سونوكو جميلة ورشيقة. في بعض الأحيان كانت الابتسامة التى تصاحب طريقتها الهادئة في الحديث تثير الاشفاق، علي وجه التقريب. لاحت لى ابتسامتها ، وهى تتحدث هذه المرة ، بلغة الحزن والقلق. تركت الطفلتين تجلسان معا، وعادت إلى مقعدها، فيما اختطفت وسونوكو نظرة متبادلة، أخرجت دفترا صغيرا من جيب سترتى ، وانتزعت ورقة منها ، كتبت عليها بالقلم الرصاص:

«أمك تلتزم الحرص!»

ـ ما هذا؟

قالتها سونوكو ، وهى تهطع برأسها فى خجل، فيما أعطيتها الورقة ، كان لشعرها رائحة شعر طفلة. حينما انتهت من قراءة الكلمات المسطرة على الورقة احمرت خجلا حتى قفاها وخفضت عينيها.

قلت:

ـ أليس هذا صحيحا؟

ـ أوه .. إننى ....

مرة أخرى التقت أعيننا، وفهم أحدنا الآخر، كان بوسعى أن أشعر أن خدىّ يتفجران لهبا كذلك.

مدت الأخت الصغرى يدها قائلة:

ـ أختى ، ما هذا؟

فى لمحة خاطفة أخفت سونوكو الورقة ، كان للأخت الأخرى من النضج ما يكفى لفهم المعنى الكامن وراء ما نفعله ، غضبت وانعكس استياؤها على ملامحها ، كان بوسع المرء أن يحدد ذلك أيضا من الطريقة المبالغ فيها التى شرعت تلوم بها أختها الصغرى.

بدلا من أن تخفض هذه الحادثة معنوياتى ومعنويات سونوكو، جعلت الحديث أكثر يسرا بيننا، تحدثت عن مدرستها، بعض الروايات التى كانت تقرؤها ، عن أخيها، ومن جانبى سرعان ما حملت الحديث إلى موضوعات عامة، متخذا الخطوات الأولى فى فن الإغواء، وفيما واصلنا الحديث معا بمثل هذه الألفة، متجاهلين الأختين الأخريين، عادتا إلى مقاعدهما الأصلية. بدا جليا أنهما ليستا جاسوستين قديرتين، لكن الأم على الفور جعلتهما، وهى تبتسم ابتسامتها القلقة، تعودان مرة أخرى للجلوس معنا.

حينما وصلنا جميعا إلى مدينة «م»، قرب مقر وحدة كوسانو كان وقت الرقاد قد حان تقريبا. خصصت غرفة لى وللسيد أوهبا.

عندما انفردنا بنفسينا شرع السيد أوهبا فى الحديث، منطلقا على سجيته، دون أية محاولة لإخفاء معارضته للمضى قدما في الحرب، كانت مثل هذه الآراء المناهضة للحرب موضع تبادل هامس بين الناس بالفعل، عند لقائهم ، حتى فى ربيع ١٩٤٥، وكنت قد سئمت سماعها. مضى السيد أوهبا يثرثر على نحو لا يطاق بصوته الخفيض، قائلا إن شركات الخزف الكبرى التى كانت له استثمارات بها قد شرعت بالفعل فى الاستعداد للسلام، وإنها قامت بدعوى إصلاح ما أفسدته الحرب بالإعداد لإنتاج ضخم من الأدوات الخزفية للإستعمال المنزلى، وإننا فيما يبدو نتقدم فى الوقت الراهن بعروض لإقرار السلام عن طريق الاتحاد السوفييتى.

أما عنى فقد كان ثمة ما أرغب على نحو حاد فى الانفراد بنفسى للتفكير فيه. أخيرا أطفئت الأنوار ، اختفى فى الظلال وجه السيد أوهبا ، الذى بدا متهدلا بصورة غريبة دون عويناته . ببطء غمرت تنهداته البريئة الفراش مرتين أو ثلاث مرات، عندئذ أفصح تنفسه عن أنه غرق فى النوم . تحسست الغطاء الجديد الذى أحاط بالوسادة، والذى احتك بخدىّ المتوهجين ، وغرقت فى لجة التفكير.

إلى جوار الضيق القابض الذى يتهددنى دائما حينما أنفرد بنفسى، استيقظ فى قلبى أكثر ايلاما ذلك الحزن ، الذى هز دعائم

وجودى هذا الصباح حينما رأيت سونوكو ، صرخ بأن كل كلمة نطقتها وكل فعل أتيته كان زائفا. بعد اكتشافى أن القطع بكون شىء ما زائفا فى كليته أقل إيلاما من تعذيب نفسى بالشكوك ، حول أى جوانبه يمكن أن يكون زائفا وأيها قد يكون حقيقيا، اعتدت تدريجيا هذه الطريقة فى الكشف عمدا عن زيفى أمام نفسى، وحتى حينما رقدت غارقا فى التفكير فإن قلقى العنيد حول ما أسميه بالشرط الأساسى لكون المرء إنسانا إزاء ما أدعوه بالسيكولوجية الإنسانية الإيجابية لم يجترح شيئا ، إلا أن قادنى فى دوائر الاستبطان اللانهائية.

ترى أى شعور ينتابنى لو كنت فتى آخر؟ أى إحساس يخالجنى إذا كنت شخصا عاديا؟ تملكتنى هذه الأسئلة ، عذبتنى ، قضت تماما ، وفى التو ، على القليل من السعادة الذى اعتقدت يقينا أنه فى قبضتى.

رحت أحدث نفسى بأن «سلوكى» انتهى إلى أن أصبح جزءا لا يتجزأ من طبيعتى ، لم يعد سلوكا ، بل إن معرفتى بأننى أتنكر فى إهاب شخص عادى أفسدت ما كان لى أصلا من العادية، بتعبير آخر ، فإنى أتحول إلى تلك النوعية من الأشخاص الذين لا يؤمنون بشىء إلا بالزيف. لكن إذا كان هذا صحيحا فإن شعورى بالرغبة فى النظر إلى اجتذاب سونوكو لى باعتباره زيفا

محضا قد لا يعدو أن يكون قناعا يخفى رغبتى الحقيقية فى الاعتقاد بأننى أحبها بصورة أصيلة، هكذا فإننى ربما أتحول الآن إلى ذلك الضرب من الأشخاص العاجز عن التصرف بما يتعارض وطبيعته الحقة ، وربما كنت أحبها حقا..

أوشكت أخيرا على الإغفاء، ومثل هذه الأفكار تنسج دوائر داخل رأسى، حينما تناهى إلىّ فجأة على أجنحة هواء الليل عويل صوت يتردد منذرا دائما، وإن كان رغم ذلك فاتنا بشكل ما.

ـ أليس هذا صوت إنذار بغارة؟

قالها المصرفى توا، فذهلت لخفة نومه.

أجبت في غموض:

ـ ترى أهو كذلك!

لوقت طويل واصلت صفارات الإنذار عويلها.

بما أن ساعات زيارة الفوج كانت تبدأ فى الصباح الباكر، فقد استيقظنا جميعا فى الساعة السادسة.

كانت سونوكو فى المغسل حينما واجهته . بعدما تبادلنا تحية الصباح قلت:

ـ لقد دوت صفارات الإنذار ليلة أمس . أليس كذلك ؟

قالت بوجه جاد :

ـ كلا.

حينما عدنا إلى غرفنا المجاورة، حيث كان الباب الواصل بينها مفتوحا، قدم ردها على سؤالى مادة طيبة لاختيها لمعابثتها .

قالت الأخت الأصغر مقتدية بأختها الأخرى:

ـ أختى هى الوحيدة التى لم تسمع صفارات الإنذار، يا إلهى، كم هو أمر مضحك!

ـ أما أنا فاستيقظت فورا، وسمعت أختى تصدر شخيرا عاليا.

ـ هذا صحيح فقد سمعتها كذلك، كان شخيرها عاليا للغاية حتى أنى بالكاد استطعت سماع صفارات الإنذار.

تضرجت سونوكو خجلا لوجودى ، فتجهمت قائلة:

ـ هذا هو ما تقولانه . لكنكما لا تستطيعان إثباته ، وإذا أدليتما بمثل هذه الأكاذيب فستندمان فيما بعد.

ليست لى إلا أخت واحدة ، ومنذ الطفولة كنت أتوق إلى أسرة تضج بالحياة، فيها العديد من الشقيقات. رنت هذه المعابثة

الصاخبة الضاحكة بين الأخوات فى أذنى كانعكاسة بالغة الروعة والأصالة لسعادة الدنيا، وأيقظت أيضا عذابى من مهجعه.

كان إنذار ليلة الأمس، وهو الأول من نوعه منذ أوائل مارس، الموضوع الوحيد للحديث خلال الافطار. أحس الجميع بالطمأنينة ، حيث أنه لم تدو إلا إشارة الإنذار ، دون أن تسمع إشارة الهجوم الفعلى على الإطلاق، واستنتجوا أنه لم يقع الكثير، أما عنى فلم يعننى الأمر على وجهيه، حدثت نفسى بأنه حتى إذا احترقت دارى، حتى سويت بالأرض خلال غيابى، وحتى إذا لقى أبى وأمى وأختى جميعهم مصرعهم فسيكون الأمر على ما يرام بالنسبة لى.

فى ذلك الوقت لم يكن هذا تفكيرا خسيسا بشكل خاص، ففى تلك الأيام خبت قدراتنا على التصور، أمام الحقيقة القائلة بأن أكثر الأحداث إثارة للفزع مما يمكن أن نتصوره قد تقع بالفعل فى أية لحظة كأمر عادى.

كان تصور فناء عائلة المرء عن بكرة أبيها أيسر كثيرا من تخيل أمور أصبحت الآن تنتمى إلى ماض بعيد ومستحيل، كصف من زجاجات الخمور المستوردة مثلا فى واجهة متجر جينزا، أو مشهد أضواء النيون تتوهج فى سماء الليل فوق هذا المتجر،

وكنتيجة لهذا اقتصر تصورنا على الدروب الأكثر سهولة، وتصور كهذا يتبع درب المقاومة الأدنى لا علاقة له بتحجر القلب. أيا كانت القسوة التى يبدو بها، فهو لا يعدو أن يكون نتاجا لذهن فاتر كسول.

فى مقابل الدور المأساوى الذى تقمصته خلال الليل، أردت بمجرد مغادرتنا للفندق صباح اليوم التالى القيام بدور الفارس المرح وحمل حقيبة سونوكو، كان ذلك أيضا مقصودا ، بهدف إحداث تأثير بمرأى من الجميع. حدثت نفسى بأننى إذا أصررت على حمل حقيبتها فمن المؤكد أنها ستعترض، بدافع من شعورها الطبيعى بالتحفظ تجاهى، لكن أمها وجدّتها ستعتقدان أن وشائج العاطفة تربطنا بالفعل ، وستفسران ترددها باعتباره خوفا مما ستظلنانه، وكنتيجة لذلك فإن سونوكو نفسها ستستدرج بدورها إلى الإدراك الواضح لشعور بالحميمية تجاهى، يكفى لجعلها تخاف أمها وجدتها.

كللت حيلتى الصغيرة بالنجاح ، مكثت سونوكو إلى جوارى كأنما أتاح تركها حقيبتها لدىّ فرصة معقولة أمامها للقيام بذلك على الرغم من أن ابنة أوهبا كانت صديقة فى مثل عمرها ، فإنها لم تبد اهتماما بها، وراحت تتجانب أطراف الحديث معى وحدى، بين الفينة والأخرى استرقت النظر إليها ، وقد تملكنى شعور

غريب. كان صوتها من العذوبة والصفاء بحيث جعلنى أشعر بالحزن بشكل ما، حملته معها متكسرا رياح مطالع الربيع المثقلة بالغبار، التى كانت تهب فى وجوهنا مباشرة.

رفعت كتفى وأنزلته مختبرا ثقل الحقيبة. لم يكن ثقلها يبرر الشعور الذى تنامى غائرا فى قلبى ، كأنه الشعور الذى يثقل الضمير المذنب لهارب من وجه العدالة.

عندما بلغنا مشارف البلدة شرعت جدة سونوكو فى التذمر، من طول المسافة ، فعاد المصرفى أدراجه إلى المحطة حيث لابد أنه قد لجأ إلى حيلة بارعة ليستأجر سيارتين ، وكانت السيارات نادرة فى تلك الأيام ـ عاد بهما على الفور.

ـ إيه .. مّر وقت طويل منذ التقائنا لآخر مرة.

صافحت كوسانو ، ففزعت كأنما أمسكت بقوقعة سرطان بحرى خشنة.

ـ يدك ، ماذا دهاها؟

ضحك كوسانو قائلا:

ـ لقد دهشت .. أليس كذلك؟

كان جسمه قد اكتسب بالفعل ذلك الهزال البائس الذى يعد

السمة المميزة للمجند حديثا، مد يديه لأراهما، وقد وضعهما جنبا إلى جنب، كانتا مشققتين على نحو سيىء ، وعلاهما قذر متجمد، ولصق الزيت بتشققاتهما وخدوشهما وقروحهما، حتى غدتا تحاكيان حقا قوقعة سرطان بحرى. كانتا أيضا رطبتين وباردتين.

أفزعتنى يداه، على نحو ما كان الواقع يفزعنى. شعرت برعب غريزى من هاتين اليدين . كان ما أرهبه حقا هو شىء بداخلى، كشفت هاتان اليدان الضاريتان النقاب عنه ، شىء كانت تتهمانى وتدينانى من أجله. كان خوفا من ألا أستطيع أن أخفى عنهما شيئا، وأن الخداع بأسره سيكون بلا جدوى أمامهما. فى التو اكتسبت سونوكو معنى جديدا بالنسبة لى: كانت الدرع الوحيد ، الزرد الوحيد الذى يقى ضميرى المتهافت فى نضاله ضد هاتين اليدين.

حدثت نفسى بأننى «يجب» أن أحبها ، سواء أكان هذا صوابا أم خطأ، وسواء سلكت لذلك سبلا مستقيمة أم معوجة. أصبح هذا الشعور التزاما أخلاقيا ، بالنسبة لى ، يقبع فى أغوار قلبى أكثر وقرا حتى من شعورى بالخطيئة.

ببراءة ، ودون أن يدرى شيئا من هذا ، قال كوسانو :

ـ لا تحتاج إلى ليف للاستحمام حينما تكون لك يدان

كهاتين تستخدمهما.

ندت تنهيدة قصيرة عن شفتي الأم. لم أستطع في وقفتي مقاومة الشعور بأني ضيف لا يستحي، لم توجه له الدعوة، تصادف أن رمقتني سونوكو في هذه اللحظة، فنكست رأسي، راودني شعور عبثي، كما لو كان عليّ أن أطلب منها الغفران لأمر آتيته.

قال كوسانو وهو يدفع أمه وجدته أمامه في غمار حرجه : دعونا نخرج!

كانت كل عائلة قد جلست متحلقة على النجيل الزاوي لفناء الثكنات الكابي، داعية الطالب الذي تربطها به صلة القرابة إلى وليمة. ويؤسفني أن أقول إنه حيثما نظرت ما كان بوسعي أن أجد جمالا في هذا المشهد.

سرعان ما صنعنا حلقتنا بدورنا، واقتعد كوسانو وسطها متربعا.. أقبل في نهم على بعض الحلوى غربية الطراز، راح يدسها في فمه، ما كان بمقدوره إلا أن يومىء بمقلتيه فحسب حينما أراد أن يجذب انتباهي إلى صفحة السماء باتجاه طوكيو. من المنطقة المرتفعة حيث أمكنني أن أحدق عبر الحقول الزاوية إلى الحوض الذي امتدت فيه مدينة «م».، وخلفها استطعت أن أرى بين

هوة شكلها التقاء آماد جيلين منخفضين ما قال كوسانو إنه السماء فوق طوكيو. كانت سحب الربيع الباكر الباردة تنشر أشكالها فوق تلك المنطقة النائية.

- ليلة أمس كانت السماء متوهجة الحمرة هناك. كانت شيئا رهيبا، لا يمكن أن تخمنوا ما إذا كانت داركم لازالت قائمة أم لا، أبدا لم تقع غارة من قبل جعلت السماء كلها تحمر على هذا النحو..

بشجاعة قالت الجدة:

- أوافقك على ما تقول، سنعزل فى التو. أعدك بهذا.

ومن زنارها العتيق انتزعت دفترا صغيرا وقلما فضيا، لا يتجاوز طوله خلال الأسنان، وشرعت فى كتابة شىء ما بمشقة.

عمت الكآبة القطار فى رحلة العودة، بل إن السيد أوهبا، الذى التقيناه وفقا لموعدنا بالمحطة، بدا شخصا مختلفا، وأمسك عليه لسانه، بدا الجميع وكأنما سقطوا أسرى فى قبضة الشعور المعروف باسم «حب المرء لحمه ودمه». بدا الأمر كما لو أن العواطف التى يكنها المرء فى أعماقه قد طفت على السطح، وراحت تخزه بفجاجة على نحو مؤلم. كانوا قد التقوا أبناءهم، إخوتهم، أحفادهم، وأظهروا قلوبهم مجردة من غلائلها، كان هذا

هو كل ما عليهم إظهاره، أما الآن فربما أدركوا فوق ذلك أن الأمر كله لا يعدو أن يكون سكبا عبثيا للدماء قام كل منهم به أمام الآخر. أما أنا فقد كانت لاتزال تطاردني رؤية هاتين اليدين المثيرتين للإشفاق ، كان الغسق قد حل على وجه التقريب، الوقت الذي تضاء فيه المصابيح حينما يلج قطارنا المحطة في ضوء في طوكيو، حيث كان علينا أن نستقل القطار الداخلي.

هنا للمرة الأولى وقفنا وجها لوجه مع الدليل الإيجابي على الدمار الذي أوقعته غارة ليلة الأمس. كان الممر فوق خط السكة الحديدية محتشدا بضحايا الغارة. لفتهم الأغطية، حتى ما كان المرء ليرى منهم إلا أعينهم، أو إذا شئنا الدقة في التعبير محاجرهم، فقد كانت تلك أعين لاترى شيئا ، ولا تفكر بشيء. ثمة أم بدت وكأنها تعتزم أن تهدهد الطفل في حجرها إلى الأبد ، دون أن تغير ولو بمقدار شعرة القوس الذي تؤرجح فيه بدنها جيئة وذهابا، هناك فتاة وسنى، منحنية على قطعة من أثاث خيزراني ، ولاتزال زهور صناعية محترقة مثبتة في شعرها.

فيما مضينا عبر الممر لم نتلق حتى نظرة لوم . كنا موضع تجاهل. محت وجودنا ذاته حقيقة أننا لم نشاركهم بؤسهم ، فبالنسبة لهم لم نكن إلا ظلالا.

على الرغم من هذا المنظر توهج شيء ما بداخلي، شد من أزري، وعضدني استعراض البؤس الذي مرّ أمام ناظري. عايشت الاستثارة ذاتها التي تحدثها الثورة. في غمار اللهب شاهد هؤلاء البؤساء دمار جميع الأدلة على وجودهم كبشر، وبأعينهم رأوا العلاقات الإنسانية ، ضروب الحب والبغض، العقل والملكية جميعا يعمها اللهب، في الوقت نفسه لم تكن ألسنة اللهيب هي ما حاربوه، وإنما العلاقات الإنسانية، حاربوا ضروب الحب والبغض، حاربوا العقل والملكية. في ذلك الوقت ، شأن طاقم سفينة غارقة، وجدوا أنفسهم في موقف يسمح فيه بقتل شخص لكي يحيا آخر، فالرجل الذي لقي حتفه في غمار محاولته إنقاذ حبيبته لم يقتله اللهب، وإنما اغتالته حبيبته، ولم يكن ثمة إلا الوليد هو الذي اغتال أمه، فيما كانت تحاول إنقاذه، وربما كان الشرط الذي واجهوه، وحاربوا ضده هناك ـ شرط الحياة بالحياة ـ هو أكثر الشروط التي واجهتها الإنسانية شمولا وبديهية.

رأيت في وجوههم آثار ذلك الإعياء الذي ينبع من مشاهدة مأساة مدوية ، إنسكب في أعماقي نوع من الشعور الحار بالثقة في النفس، ورغم أنه لم يدم إلا ثوان قلائل، فقد أحسست أن كل شكوكي التي دارت حول المتطلب الأساسي للرجولة، قد جرى كلية اكتساحها بعيدا. امتلأت نفسي بالرغبة في الصراخ، ربما لو أنني

كنت أكثر ثراء فى القدرة على فهم الذات، لو أنى أوتيت قدرا أكبر قليلا من الحكمة، إذن لمضيت إلى فحص وثيق لذلك المتطلب، ولاستطعت أخيرا فهم المعنى الحقيقى لنفسى كإنسان، بدلا من ذلك، ويا للسخرية ، جعلنى دفء نوع من الخيال الجامح ألفّ ذراعى حول خصر سونوكو، للمرة الأولى . ربما كان هذا السلوك وروح الأخوة والحماية التى دفعتنى إليه قد أوضحت لى بالفعل أن ما يسمى بالحب لا معنى له بالنسبة لى، وإذا كان الأمر كذلك فإن استبصارا مفاجئا للحقيقة هو ذاك الذى نسى سريعا مثلما أقبل.

سرنا، وذراعى لايزال حول خصرها، أمام الآخرين ، عبرنا الممر الكئيب مسرعين، ولم تنبس بكلمة.

استقللنا قطار المدينة، بدت أنواره زاهية على نحو غريب. كان بوسعى أن أرى سونوكو تحدق فىّ، بشكل ما بدت عيناها، رغم سوادهما ورقتهما، وكأنهما تبتهلان فى نزق.

حينما بلغنا قلب المدينة كان تسعون بالمائة من الركاب من ضحايا الغارة، سادت الآن رائحة النار، على نحو أشد وضوحا. علت أصواتهم ، تلونت بالتفاخر، وكل منهم يقص على الآخر الأخطار التى خاض غمارها، كانوا تجمعا غوغائيا، متمردا، بالمعنى الحق للكلمة ، تجمعا يكن سخطا متوهجا ، استياء

متدفقا ، منتصرا، شامخ الروح.

بلغنا محطة «س»، حيث كان عليّ أن أترك الآخرين ، أعدت إلى سونوكو حقيبتها وترجلت، فيما كنت أسير على امتداد الشوارع الغارقة فى الظلام نحو دارى، ذكرت مرارا وتكرارا بأن يدىّ ما عادتا تحملان حقيبتها. أدركت أخيرا أهمية الدور الذى قامت به الحقيبة في علاقتنا. كانت قد مثلت دور عمل صغير شاق، وبالنسبة لى كان وقر مثل هذا العمل أمرا تمس الحاجة إليه دائما، للحيلولة دون أن يرفع ضميرى رأسه عاليا بأكثر مما ينبغى.

حينما بلغت الدار حيتنى العائلة، وكأن شيئا لم يقع، ففى النهاية كانت طوكيو تغطى مساحة شاسعة ، حتى أن مثل هذه الغارة التى وقعت ليلة أمس لم تكن قادرة على التأثير عليها كلها.

زرت دار كوسانو بعد أيام قلائل مصطحبا بعض الكتب، التى وعدت سونوكو بإعارتها لها . ولن تكون هناك حاجة لذكر عناوين هذه الكتب حينما أقول إنها كانت من ذلك النوع من الروايات، التى يمكن لشاب فى العشرين أن يختارها لفتاة فى الثامنة عشرة. شعرت ببهجة غير مألوفة فى القيام بأمر تقليدى، تصادف أن سونوكو لم تكن بالدار، لكنها كانت على وشك العودة ، فانتظرتها فى غرفة الاستقبال .

فيما كنت أنتظر، حفلت السماء بالسحب، هطل المطر، ويبدو أنه طاردها فيما كانت فى طريقها للدار، فحينما هلت على غرفة الاستقبال الكابية كانت قطرات منه لاتزال تلتمع فى شعرها هنا وهناك . هزت كتفيها، جلست غارقة فى الظلال، عند أحد طرفى الأريكة الوثيرة. مرة أخرى اتسعت الابتسامة على شفتيها، كانت ترتدى سترة قرمزية، بدت استدارة نهديها، وكأنها تتقافز خارجة منها فى العتمة الواهنة.

ما كان أشد حيائنا فى الحديث ، وما أندر كلماتنا! كانت تلك هى الفرصة الأولى التى أتيحت لنا على الإطلاق للانفراد بأنفسنا، بدا من الجلى أن الطريقة المنطلقة التى تحدث بها أحدنا للآخر ، فى رحلة القطار القصيرة تلك ، كانت راجعة بالأساس إلى وجود الثرثار خلفنا والأختين معنا. أما اليوم فلم تبق ذرة من تلك الجرأة ، التى دفعتنى قبل أيام قلائل إلى تسليمها خطابا عاطفيا من سطر واحد ، كتب على ورقة مجعدة.

غلبنى أكثر من أى وقت آخر شعور بالوضاعة، كنت شخصا لا يستطيع مقاومة التحول للجدية حينما يترك على سجيته، لكنى لم أخف من حدوث هذا أمامها. ترى هل نسيت دورى؟ هل نسيت أننى عقدت العزم على الوقوع تماما فى حبها مثل أى شخص آخر؟ أيا كان الأمر لم يراودنى أدنى شعور بأننى

أحب هذه الفتاة البديعة، مع ذلك فقد كنت أحس بالارتياح معها.

أقلعت السماء، أشرقت الشمس الغاربة، فأضاءت الحجرة، تألقت عينا سونوكو وشفتاها ، أصابني جمالها بالاكتئاب، جعلني أتذكر شعوري بالعجز، وجعل هذا الشعور سونوكو تبدو شيئا سريع الزوال.

غمغمت قائلا:

ـ أمامنا ، فمن يدرى كم يطول عمرنا؟ افترضي أن غارة وقعت الآن. ربما تهوى قنبلة علينا مباشرة.

ـ ألن يكون ذلك رائعا!

كانت جادة في حديثها ، راحت تعبث بثنايا تنورتها ذات المربعات الاسكتلندية، تطويها جيئة وذهابا، لكنها حين قالت هذا رفعت وجهها مس النور تألق الشحوب على وجنتيها ، قالت:

ـ أوه ، لو أن طائرة تقبل في صمت وتوجه ضربة مباشرة إلينا ونحن هنا على هذا النحو، ألا تظن ذلك؟

لم تكن تدرك أنها بهذا تدلي باعتراف بالحب.

ـ إحم .. بلى ، سيكون ذلك جميلا.

رددت بلهجة من يساير حديثا. ولا يحتمل أن تكون سونوكو

قد استطاعت أن تدرك مدى التجذر العميق لردى فى جذور رغبتى السرية، إنه حوار لا يمكن أن يدور فى وقت السلم إلا بين شخصين يربطهما حب عميق.

قلت متخذا نغمة رواقية في الحديث ، لأخفى شعورى بالحرج.

ـ حقا لقد ضقت ذرعا بالموت وبالفراق الذى يدوم طول العمر ، ألا تشعرين أحيانا بأن الافتراق فى أوقات كهذه أمر عادى وأن اللقاء معجزة .. وأن كوننا قادرين على أن نلتقى ونتحدث لبعض الوقت هكذا هو أمر يرقى، حينما تفكرين فيه ، إلى مرتبة اجتراح المعجزة؟

ـ نعم ، أنا كذلك...

شرعت فى الحديث ببعض التردد ، ثم مضت قائلة بصفاء عذب ملهوف:

ـ ولكن الآن ، وفيما كنت أعتقد أننا قد بدأنا نلتقى بالفعل، فإننا في طريقنا إلى الافتراق، فجدتي على عجلة من أمرها ، فيما يتعلق بالرحيل، وما أن رجعنا إلى الدار فى ذلك اليوم حتى أرسلت برقية إلى خالتى فى قرية «ن»، بمقاطعة «ن». تطلب منها العثور على دار لنا، وصباح اليوم اتصلت بنا خالتى هاتفيا، وقالت إنه

ليست هناك دور متاحة على الإطلاق، أيا كان مدى بحث المرء، لذا دعتنا إلى الإقامة فى دارها، وقالت إنها ستكون سعيدة باستقبالنا، لأننا سنجعل دارها أكثر حياة، وقد حزمت جدتى رأيها فى الحال ، وقالت إننا سنذهب هناك فى غضون يومين أو ثلاثة أيام.

لم أستطع طرح رد عابر. كان الألم الذى شعرت به فى قلبى نافذا للغاية، حتى أنه أثار دهشتى. كان الشعور بالارتياح الذى راودنى حيال سونوكو قد أثار فىّ وهما ، اقتناعا بأن أيامنا ستقضى فى لقاء ، وأن كل شيء سيبقى على نحو ما هو عليه الآن وبتعبير أكثر عمقا كان وهما مزدوجا، أعلنت الكلمات التى أصدرت بها حكم الفراق علينا عبث لقائنا الحالى ، كشفت النقاب عن أن شعورى الراهن لم يكن إلا سعادة عابرة، وفى الوقت الذى قضت فيه على التوهم الصبيانى حول الاعتقاد بأن ذلك سيدوم للأبد ، فقد فتحت عينى على الحقيقة القائلة بأنه حتى ولو لم يكن ثمة فراق فإنه ما من علاقة بين فتى وفتاة يمكن أن تظل على نحو ما كنت تماما.

كانت يقظة مؤلمة، ترى لماذا ترتبك الأمور على نحو ما هى الآن؟ مرة أخرى تراكضت الأسئلة. التى طرحتها على نفسى مرات لا حصر لها منذ طفولتى ، متصاعدة نحو شفتى، لماذا يلقى على

كاهلنا جميعا واجب القضاء على كل شيء ، تغيير كل شيء ، جعل كل شيء زائلا؟ أهذا الواجب الكئيب هو ما يدعوه العالم بالحياة؟ أم ترانى وحدى الذى تبدو له هذه المهمة واجبا؟ لم يكن هناك على الأقل شك فى أننى وحدى فى النظر إلى الواجب باعتباره وقرا ثقيلا.

تحدثت أخيرا:

ـ هكذا فأنتم راحلون .. ولكن طبعا حتى إذا كنت هنا فإننى سأضطر إلى المضى بعيدا فى خلال فترة قصيرة..

ـ إلى أين تمضى؟

ـ لقد قرروا إرسالنا للإقامة والعمل فى مصنع ما مرة أخرى، اعتبارا من هذا الشهر أو خلال أبريل.

ـ لكن مصنع .. سيكون ذلك خطرا ، مع وجود الغارات وكل هذا.

رددت فى يأس:

ـ نعم سيكون خطرا.

سارعت بالرحيل ما وسعنى ذلك.......

طوال اليوم التالى لفنى مزاج منبسط، ولده الظن بأنى

أغنى بصوت عال ، منحيا موجز القوانين المثير للغثيان بعيدا.

دامت هذه الحالة المزاجية المتفائلة الغريبة طوال اليوم . فجأة أيقظنى دوى صفارات الإنذار المتردد بعيدا، وعلى نطاق واسع ، فى منتصف الليل، هرع أهل الدار إلى الملجأ متكدرين ، لكن الطائرات لم تظهر، وسرعان ما دوت صفارة الأمان، كنت آخر من غادر الملجأ، إذ غفوت هناك، صعدت وخوذتى ومزادتى تتدليان على كاهلى.

كان شتاء عام ١٩٤٥ ثقيل الوطأة، ورغم أن الربيع قد أطل بالفعل، مقبلا بخطوات مختلسة كالفهد ، فقد صمت الشتاء كأنه قفص حديدى حوله، يسد عليه الطريق بعناد كئيب.

من خلال أوراق شجرة دائمة الخضرة لمحت عيناى اليقظتان نجوما عديدة ، بدت متناثرة فى دفء . اختلط هواء الليل الحاد بأنفاسى ، فجأة غلبتنى فكرة أننى أحب سونوكو، وأن عالما لا أحيا فيه معها لا يعادل شروى نقير بالنسبة لى، حدثنى شىء ما فى أعماقى بأنه إذا كان بمقدورى نسيانها فمن الخير لى أن أقوم بذلك على الفور ، وكأنما كان جاثما يتربص، غمرنى مجددا ذلك الحزن الذى قوض أسس وجودى ، على نحو ما حدث فى ذلك اليوم الذى شاهدت فيه سونوكو تقبل هابطة الدرج نحو رصيف المحطة .

كان حزنا لا يطاق، فلطمت الأرض بقدمي.

ورغم ذلك صمدت يوما آخر.

ثم لم أطق صبرا، فذهبت لرؤية سونوكو، كان القائمون بحزم الأغراض عاكفين على عملهم خارج باب الدار مباشرة، هناك على الحصباء كانوا يلفون حبالا، جدلت من القش، حول شيء يشبه خزانة مستطيلة غلفت بحصيرة من القش كذلك، أفعمني المشهد بالقلق.

أقبلت الجدة لملاقاتي في الدهليز. استطعت أن ألمح خلفها أكواما من الأغراض، التي حزمت بالفعل ، وكانت بانتظار نقلها ، كان المدخل مليئا ببقايا القش، وحينما لاحظت التعبير الذي شابه ارتباك خفيف على ملامح الجدة قررت مغادرة الدار في الحال، دون مقابلة سونوكو.

مثل فتى أرسلته مكتبة لتسليم بعض الكتب، مددت يدي بالروايات الخفيفة العديدة التي أحضرتها ، قائلا:

ـ أرجو إعطاء هذه الكتب للآنسة سونوكو.

قالت الجدة دون أن يند عنها ما يشير إلى اعتزامها مناداة سونوكو:

ـ شكرا جزيلا لكل ما فعلته ، لقد قررنا الرحيل إلى قرية

«ن» مساء غد، وتم إعداد كل شيء بقليل من العناء ، وهكذا فإن بمقدورنا الرحيل قبل الوقت الذى حددناه، وقد استأجر السيد «ت». هذه الدار لاستخدامها كمهجع لموظفيه . حقا إن الوداع لأمر محزن، وقد سعد الأطفال جميعا بمعرفتك، فأرجو أن تزورنا فى قرية «ن». كذلك، لسوف نكتب لك حينما نستقر هناك. فتعال لزيارتنا!

كان سماع أسلوب الجدة الدقيق الودود فى الحديث أمرا سارا ، لكن كلماتها ما كانت ـ مثل طاقم أسنانها ، بالغ الدقة فى التصميم ـ تتجاوز صفا من مادة غير عضوية.

قلت دون أن أتمكن من إرغام نفسى على نطق اسم سونوكو:

ـ آمل أن تكونوا جميعا فى خير حال.

عندئذ ظهرت سونوكو فى القاعة عند نهاية الدرج ، وكأنما استحضرها ترددى، كانت تحمل فى إحدى يديها صندوقا كبيرا للقبعات من الورق المقوى، وكتبا عديدة فى اليد الأخرى، توهج شعرها فى النور، الذى كان يلج القاعة من نافذة مرتفعة. حينما رأتنى صاحت على نحو فاجأ الجدة:

ـ إنتظر لحظة من فضلك!

عادت مرتقية الدرج سريعا، وصوت خطواتها يدوى صاخبا. أبهجنى مرأى دهشة الجدة ، حيث جعلنى أدرك مدى عمق حب سونوكو لى. اعتذرت السيدة العجوز، قائلة إن البيت بأسره فى حالة من الفوضى ، وإنه ليست هناك غرفة صالحة لاستقبالى فيها. ثم انصرفت فى انشغال ، فاحتجبت بالداخل.

سرعان ما هلت سونوكو هابطة الدرج ، وضعت قدميها فى نعليها صامتة، فيما وقفت متحجرا فى أحد أركان الدهليز ، ثم وقفت وقالت إنها ستصحبنى حتى المحطة ، ثمة شىء حركنى فى طبقة صوتها العالية بصورة آمرة، على الرغم من أننى واصلت التحديق فيها مديرا القبعة التى تشكل جزءا من الرداء الرسمى الذى ألبسه بين يدى مرارا وتكرارا بإيماءة ساذجة، إلا أنه فى أعماق فؤادى كان ثمة شعور بأن كل شىء يبدو كما لو كان قد تجمد فجأة ، خرجنا من الباب جنبا إلى جنب، سرنا فى صمت عبر الممر الحصبائى نحو البوابة.

فجأة توقفت سونوكو لتعيد إحكام رباط حذائها، بدت وكأنها تستغرق وقتا طويلا، على نحو غريب فى هذا، لذا سرت نحو البوابة ، وانتظرت هناك محدقا فى الشارع. لم أدرك أنها كانت تريدنى أن أسبقها قليلا، واستخدمت هذا الأسلوب الفائق

النابع من ذهن فتاة فى الثامنة عشرة لتحقيق هذا الهدف.

على حين غرة ، جذبت يدها من خلفى جذبا رقيقا كم ردائى الرسمى ، شعرت بصدمة ، كما لو أن عربة أصابتى خلال سيرى شارد الذهن.

ـ من فضلك ... هذا ....

مس راحتى ركن مظروف صلب ، أجنبى الطراز. سارعت بإطباق يدى عليه ، حتى أنى أوشكت على سحقه تماما كما قد يخنق المرء عصفورا وليدا. بشكل ما لم أستطع تصديق حواسى ، لدى شعورى بثقل المظروف فى يدى. لكنه كان هناك ، مظروف من النوع الذى تؤثره الطالبات ، تحكم قبضتى الإمساك به . أغمضت عينى، كما لو كان المظروف شيئا ينبغى ألا تقع عليه عينا المرء..

همست بصوت خافت ومختنق معا، كأنما تشعر بوخز ما:

ـ ليس الآن ... إقرأه بعد ما تعود للدار.

تساءلت:

ـ إلى أين أرسل الرد؟

ـ لقد كتبت العنوان ، إنه بالداخل، على قرية «ن»، أكتب لى على هناك.

من الطريف أن الفراق أصبح فجأة شيئا بهيجا بالنسبة لى، كان يحاكى ذلك السرور الذى يشعر به المرء فى تلك اللحظة من لعبة «الاستغماية» حينما تشرع الضحية فى العدو، ويعدو الجميع لكى يختفوا، كل منهم فى الاتجاه الذى يروقه. كانت لدى قدرة غريبة على الاستمتاع بكل شىء على هذا النحو، وبسبب هذه الموهبة المرتكسة كان جبنى غالبا ما يساء فهمه ـ حتى من وجهة نظرى ـ ويفسر على أنه شجاعة.

افترقنا عند بوابة حجز البطاقات بالمحطة، حتى دون أن نتصافح.

شعرت بنشوة، لاستلامى الخطاب العاطفى الأول فى حياتى. لم أستطع الانتظار حتى وصولى إلى الدار لمطالعته، فتحت المظروف هناك فى القطار ، رغم كل العيون المحدقة. فيما كنت أقوم بذلك تناثرت المحتويات جميعها، كان ثمة العديد من البطاقات المظللة، وحزمة من البطاقات البريدية المستوردة، تلك التى يبدو أنها مصدر ابتهاج لطالبات مدارس الإرساليات ، وقد زينت برسم والت ديزنى لهود الأحمر والذئب. وتحت الرسم كتبت رسالتها القصيرة بحروف رشيقة عكست الجهد الذى بذل فى إبداعها :

«غمرنى العرفان حقا لرقتك فى إعارتى الكتب، فشكرا لك،

وقد تمكنت من قراءتها بإهتمام بالغ العمق، وإنى لأرجو من كل قلبى أنك ستكون على مايرام ، حتى خلال الغارات، حينما أصل إلى مقصدى، وأستقر، سأكتب لك مجددا، وعنوانى هناك مكتوب أسفل هذا الخطاب، والمرفقات هى أشياء متواضعة، لكنى أرجوك أن تقبلها إشعارا بعرفانى......».

يا له من خطاب غرامى بديع! لقد اخترق فقاعة نشوتى، عمنى شحوب يحاكى شحوب الموتى، انفجرت ضاحكا. ساءلت نفسى: ترى من سيرد على خطاب كهذا. سيكون ذلك أمرا سخيفا تماما كقبول خطاب شكر مطبوع.

غير أننى ، منذ البداية شعرت بالرغبة فى أن أرسل ردا، والآن خلال الدقائق الثلاثين أو الأربعين التى بقيت على وصولى إلى الدار تصاعدت هذه الرغبة تدريجيا، وهبت للدفاع عن «حالة النشوة» الأولى التى مرت بى. حدثت نفسى، على الفور، بأن التدريب الذى تلقته فى الدار ليس من النوع الذى يكسبها الكفاءة فى كتابة الخطابات العاطفية، لأنه من الطبيعى أن تغل يدها جميع ضروب الشكوك والتردد والخجل ، حينما تكتب خطابها العاطفى الأول لفتى، ولأن كل حركة قامت بها هذا الأصيل كشفت الستار عن رواية أكثر صدقا من أية كلمة فى هذا الخطاب الخاوى.

عند وصولي إلى الدار استولى عليّ الغضب من مصدر آخر . من جديد صببت جام هذا الغضب على موجز القوانين، فضربت به عرض حائط حجرتي. رحت أكيل اللوم لنفسي، أي كسول أنت، حينما تقف وجها لوجه أمام فتاة الثامنة عشرة تنتظر في اشتهاء حتى تقع في حبك. لماذا لم تكن أنت البادىء بالمبادرة؟ إعلم أنك تتردد بسبب قلقك الغريب ذاك الذي ينبع من حيث لا تدرى ، ولكن إذا كان الأمر كذلك فلماذا إذن زرتها مرة أخرى؟ أمعن التفكير! حينما كنت في الرابعة عشرة من عمرك كنت فتى كسائر الفتيان. وحتى في السادسة عشرة كنت تسير معهم قدما، على وجه العموم، ولكن ماذا عن الوقت الحاضر وأنت في العشرين، قال صديقك ذاك إنك ستلقى حتفك في سن التاسعة عشرة، لكن نبوءته لم تتحقق ، عندئذ فقدت حتى رغبتك في الموت بالميدان، الآن وأنت في العشرين تفقد صوابك في غمار حب صبياني لفتاة في الثامنة عشرة من عمرها ، لا تعرف شيئا على الإطلاق . أوف! أي تقدم هذا الذي أحرزت! في العشرين تعتزم تبادل الخطابات العاطفية للمرة الأولى. أتراك لم تخطىء في عد سنوات عمرك؟ أليس صحيحا كذلك أنك لم تقبل فتاة بعد؟ أي نوع يثير الأسى من الكائنات أنت!

عندئذ سخر مني صوت آخر مختلف، خفي ، وملحاح. كان

هذا الصوت مفعما بما يوشك أن يكون إخلاصا محموما، وهو شعور إنسانى ، لم يسبق أن عايشته أبدا. أمطرنى بوابل من الأسئلة فى تتابع سريع" أهو حب ذلك الذى تستشعره؟ إذا كان كذلك، فليكن! ولكن أتشعر برغبة فى النساء؟ ألست تخدع نفسك حينما تقول إنك لم تشعر أبدا نحوها وحدها «رغبة شهوانية»؟ ألست تحاول أن تخفى عن نفسك حقيقة أنك لم تشعر أبدا بأية «رغبة شهوانية» نحو أية امرأة؟ أى حق لك بحق الجحيم فى استخدام كلمة «شهوانية»؟ هل حدث أبدا أن ساورتك أدنى رغبة فى أن ترى امرأة عارية؟ هل تخيلت سونوكو عارية مرة واحدة؟ من المحقق أنك بموهبتك الخاصة فى القيام بالقياسات المنطقية قد خمنت شيئا بالغ الوضوح، من قبيل الحقيقة القائلة بأن الفتى فى عمرك لا يمكنه أبدا أن يحدق فى فتاة شابة دون أن يتخيل كيف تبدو وهى عارية، سل نفسك بإخلاص لماذا أحدثك بهذا! إمض قدما واستخدم قياساتك المنطقية، سيتعين عليك أن تغير إحدى التفصيلات الصغيرة فحسب لتفهم ما يشعر به الفتية الآخرون. ألم تنغمس ليلة أمس فحسب فى عادتك الصغيرة قبل أن تخلد للنوم؟ سمها شيئا من قبيل الصلاة إذا أردت. قل إنها لاتعدو أن تكون طقسا وقتيا يؤديه الجميع ، ليكن! فحتى البديل ليس بالشىء

المقبض حينما تعتاده ، وخاصة عندما تجد أنه جرعة منومة فعالة بصورة فورية ، ولكن تذكر أن صـورة سـونوكو لم تكن هى التى ثـارت فـى ذهنك ليلة أمس، وأيا كان تصورك فقد كان غريبا وغير طبيعى بما يكفى حتى لإدهاشى ، أنا الذى اعتدت مراقبتك ، قابعا إلى جوارك.

خلال النهار تجوب الشوارع ، ولا ترى إلا البحارة والجنود، إنهم يمثلون الشباب بالنسبة لك، العمر الذى تؤثره على وجه الدقة ، لوحت الشمس بشرتهم جيدا، شفاه وحشية ، وما من أثر لإعمال الذهن يعلق بهم. حينما ترى أحدهم تقيسه بعينيك، يبدو أنك تعتزم أن تغدو حرفيا ، من نوعية صناع الثياب ، حينما تتخرج فى كلية الحقوق.. أترى الأمر كذلك؟ مولع أنت إلى حد كبير بالجسم اللدن لفتى فى حوالى العشرين من العمر، جسم يحاكى جسم شبل . ألست كذلك؟ ترى كم فتى من هذه النوعية لم تجردهم بذهنك من ثيابهم بالأمس؟ إن خيالك مثل إحدى تلك الصوبات التى تستخدم لتجميع أنواع النباتات. بداخله تجمع الأجساد العارية لكل أولئك الفتية الصغار، الذين رأيتهم خلال النهار، وحينما تعود إلى الدار ، وتأوى إلى الفراش ، تختار من بين مجموعتك الضحية الطقوسية لحفلك الوثنى ، فتنحى جانبا ضحية تستأثر بخيالك الخاص. وما يعقب ذلك مثير للإشمئزاز تماما .

تقتاد ضحيتك إلى نصب غريب سداسى الشكل، فيما تخفى حبلا وراءك، تنتشر ذراعيه فوق مستوى رأسه ، تشدد على أن يبدى الكثير من المقاومة، أن يصرخ عاليا، تدلى بوصف مفصل للضحية لموته الوشيك، وذلك كله فيما تتلاعب ابتسامة غريبة بريئة على شفتيك، تستل من جيبك سكينا حادة، تدنو منه ضاغطا ، تداعب جلد صدره المشدود بطرف السكين بخفة ورقة ، يطلق صرخة يائسة، يثنى جسده فى محاولة لتجنب السكين، يصطخب نفسه برعب لاهث، ترتجف ساقاه ، تصطك ركبتاه ، ببطء تغرس السكين فى جانب صدره (ذلك هو الأمر الفاضح الذى تأتيه) يقوس الضحية جسده ، مطلقا صرخة حادة ، وحيدة، مثيرة للشفقة ، تتشنج العضلات حول الجرح، لقد دفنت السكين فى اللحم المتموج بهدوء كما لو كانت تدفع فى غمد. تندفع نافورة من الدم ، تنسكب ، تمضى متدفقة إلى أسفل ، نحو فخذيه الناعمين.

إن البهجة التى تعرفها فى هذه اللحظة هى شعور إنسانى أصيل، أقول ذلك لأنك فى هذه اللحظة بالتحديد تمتلك ناصية العادية، التي هى هاجسك، وأيا كان شكل نزوتك فإنك تستثار جنسيا، حتي أغوار وجودك البدنى، مثل هذه الاستثارة عادية تماما، لا تختلف مثقال ذرة عن استثارة الرجال الآخرين. يرتعد ذهنك تحت اندفاع استثارة بدائية غامضة، تنبعث فى صدرك

البهجة العميقة، التى استشعرها إنسان متوحش، تلتمع عيناك، يلتهب الدم فى جسدك كله ، تفيض بذلك التجلى للحياة، الذى عبدته القبائل الوحشية ، وحتى بعد القذف تظل ترنيمة ابتهاج محمومة ووحشية تتردد فى جسدك، لا يهاجمك ذلك الأسى الذى يعقب مضاجعة امرأة، تتألق بوحدة فاسقة، لبرهة قصيرة تطفو فى ذاكرة نهر عتيق هائل ، ربما من خلال صدفة ما أحكمت ذاكرة أعمق الانفعالات فى قوة حياة أسلافك المتوحشين قبضتها تماما على وظائفك ومسراتك الجنسية. لكنك غارق فى الانشغال بادعائك الملاحظة . ألست كذلك؟ ليس بمقدورى أن أفهم لم تجد أنت يا من بوسعك على هذا النحو أحيانا أن تستشعر البهجة العميقة للوجود الإنسانى أن من الضرورى أن تردد مثل هذا الهراء عن الحب والروح.

بالمناسبة، ما رأيك فى هذه الفكرة؟ ماذا لو أنه تعين عليك أن تقدم رائعتك المؤلفة من أطروحة دكتوراه أمام سونوكو؟ إنها أطروحة عميقة عنوانها «حول العلاقات الوظيفية بين استدارات جذع فتى شاب ودرجة تدفق الدم». باختصار فإن الجذع الذى تختاره لحلم يقظتك هو جسد ناعم ، لين ، متماسك، وفوق كل شىء جسد شاب ، ينساب عليه الدم ، متتبعا أدق الاستدارات ، فيما هو يشخب من جرح السكين. أليس ذلك صحيحا؟ ألا تختار الجسد

الذى يعطى أجمل مسيل للدم وأقربه للطبيعة، مسيل يحاكى ذلك الذى يشقه جدول متماوج ، يتدفق عبر سهل، أو يماثل الخضرة فى قطاع عرضى فى شجرة عتيقة؟ أبوسعك أن تنكر ذلك؟..

لم يكن الإنكار بمقدورى.

مع ذلك، فإن قدراتى علي تحليل الذات كانت قد بنيت على نحو يتحدى التحديد، كإحدى تلك الحلقات التى تصنع بلف قطعة من الورق مرة واحدة ثم لصق الطرفين معا. إن ما يبدو الوجه الداخلى هو الوجه الخارجى ، وما يبدو الوجه الخارجى هو الوجه الداخلى، وعلى الرغم من أن تحليلى الذاتى فيما تلا ذلك من أعوام قد تجاوز حافة الحلقة بمزيد من البطء، فإنه فى العشرين لم يكن يصنع شيئا إلا الدوران ، مغمض العينين، عبر مدار انفعالاتى ، تستحثه الاستثارة النابعة من شهود المراحل الأخيرة الفاجعة للحرب، غدت سرعة الدورات كافية لجعلى أفقد كل شعور بالتوازن، لم يكن ثمة وقت للتأمل الدقيق للأسباب والنتائج، لا وقت لأى من ضروب التناقض أو الربط ، هكذا مضت التناقضات تدور عبر المدار على نحو ما كانت مرتطمة ببعضها بسرعة ، بحيث أنه ما من عين استطاعت أن تدركها.

بعد ساعة تقريبا من التفكير على هذا النحو ، كانت الفكرة الوحيدة التى بقيت عالقة بذهنى هى فكرة تدبيج رد بارع على خطاب سونوكو..

فى هذا الوقت أزهرت أشجار الكرز ، غير أنه بدا أن أحدا ليس لديه الوقت للتمتع برؤية الأزهار ، وربما كان طلاب كليتى هم وحدهم فى طوكيو الذين أتيحت لهم فرصة رؤية براعم الكرز وهى تزهر. فى طريق عودتى إلى الدار من الجامعة، سواء أكنت وحيدا أم بصحبة اثنين أو ثلاثة من أصدقائى ، كنت أسير غالبا ، متمهلا، تحت أشجار الكرز، على ضفاف بحيرة سى.

بدت البراعم جميلة، على نحو غير مألوف فى ذلك العام ، لم تكن هناك ستائر مخططة باللونين الأحمر القانى والأبيض ، والتى يشيع وضعها بين الأشجار المزدهرة دونما استثناء ، حتى أعتقد المرء فى النهاية أنها جزء من مظهر الكرز. لم تكن ثمة أكشاك شاى صاخبة ، ولا حشود من متأملى الزهور فى أيام العطلات، ولا من يرفع الصوت عاليا مناديا على بالونات الأطفال، أو يلهو بطواحين الهواء. لم يكن ثمة إلا أشجار الكرز تزدهر وسط الأشجار دائمة الخضرة، دونما انقطاع ، باعثة فى المرء الشعور بأنه يري الأجسام العارية للبراعم ، أبدا لم تبد هبة الطبيعة السخية وإسرافها العبثى بهذا الجمال ، على نحو ما لاحت فى ذلك الربيع. ساورنى شك مزعج فى أن الطبيعة أقبلت لتسترد الأرض لذاتها، يقينا كان ثمة شىء غير عادى فى ازدهار هذا الربيع . صفرة براعم اللفت ، خضرة النجيل الحديث النبت ، الجذوع

السوداء الناضرة لأشجار الكرز ، غطاء البراعم الثقيلة الذى ناءت الأغصان بحمله ... إنعكس هذا كله فى عينى ألوانا نابضة بالحياة، تشوبها الضغينة، بدت لى حريقا سداه الألوان.

ذات يوم كنا نسير مجموعة كبيرة من الطلاب على النجيل بين صفوف أشجار الكرز وضفاف البحيرة، متجادلين حول نظرية قانونية عبثية خلال مسيرتنا. كنت فى ذلك الوقت مولعا بالسخرية من محاضرات دكتور «ى». فى القانون الدولى، ففى قلب الغارات كان هذا الاستاذ الجامعى يواصل بسعة أفق محاضراته، التى لا نهاية لها فيما يبدو ، حول عصبة الأمم . أحسست وكأننى أصغى إلى محاضرات حول المهجونج [1] أو الشطرنج السلام! السلام!... لم أستطع أن أصدق أن هذا الصوت الذى يحاكى الجرس والذى يقرع بلا انتهاء فى البعيد كان أى شىء آخر غير طنين فى أذنى.

ـ أليس الأمر متعلقا بالطبيعة المطلقة بالادعاءات الحقيقية بالملكية؟

قال ذلك (أ) مواصلا مناقشتنا. ورغم أن هذا الطالب الريفى كان يبدو طويلا ضخم البنية ، ويتمتع ببشرة مشربة بالعافية، إلا أن حالة تسيل فى الرئة متقدمة أنقذته من التجنيد.

---

(١) المهجونج لعبة شائعة فى اليابان ، غير أنها صينية الأصل (هـ.م.)

ـ دعونا نتخلص من هذا الحديث الأبله !

قاطعه «ب». وكان طالبا شاحب الوجه، وكما يمكن القول بنظرة واحدة فإنه كان يعانى من السل.

قلت ضاحكا، فى سخرية:

ـ فى السماء طائرات العدو، وعلى الأرض محاضرات القانون.. إحم، أهذا ما تعنونه بقولكم المجد فى الأعالى وعلى الأرض السلام؟

كنت أنفرد بأننى لست مصابا بمرض صدرى حقيقى ، وبدلا من ذلك تظاهرت بأننى مصاب بمرض فى القلب، ففى تلك الأيام كان على المرء أن يتقلد إما سمة الحرب أو الأمراض.

فجأة أوقفنا سماع صوت أحدهم يخطو فوق النجيل، تحت أشجار الكرز قريبا منا. بدا ذلك الشخص وكأنه فزع بدوره لاقترابنا. كان شابا يرتدى ملابس عمل ملطخة، وينتعل قبقابين خشبيين، وما كان المرء ليدرى إنه شاب إلا من لون شعره القصير الذى أطيل من تحت قلنسوته الميدانية، كانت بشرته العكرة ، ولحيته الخفيفة متناثرة الشعر ويديه وقدميه الملطخة بالزيتة وعنقه الكابى اللون تشير جميعا إلى إعياء بائس ، لا يتفق وسنوات عمره.

وراءه، وفى غموض، وقفت فتاة منكسة الرأس، يبدو عليها

الضيق ، كان شعرها ممشطا للخلف بشكل عاجل وحاد. وترتدى القميص الكاكى الذائع الانتشار. كان الشىء الوحيد فى هذا الثنائى الذى يبدو على نحو عجيب نظيفا ومبهجا وجديدا هو سراويل العمل التى ترتديها الفتاة.

كان بمقدور المرء أن يخمن فى يسر أنهما من العمال المجندين إلزاميا فى مصنع واحد، وأنهما إلتقيا هنا فى موعد عاطفى متهربين قليلا من وقر عملهما بالمصنع ليتمتعا بالتريض وسط الزهور. حينما سمعانا انزعجا، ربما لأنهما ظنا أننا قد نكون من الشرطة.

نظرا إلينا باستياء، وهما يبتعدان عنا. لم نشعر عقب ذلك بالرغبة فى الثرثرة.

قبل أن ينتهى موسم ازدهار الكرز ، أوقفت كلية الحقوق المحاضرات مرة أخرى، وأرسلنا فى إطار حشد الطلاب إلى ترسانة بحرية على بعد أميال قليلة من خليج سى. فى الوقت نفسه رحلت أمي وأختي وأخى إلى دار جدى لأمى، فى مزرعة صغيرة قرب ضواحى طوكيو، أما خادم الدار ، وهو طالب فى الوقت نفسه بالمدرسة الوسطى، فكان رغم ضآلة حجمه يتصرف على نحو يفوق سنوات عمره، فقد مكث فى دارنا بطوكيو ليعنى بأبى، وكان فى

الأيام التى لا يقدم فيها الأرز يسحق حبات الصويا المغلية فى هاون، ويعد عصيدة تبدو كالقيىء لنفسه ولأبى، وكان كذلك يعكف خلسة على استنفاد مخزوننا الضئيل من الخضر المخللة حينما يغادر أبى الدار.

كانت الحياة فى الترسانة البحرية هادئة ، أسند إلىّ عمل لبعض الوقت فى المكتبة، أما باقى الوقت فكنت أقضيه مع مفرزة مكلفة بالحفر، تتألف من عمال صغار السن من فورموزا، عاكفين على حفر نفق متعدد الأطراف لإخلاء مصنع قطع الغيار. كان أولئك الشياطين الصغار الذين لا تتجاوز أعمارهم الثانية عشرة أو الثالثة عشرة هم رفاقى الوحيدين ، كانوا يعلموننى لغتهم، وبالمقابل كنت أحكى لهم قصصا خرافية. تملكهم اليقين من أن آلهة فورموزا ستنقذهم من الغارات ، وتردهم ذات يوم سالمين إلى أرضهم، كانت شهيتهم للطعام هائلة إلى الحد الذى دفعهم لتجاوز القواعد الأخلاقية ، فقد اختلس فتى أريب منهم بعض الأرز والخضراوات تحت سمع وبصر حرس المطبخ ، وسرعان ما حولوه إلى أرز مقلى بطهيه فى كمية وفيرة من زيت الماكينة، وقد رفضت شهود هذه الوليمة التى بدت لى مفعمة بنكهة التروس.

خلال أقل من شهر واحد ، شقت مراسلتى لسونوكو

طريقها نحو اكتساب خصوصية حميمة، فقد اتسمت خطاباتى بجرأة لا تعرف التحفظ ، وذات يوم عدت إلى مكتبى بالترسانة بعد إطلاق صفارة الأمان من غارة ، فوجدت خطابا من سونوكو فى انتظاري. ارتعدت يداى فيما كنت أطالعه ، شعرت كما لو كنت محموما قليلا، كان خطابها يضم سطرا ، رحت أكرره مرات عديدة بأنفاس لاهثة.

«... أشتاق إليك.....»

كان الغياب قد شجعني . دفعنى البعد للزعم بامتلاكي ناصية «العادية»، وبتعبير آخر قبلت «العادية» كموظف مؤقت فى مؤسسة جسدى. إن الشخص الذى يفصله عن المرء الزمان والمكان يكتسب سمة مجردة ، ربما كان هذا هو السبب فى أن الإخلاص الأعمى الذى شعرت به نحو سونوكو ورغباتى الحاضرة أبدا فى اللحم البشرى قد اختلطت فى داخلى ، فغدت كتلة واحدة متجانسة وجمدتنى بإزاء كل لحظة متتابعة من الزمن ، كإنسان يخلو من التناقض مع نفسه.

حرا كنت ، غدت الحياة اليومية شيئا يمج سعادة لا توصف . سرت شائعة تقول إن العدو قد يقوم بعملية إبرار فى خليج «سى»، قريبا وإن المنطقة التى تقع فيها الترسانة ستقتحم،

ألفيت نفسي مرة أخرى ، وبصورة تفوق المرات السابقة، منغرسا بعمق في الرغبة في الموت، لقد اكتشفت في الموت «هدف حياتي» الحق.

ذات يوم من أيام السبت في منتصف أبريل ، حصلت على تصريح بأول عطلة تمنح لي منذ وقت طويل. مضيت أولا إلى الدار في طوكيو ، معتزما الحصول على بعض الكتب من مكتبتي لمطالعتها بالترسانة، على أن أتوجه على الفور إلى دار جدي في الضواحي لقضاء الليل هناك، حيث كانت أمي والآخرون يقيمون بها ، ولكن خلال الطريق ، وفيما القطار يشرع في الانطلاق ويتوقف استجابة لمؤشرات الغارات ، أحكم برد مفاجيء قبضته عليّ، شعرت بإعياء حاد مصحوب بدوار عنيف ينتشر عبر جسدي، ومن التجربة المتكررة أدركت أن تلك أعراض التهاب اللوزتين. بمجرد وصولي إلى الدار في طوكيو ، جعلت الخادم ينشر الأغطية، ودلفت على الفور إلى الفراش.

قبل مرور وقت طويل، ارتفع رنين مفعم بالحيوية لصوت امرأة، يتناهى من الطابق الأرضي، ويرتطم بجبيني المحموم، سمعت شخصا يرقى الدرج، ويقبل عبر المشى، فتحت عيني قليلا، فرأيت الجزء الأسفل من كيمونو فضفاض،

ـ ... ما هذا؟ يا لك من شخص كسول!

قلت:

ـ أوه ، مرحبا شاكو!

ـ ماذا تعنى بقولك «أو ، مرحبا» فقط بينما لم نتقابل منذ خمس سنوات تقريبا؟

كانت ابنة عائلة تربطها بنا قرابة بعيدة، اسمها شيكو وقد حرف إلى شاكو، وكان هذا ما ندعوها به ، كانت تصغرنى بخمس سنوات ، والمرة الأخيرة التى قابلتها فيها كانت خلال حفل زفافها، لكن زوجها لقى مصرعه بالجبهة خلال العام الماضى ، وشرع الناس فى التقول عليها، ذاهبين إلى أنها أصبحت أرملة طروبا، على نحو غريب، الآن بدا جليا كم كان ذلك التقول فى موضعه، وفى مواجهة مثل هذه الحيوية المرحة ما كان بوسعى التقدم بالتعازى المألوفة، التزمت صمتا يغمره الشعور بالصدمة، محدثاً نفسى بأنه كان من الأفضل لها أن تنزع من شعرها الزهور البيضاء الصناعية التى غرستها فيه.

قالت متحدثة عن أبى باسم التدليل لاسمه تاتسو:

ـ جئت اليوم لمقابلة تاتشان وبحث بعض الأعمال معه. جئت للاستفهام حول إخلاء أثاثنا، لأن أبى قابل تاتشان أخيرا فى

مكان ما، وقال تاتشان إن بمقدوره أن يوصى بموضع جيد، يمكن أن نرسل أمتعتنا إليه.

ـ قال العجوز إنه سيتأخر اليوم فى المجيء للدار....

حينما شاهدت شفتيها القرمزيتين أصابنى القلق، فتوقفت عن الحديث، وربما كان الأمر يرجع إلى الحمى التى أصابتنى، لكن ذلك اللون القرمزى بدا لى وكأنه ينصب إلى عينى، وجعل رأسى تؤلمنى بعنف.

ـ ولكنك تكثرين حقا، كيف يمكنك هذه الأيام استخدام كل أدوات التجميل هذه، دون أن يدفع ذلك المارة فى الطريق إلى الحديث؟

ـ هل كبرت فعلا إلى حد ملاحظة زينة المرأة؟ تبدو لى وأنت راقد هكذا تماما مثل رضيع فطم لتوه.

ـ يا لك من مشاغبة! دعينى وحدى!

دنت منى عامدة، لم أرد أن ترانى فى منامتى، فجذبت الأغطية حتى بلغت رقبتى، مدت فجأة يدها، وضعت راحتها على جبينى. حاكت البرودة الجليدية ليدها على جلدى طعنة خنجر، مع ذلك كان ملمسها طيبا.

ـ أنت مصاب بالحمى . هل قست درجة حرارتك؟

ـ إنها ١٠٢ درجات تماما.

ـ ما تحتاج إليه هو كمادات ثلج.

ـ ليس بالدار ثلج.

ـ سأتدبر هذا.

اندفعت مغادرة الغرفة فى مرح، وكما الكيمونو الذى ترتديه يحتك أحدهما بالآخر ، هبطت الدرج ، سرعان ما عادت ، وجلست صامتة.

ـ أرسلت ذلك الفتى فى طلب الثلج.

ـ شكرا.

رحت أحدق فى السقف . التقطت الكتاب الموضوع قرب الفراش، فمست كم ردائها الحريرى البارد بوجنتى.

فجأة رغبت فى هذين الكمين، شرعت أطلب منها أن تضعهما فوق جبينى ، لكنى عندئذ توقفت . شرعت عتمة الشفق تغمر الغرفة.

قالت:

ـ يا له من خادم بطىء!

من يصب بالحمى يرصد مرور الزمن بدقة مرضية . كنت أعلم أن الوقت لا يزال مبكرا حتى تشرع شيكو فى تأكيد بطء الخادم ، بعد دقائق قلائل تحدثت مرة أخرى:

ـ يا للبطء ! ترى ما الذى يمكن أن ينغمس ذلك الغلام فيه الآن ؟

صحت بعصبية:

ـ أقول لك إنه ليس بطيئا .

ـ أوه ، يا للمسكين ، تشعر بالضيق ، أرجوك أغمض عينيك ، لطفا لا تحاول التحديق فى السقف بمثل هذه النظرة الفظيعة.

أغمضت عينى ، غدت سخونة جفنى عذابا حادا ، شعرت فجأة بشىء يمس جبينى ، ومعه زحف نفس واهن على جلدى ، أشحت بوجهى ، ندت عنى تنهيدة عبثية، فى هذه اللحظة اختلط نفسى المحموم بصورة غير مألوفة بنفسها . غطى شىء ثقيل ودهنى شفتى ، ارتطمت أسناننا مثيرة الضجة، خفت أن أفتح عينى وأحدق فيما أمامى ، عندئذ أمسكت خدى فى حزم بين راحتيها الباردتين.

تراجعت شيكو بعد لحظة، فرفعت جسمى هونا، هناك فى العتمة راح أحدنا يحدق فى الآخر. كان من المعروف أن أخوات شيكو كن من النساء اللاتى خلعن العذار، الآن أدركت بوضوح أن الدماء نفسها تجرى حتما فى عروقها ، لكن شعورا غريبا عصى التفسير راودنى حول وجود تماثل بين الانفعال الذى يتقد فى بدنها والحمى التى أشعلها مرضى. اقتعدت الفراش وقلت:

ـ مرة أخرى!

على هذا النحو تابعنا قبلاتنا، التى لا تنتهى إلى أن عاد الخادم، كانت لاتنى تقول:

ـ تقبيل فقط، تقبيل فقط....

لم أدر ما إذا كنت قد شعرت بأية رغبة جنسية خلال تبادل هذه القبلات ، أيا كان الأمر، ومن حيث أن ما يسمى بالتجربة الأولى هو نوع من الشعور الجنسى فى ذاته ، فربما يكون مما لا طائل وراءه أن نضع تمييزا محددا فى هذه الحالة ، وما كانت هناك جدوى من محاولة استخراج العامل الجنسى العادى للقبلة من الانفعالات السكرى لتلك اللحظة. كان الأمر المهم هو أننى أصبحت «رجلا يعرف القبلات». طوال الوقت الذى أمضيناه متعانقين لم أفكر إلا فى سونوكو، تماما كصبى يعطى بعض

الحلوى بعيدا عن الدار، فتساوره الرغبة للتو فى أنه يستطيع منح بعضها لأخته الصغرى. منذ ذلك الوقت تركزت جميع أحلام يقظتى على تقبيل سونوكو، وكانت تلك أولى ضروب إساءة التقدير التى اقترفتها وأكثرها خطورة.

على أية حال ، فمع تواصل تفكيرى فى سونوكو أصبحت هذه التجربة الأولى بشعة تدريجيا، حينما حدثتنى شيكو هاتفيا فى اليوم التالى كذبت ، وأخبرتها بأنى عائد على الفور إلى الترسانة ، بل إنى لم أذهب إلى لقائنا الذى تواعدنا عليه. أعمت عينى عن واقع الحقيقة المتمثلة فى أننى أحسست بالبرود نحوها بصورة طبيعية ، لأننى لم استشعر لذة فى تلك القبلات، رحت بدلا من الإقرار بهذه الحقيقة أؤكد لنفسى أن تلك القبلات بدت بشعة، لا لشيء إلا لأنى أهوى سونوكو. كانت تلك هى المرة الأولى التى استخدمت فيها حبى لسونوكو كتبرير لمشاعرى الحقيقية.

تبادلت الصور مع سونوكو، شأن أى فتى وفتاة فى حبهما الأول . كتبت تقول إنها وضعت صورتى فى مدلاة علقتها فى قلادة تتهدل على صدرها، لكن الصورة التى أرسلتها لى كانت كبيرة، بحيث تلائمها حقيبة صغيرة بالكاد، لما لم يكن بوسعى وضعها فى جيبى، فقد حملتها مغلقة داخل لفافة، ولخشيتى من نشوب حريق فى الترسانة والصورة فيها كنت أحملها معى حينما أذهب للدار.

ذات ليلة كنت بالقطار عائدا إلى الترسانة حينما دوى صوت صفارات الإنذار فجأة، وانطفأت الأنوار، فى لحظات دوى صوت إشارة اللجوء إلى المخبأ، تلمست بيدى على رف المتاع باحثا عن الحزمة الكبيرة التى وضعتها هناك، فألفيتها قد سرقت ، ومعها ضاعت اللفافة التى تحوى صورة سونوكو. لما كنت أميل بصورة موروثة إلى التطير، فقد هيمنت علىّ منذ تلك اللحظة فكرة ضرورة مقابلة سونوكو على جناح السرعة.

دفعتنى غارة الرابع والعشرين من مايو تلك ، التى كانت مدمرة شأن غارة منتصف ليلة التاسع من مارس، إلى اتخاذ قرار نهائى ، وربما كانت علاقتى بسونوكو تقتضى ذلك الجو عفن الأبخرة ، الذى يمجه ركام المصائب هذا، ربما كانت تلك العلاقة نوعا من المركب الكيميائى الذى لا يمكن تحضيره إلا بحمض الكبريتيك.

غادرنا القطار ، احتمينا بالملاجىء العديدة ، التى حفرت على امتداد خط تتفتح التلال عنده على السهل . من مجثمنا رحنا نرقب السماء، وهى تتحول إلى اللون القرمزى فوق طوكيو، وبين الفينة والأخرى ينفجر شىء ما، فتنعكس صورة الانفجار فوق صقال السماء، وفجأة فى قلب السحب نتمكن من رؤية سماء زرقاء

مروعـة ، كأنما فى رائعـة النهار، تتخايل فضة سماء زرقاء للحظة فى قلب الليل.

لاحت الكشافات الضوئية أقرب إلى أبراج إرشاد ترحب بطائرات العدو، فتمسك الأجنحة المتألقة بإحدى هذه الطائرات تماما وسط أضواء كشافين تقاطعت للحظة، ثم تجتذب الطائرة بلطف فتنقلها من ضوء إلى آخر، وفى كل مرة تدنو من طوكيو، كما لم تكن المدفعية المضادة للطائرات ثقيلة للغاية فى تلك الأيام، وبارتياح كانت الطائرات طراز بى ـ ٢٩ تحلق فوق طوكيو.

وما كان ليحتمل أن يستطيع أحد، من حيث كنا ، أن يميز بالفعل الصديق من العدو فى المعارك الجوية التى دارت رحاها فوق طوكيو، مع ذلك ارتفعت جوقة من الهتافات من جمهرة النظارة فى كل مرة كان أفرادها يرصدون ، بإزاء الخلفية القرمزية، طائرة مصابة تهوى، كان العمال الصغار بصفة خاصة شديدى الجلبة، ويتردد صوت التصفيق والهتاف من مداخل الأنفاق المتناثرة ، كأنه يخرج من مسرح ، أما عن المشهد الذى بدا من هذه المسافة فلم يكن ثمة فارق جوهرى بين أن تكون الطائرة المتهاوية لنا أو للعدو، وتلك هى طبيعة الحرب..

وما أن أطل الفجر بنوره حتى شرعت فى العودة للدار،

بدلا من المضى إلى الترسانة ، اضطررت للسير طوال منتصف المسافة التى يمتد عبرها خط أحد قطارات الضواحى، وكان متوقفا، مضيت عبر الوصلات، التى لا تزال تحترق، عابرا الجسور عن طريق المماشي الجانبية الضيقة، فيما كنت أقترب من الدار اكتشفت أنه ما من شىء أفلت من الاحتراق، فى ذلك القطاع من المدينـة بأسـره . فيما عدا المنطـقة المجـاورة لنا مباشرة، وأن دارنا لم تصــب بسوء، تصــادف أن كانت أمى وأختى وأخى بالدار فى تلك الليلة، وألفيتهم مبتهجين رغم الحريق الليلى، كانوا يحتفلون بنجـاتهم بتــناول بعـض الحلوى، التى استخرجوها حيث كانت مخزونة

أقبلت أختى ، طويلة اللسان ذات الأعوام الستة عشر، فى وقت لاحق من ذلك اليوم ، إلى غرفتى ، وقالت:

ـ أخى يهيم حبا بإحداهن . أليس كذلك؟

ـ من قال لك مثل هذا الأمر؟

ـ أعرف تماما .

ـ طيب .. أهو خطأ أن يقع المرء فى حب إحداهن؟

ـ أوه .. لا .. متى ستتزوجان؟

غاصت كلماتها فى أعماقى ، ساورنى شعور هارب من وجه

العدالة، حينما يتصادف أن يقول شخص لا يدرى بما جنته يداه شيئا له عن جريمته.

ـ نتزوج ؟ أنا لم أفكر مجرد تفكير فى الزواج.

ـ يا خبر! ما أسوأ هذا! أنت متيم بفتاة دون أن تعتزم الزواج منها؟ أوه ، هذا مقزز ، حقا إن الرجال لأشرار.

ـ إذا لم تغادرى هذه الغرفة مسرعة لأقذفنك بهذه المحبرة.

لكن حتى بعد مغادرتها الغرفة لم أستطع انتزاع كلماتها من ذهنى، فشرعت أحادث نفسى : هذا حق، ثمة شيء فى هذه الدنيا اسمه الزواج والأطفال كذلك . عجيب أنى نسيت هذا، أو على الأقل تظاهرت بأنى نسيته ، كان وهما ما حدثت به نفسى من أن الزواج هو سعادة عابرة ، حتى تكاد لا توجد فى ظل اقتراب الحرب من النهاية الفاجعة، بالفعل كان الزواج يمكن أن يكون بالنسبة لى سعادة خطيرة، خطيرة بما يكفى ـ رويدا دعنى أتبين ـ طيب ، بما يكفى ليقف شعر جسدى.

استحثتنى هذه الأفكار كذلك للوصول إلى الحسم المرتكس حول ضرورة زيارة سونوكو فى أقرب وقت ممكن . ترى أكان ذلك الشعور حبا؟ ألم يكن فى الحقيقة قريبا من ذلك الشكل الغريب والمحموم من الفضول الذى يبديه الرجل تجاه خوف يكمن فى

أعماقه، نحو رغبة فى اللعب بالنار؟

كنت قد تلقيت دعوات عديدة لزيارتهم ، لا من سونوكو وحدها ، وإنما من أمها وجدتها كذلك. ولعدم رغبتى فى النزول بدار خالتها كتبت لسونوكو طالبا حجز غرفة بفندق لى ، وعبثا سألت فى جميع فنادق قرية «ن»، فقد غدت جميع الفنادق إما مكاتب فرعية لبعض الإدارات الحكومية ، أو خصصت لاحتجاز الأجانب الذين استسلمت دولهم للعدو.

فندق .. غرفة خاصة .. مفتاح .. نوافذ أسدلت عليها الستائر .. مقاومة فاترة .. اتفاق مشترك على الشروع فى المعابثات، يقينا سيكون بمقدورى عندئذ، بالقطع فى ذلك الوقت ، سأستطيع القيام بالأمر، مؤكد أن العادية ستندلع ألسنة من لهيب فى أعماقى ، مثل وحى إلهى ، يقينا سأولد من جديد شخصا مختلفا، رجلا مكتملا، كأنما أطلق سراحى فجأة من إسار سحر روح شريرة، فى هذه اللحظة سأتمكن من احتضان سونوكو دونما تردد وبكل طاقاتى ، فأعشقها حقا ، ستزاح كل الشكوك والهواجس تماما ، سأصبح قادرا على أن أقول لها من أعماق قلبى « أحبك» ومنذ ذلك اليوم سأجوب الشوارع خلال الغارة هاتفا بأعلى صوتى «هذه هى حبيبتى».

يهيمن تشكك مراوغ فى النزعة العقلية على الشخصية الرومانسية غالبا ما تؤدى هذه الحقيقة إلى الحدث اللاأخلاقى الذى يدعى بأحلام اليقظة، وعلى عكس الاعتقاد الشائع، فإن أحلام اليقظة ليست عملية ذهنية ، وإنما هى بالأحرى هرب من النزعة إلى إعمال الذهن.

لكن حلمى بالفندق قدر له ألا يتحقق ، فحينما كلل السعى للعثور على غرفة فى أحد الفنادق بالإخفاق، كتبت سونوكو لى مرارا تدعونى للنزول بالدار معهم ، أخيرا وافقت، وفى التو تملكنى شعور بالارتياح ، يحاكى الإعياء ، وبغض النظر عما لجأت إليه محاولا إقناع نفسى بأن شعورى كان إحساسا بالاستسلام المصحوب بخيبة الأمل ، فإنى لم أستطع تجنب حقيقة أن هذا الشعور كان ارتياحا محضا.

انطلقت إلى قرية «ن». فى الثانى من يونيه، وفى ذلك الوقت كان كل شيء فى الترسانة غارقا فى الإهمال واللامبالاة إلى حد أن أى عذر كان كافيا للحصول على إجازة.

كان القطار قذرا وخاويا. وإنى لأتساءل لم تبد ذكرياتى عن القطارات خلال الحرب ، ما عدا ذلك المثال السعيد مع سونوكو ذكريات بائسة على هذا النحو؟ فيما كنت فى الطريق إلى قرية

«ن»، ومع كل اهتزازة من اهتزازات القطار ، تدافع مقبلا عذاب هاجس طفولى بائس، كنت قد عقدت العزم على ألا أرحل دون تقبيل سونوكو، لكن تصميمى كان مختلفا عن ذلك الشعور المفعم فخرا، الذى يحل حينما يناضل شخص ما لتحقيق رغبته رغم الخوف، أحسست كما لو كنت ذاهبا للسرقة، شعرت بالشعور الذى يمكن أن يراود مبتدئا جزعا فى عالم الجريمة ، أجبره على أن يصبح لصا زعيم عصابة ، كانت سعادة أن أكون محبوبا قد اخترمت ضميرى ، ولربما كنت فى توق إلى المزيد من التعاسة الحاسمة .

قدمتنى سونوكو إلى خالتها، أردت أن أترك انطباعا طيبا، حاولت ذلك بأقصى ما فى وسعى ، بدا الجميع وكأن أحدهم يسائل الآخر فى صمت: لماذا تقع سونوكو فى حب «جدع» كهذا؟ يا له من عاشق كئب شاحب! ما الذى يعجبها فيه بحق الجحيم؟

كنت أعتزم ذلك العزم الجدير بالثناء، والمتمثل فى جعل الجميع يكونون فكرة طيبة عنى ، فلم أشكل مجموعة منفصلة مع سونوكو على نحو ما فعلت فى تلك المرة بالقطار، وإنما رحت أساعد أختيها فى دروس اللغة الإنجليزية ، وأصغى باهتمام إلى أقاصيص الجدة عن أيامها النائية فى برلين، من الغريب أن

سونوكو بدت أكثر قربا منى فى مثل هذه الأوقات ، كنت أتبادل الغمزات الطائشة معها خلسة فى وجود أمها وجدتها ، خلال تناول الطعام كانت أقدامنا تتلامس تحت المائدة ، أصبحت هى تدريجيا غارقة فى هذه اللعبة. ذات مرة، فيما كانت الجدة تضجرنى بحكاياتها، انحنت سونوكو على نافذة كنت أستطيع أن ألمح عبرها أوراق الشجر الخضراء تحت السماء المفعمة بالسحب لموسم المطر، من خلف جدتها ، وبحيث يكون بمقدورى وحدى رؤيتها، أمسكت بالمدلاة التى تتهدل على صدرها وأخذت تؤرجحها تحت ناظرى.

ما كان أشد أبيضاض الصدر الذى تطل مطالعه من فتحة عنق ثوبها هلالية الشكل! كان أبيضاضا كالفجاءة. فيما كنت أنظر إلى ابتسامتها ، وهى تنحنى على النافذة ، استطعت أن أفهم إشارة شكسبير إلى «الدم الملهوف» الذى صبغ وجنتى جولييت ، ثمة ضرب من الخيلاء يليق بعذراء فحسب، يختلف عن خيلاء المرأة الناضجة، يفتن الناظر ، لكأنه رياح هادئة، ضرب من شىء سيىء ، لكنه بشكل ما ورغم ذلك فاتن، يحاكى على سبيل المثال الرغبة فى مداعبة طفل وليد.

فى لحظات كهذه يتعرض ذهنى لإغواء سعادة مفاجئة ، لوقت طويل لم أقترب من الثمرة المحرمة المسماة بالسعادة، لكنها

كانت الآن تغريني بإصرار محموم ، أحسست وكأنما سونوكو هوة ، أقف متجمدا عند حافتها.

هكذا مر الوقت، حتى لم يبق إلا يومين على موعد عودتي للترسانة، لم أكن قد وفيت بعد بالإلتزام الذى أخذته على نفسى بأن أقبلها.

التفت التلال جميعها فى غلالة من رذاذ الموسم المطير. إستعرت دراجة، ومضيت إلى مكتب البريد لأرسل خطابا. كانت سونوكو تعمل فى فرع لإحدى الإدارات الحكومية، لتتجنب إرسالها بعيدا للقيام بعمل تطوعى، لكنها وعدت بمقابلتى فى مكتب البريد و«التزويغ» من العمل فى فترة الأصيل. فى طريقى إلى هناك مررت بملعب تنس مهجور، بدا المكان موحشا هناك، فى قلب الشبكة السلكية الصدئة التى كانت قطرات المطر تتساقط منها ، مر إلى جوارى فتى ألمانى فوق دراجة، تألقت قطرات المطر فوق شعره الأشقر ويديه البيضاوين.

مكثت لحظات قصار داخل مكتب البريد عتيق الطراز، وخلال ذلك الوقت ، خفت عتمة السماء قليلا. توقف المطر ، لكنه كان توقفا عابرا، فلم تنقشع السحب، وكان الضوء مفضض الحواف فحسب.

أوقفت سونوكو دراجتها وراء الأبواب الزجاجية . كانت لاهثة الأنفاس ، نهداها يرتفعان وينخفضان فى تتابع سريع، لكن ابتسامة كانت ترف فوق وجنتيها المترعتين عافية ، حدثنى شىء قائلا: « الآن عليك بمطاردتهما!»، كنت حقا أشعر تماما كما لو كنت كلب صيد، يستحث للمطاردة، بدا الأمر كما لو كنت أتحرك تحت وقر إلتزام أخلاقى ، فرضه علىّ شيطان، قفزت فوق دراجتى، ومضيت جنبا إلى جنب مع سونوكو على امتداد الشارع الرئيسى.

ابتعدنا بدراجتينا عن القرية، مضينا عبر أجمة من أشجار التنوب والقبقب والبتولا الفضية التى تقاطر المطر منها. كان شعر سونوكو جميلا، وهو يتموج وراءها فى الريح برشاقة ، كان فخذاها القويان يرتفعان وينخفضان ، وهى تمضى قدما بالدراجة، بدت كأنها الحياة ذاتها، عند مدخل أرض ممهدة للجولف، غدت مهجورة، ترجلنا ، وسرنا على امتداد ممشى مبلل على حواف الطريق.

كنت متوترا، مثل مجند حديث العهد بالجندية. رحت أحدث نفسى: هناك على مبعدة أجمة، وظلالها مناسبة تماما، هناك خمسون خطوة تفصلنا عنها، بعد أن نقطع عشرين خطوة أخرى سأبدأ فى محادثتها لتخفيف التوتر، عبر الخطوات الثلاثين التالية

سيكون من المناسب الإمساك بخيوط حوار عادي، عند الخطوة الخمسين سنوقف الدراجات لنتطلع إلى المشهد الممتد نحو الجبال، عندئذ سأضع يدى على كتفها، بوسعى القول فى صوت خافت: أن أكون هنا على هذا النحو كان حلمى ، عندئذ ستطرح ردا بريئا من نوع ما، سأشدد ضغط اليد القابعة على كتفها جاذبا إياها نحوى، عندئذ سيكون الأسلوب الذى أحتاج إليه هو ذاته الذى استخدم من قبل فى تلك المرة مع شيكو...

أقسمت أن أقوم بدورى بإخلاص، ولم تكن لذلك علاقة لا بالحب ولا بالرغبة...

كانت سونوكو بالفعل بين ذراعى. لاهثة ، توردت وجنتاها كالنار، فأغمضت عينيها، كانت شفتاها جميلتين جمالا صبيانيا، لكنهما لم تثيرا رغبة فى أعماقى ، مع ذلك واصلت مطاردة الأمل فى أن شيئا سيحدث بداخلى فى أية لحظة .. يقينا حين أقبلها بالفعل، عندئذ سأكتشف قطعا عاديتى ، هواى الحقيقى.

كانت الآلة تسرع مندفعة. وما كان بوسع أحد وقفها.

غطيت شفتيها بشفتى، إنقضت ثانية ، لم أشعر بأدنى إحساس باللذة ، مرت ثانيتان وما اختلف الأمر، أدبرت ثلاث ثوان .. فهمت كل شىء..

إنسحبت نائيا عنها، وقفت للحظة أرقبها بعينين حزينتين، لو أنها نظرت إلى عينى فى تلك اللحظة لتلقت يقينا إيماءة للطبيعة العصية التحديد لحبى لها، وأيا كان الأمر لم يكن بوسع أحد أن يؤكد إيجابا أن مثل هذا الحب كان ممكنا إنسانيا، لكن سونوكو وقد غلبها الحياء وفرح برىء ، أبقت عينيها منكستين، شأن عروس صغيرة.

لم أنبس بكلمة ، أمسكت بذراعها ، كما لو كانت طفلة صغيرة، وشرعنا فى السير نحو الدراجات.

رحت أحدث نفسى بأن علىّ أن ألوذ بالفرار، علىّ أن أهرب دون انتظار للحظة واحدة، أصابنى الهلع. ولتجنب إثارة الشك بالظهور بمظهر الاكتئاب، الذى كنت أستشعره، تظاهرت بالمرح، على نحو يفوق المعتاد. وضعنى نجاح حيلتى فى موقف أكثر دقة، فخلال العشاء توافق مظهرى السعيد تماما مع شرود سونوكو العميق، حتى أن الجميع توصلوا إلى الاستنتاج الواضح.

بدت سونوكو أصغر سنا وأزهى من المعتاد، كان ثمة شىء يلف وجهها وقوامها يوحى دائما بأنها خارجة لتوها من بين دفتى رواية ، الآن ثمة شىء يرف حولها ويذكر المرء ، على وجه الدقة ، بمظهر وسلوك فتيات الروايات ، حين يقعن فى الحب. أدركت بجلاء بالغ فيما كنت أرى قلبها العذرى الساذج عاريا أمامى، على

هذا النحو، أنه لا حق لي في معانقة هذه الروح الجميلة ، رغم محاولاتي لمواصلة التظاهر بالمرح سرعان ما فتر حديثي، وحينما لاحظت أم سونوكو ذلك أبدت قلقها على حالتي الصحية ، تسرعت سونوكو بالقفز إلى استنتاج أنها تعلم على وجه الدقة فيما أفكر، ولتجذب انتباهي هزت مدلاتها باتجاهي ، وكأنها تشير قائلة: «لا تدع القلق يساورك» رغما عني رددت لها الابتسامة.

بدت وجوه الكبار المصطفة على المائدة انعكاسا لمزيج من الصدمة والضيق ، إزاء تبادلنا الجرىء للإبتسامات، فجأة أدركت أن الخيال القابع خلف صف الوجوه يكدح، مستحضرا تصورات لمستقبلنا معا، ومن جديد اخترمني الرعب.

في اليوم التالي ، مضينا إلى البقعة ذاتها، قرب أرض الجولف، لاحظت مجموعة من الأزهار البرية ، كنا قد وطئناها لدى رحيلنا، أزهار بابونج صفراء، تذكار أمسنا، أما اليوم فالنجيل جاف.

العادة شيء مخيف، فقد كررت القبلة ، التي ندمت عليها أشد الندم ، لكنها كانت هذه المرة شبيهة بالقبلة التي يمنحها المرء لأخته الصغرى، رغم ذلك فإنها بهذا القدر ذاته تفوح بالمزيد من اللاأخلاقية.

قالـت:

ـ ترى متى سأراك مرة أخرى.

رددت:

ـ طيب ، إذا لم يقم الأمير كيون بابرار قواتهم قرب الترسانة ، فسيكون الحصول على إجازة فى غضون شهر.

كنت آمل ... لا بل الأمر يتجاوز الأمل إلى اليقين الأسطورى، أنه خلال ذلك الشهر سيهبط الأمير كيون يقينا فى خليج «سى»، وسنرسل جميعا، باعتبارنا من جيش الطلاب، لنلقى حتفنا حتى آخر رجل ، أو أن قنبلة مخيفة لم تدر بخيال أحد قط ستودى بى، أيا كان الملاذ الذى أعتصم به ... ترى أكان ذلك هاجسا أقرب إلى النذير بمقدم القنبلة النووية ، التى كان من المقدر لها أن تهوى عاجلا؟

ثم مضينا نحو المنحدر المستحم فى وهج الشمس، كانت شجرتا بتولا تلقيان بظلالهما عليه . وقد بدت كأختين رقيقتين. قطعت سونوكو ، وهى تسير منكسة العينين، الصمت قائلة:

ـ أية هدية ستحضرها لى حينما نلتقى فى المرة المقبلة؟

فى يأس أجبت، مدعيا عدم فهم ما تقصده :

ـ أما عن الهدية التى أستطيع إحضارها ، فى هذه الأيام ، فأفضل ما يمكننى تقديمه طائرة لم يكتمل صنعها، أو مجرفة غارقة فى الوحول.

ـ لم أعن شيئا متجسدا.

ـ إحم ... ماذا يمكن أن يكون هذا الشيء؟ إنه لغز حقيقى أليس كذلك؟ سأفكر فيه خلال عودتى بالقطار.

قلتها، شاعرا بأننى كلما أوغلت فى التظاهر بالجهل زاد حصارى فى ركن معزول شدة.

قالت ، ونغمة صوتها يوشيها مزيج غريب من تمالك النفس والكبرياء:

ـ نعم ، فكر فيه ، أريدك أن تعدنى بإحضار تلك الهدية.

شددت على كلمة «تعدنى». لم يكن ثمة ما أعتصم به للدفاع عن نفسى إلا مواصلة ادعائى المرح.

قلت متنازلا: بديع! دعينا نعقد الخناصر على هذا.

عقدنا خنصرينا معا، على نحو ما يفعل الأطفال، حين يكرسون وعودهم ، بدت تلك الإشارة بالغة البراءة ، لكن خوفا عرفته فى طفولتى داهمنى، تذكرت كيف كان الأطفال يقولون إن

الخناصر تتحطم إذا نكثت وعدا عقدتها تأكيدا له، بل إن خوفي كان له سبب أكثر واقعية، فحتى إن لم تقل سونوكو ذلك صراحة فإنه من الجلي أن حديثها عن الهدية كان طلبا للتقدم للزواج منها . كان خوفي يحاكي ذلك الخوف الذي يستشعره طفل، في عتمة الليل، حين يخشى أن يمضي وحيدا عبر ممر مظلم.

في تلك الليلة ، وقبل أن آوي إلى فراشي ، جاءت سونوكو إلى باب غرفتي ، احتجبت هونا خلف الستائر المسدلة هناك، رجتني والشجن يلفها أن أبقى يوما آخر لم أتمالك عن التحديق فيها، وكأنما أدهشني شيء ما، كان تقديري بأسره، الذي اعتقدت على هذا النحو أنه بالغ الدقة، قد حطمه اكتشاف الخطأ الذي ارتكبته من البداية ذاتها، من ثم لم أدر كيف أحلل المشاعر التي راودتني حينما رحت أحدق في سونوكو.

ـ أينبغي أن ترحل حقا؟

ـ أجل ، هذا ضروري.

شعرت بما يوشك أن يكون سعادة ، فيما كنت أدلي بهذا الرأي . مرة أخرى شرعت آلية الهزيمة تتحرك في أعماقي بسطحية في البداية، لم يكن شعوري بالسعادة إلا الإنفعال الذي يخالج المرء لدى هربه من خطر هائل ، لكنني فسرته باعتباره

ناشئا من شعور بالتفوق إزاء سونوكو، من المعرفة بأننى أمتلك الآن قدرة جديدة على تعذيبها.

كان خداع الذات هو شعاع الأمل الأخير بالنسبة لى ، فالشخص الذى يصيبه جرح لا يطالب بأن تكون الضمادات التى تنقذ حياته ناصعة البياض، أوقفت نزيفى بضمادات خداع الذات، التى كانت على الأقل شيئا مألوفا بالنسبة لى ، ولم يشغل تفكيرى إلا العدو نحو المستشفى، لقد وصفت عامدا تلك الترسانة المتسببة لسونوكو باعتبارها أكثر الثكنات صرامة ، وأكدت على أننى إذا لم أرجع إليها فى الغد فربما يتم إيداعى بالسجن الحربى.

أطلت صبيحة رحيلى ، ألفيت نفسى أحدق بتركيز فى سونوكو شأن مسافر يلقى للمرة الأخيرة نظرة على مشهد يوشك أن يرحل عنه . أدركت الآن أن كل شىء قد انتهى ... حتى على الرغم من أن المحيطين بى كانوا يعتقدون أن كل شىء يوشك على أن يبدأ... وحتى رغم أننى كنت أرغب بدورى فى خداع نفسى، والاستسلام لمناخ الاهتمام الهادىء ، الذى كانت عائلتها تحيطنى به.

رغم ذلك فإن الهدوء الذى يلف سونوكو جعلنى أحس بالقلق، ساعدتنى فى حزم حقيبتى، راحت تبحث على امتداد الغرفة عن شىء ربما نسيته، بعد فترة وقفت أمام النافذة، مضت

تحدق عبرها دون أن تتحرك، لم يكن ثمة اليوم من جديد، على نحو متميز، اللهم إلا السماء المثقلة بالسحب والأوراق الخضراء اليانعة. أرجح مرور سنجاب خلف فرع بإحدى الأشجار . فيما كنت أحدق في ظهرها ، أوضح شيء ما بجلاء أنها كانت تنتظر، في هدوء صبياني، لما كنت مصابا بالانضباط ، الذى ما كان بوسعى معه أن أمضى فى تجاهل هذا بأكثر مما أحتمل مغادرة الحجرة دون إغلاق أبواب خزانة الثياب، فقد دنوت منها، وعانقتها فى رقة.

ـ ستأتى مرة أخرى يقينا . أليس كذلك؟

تحدثت فى يسر، وبنغمة تشى بالثقة الكاملة ، بدت كما لو أنها لا تضع ثقتها فىّ وإنما فى شيء أعمق ، شيء يتجاوزنى . لم يرتعش كتفاها. كان الشريط المزخرف الذى على قميصها الخارجى يعلو ويهبط كأنما فى فخار وكبرياء.

ـ إحم ، ربما إذا كنت لا أزال على قيد الحياة.

شعرت بالتقزز من نفسى خلال نطق هذه الكلمات، كنت أوثر ذهنيا لو أننى قلت: بالطبع سأحضر! لا شيء يمكن أن يمنعنى من المجيء إليك، لا تشكى فى هذا ، ألست الفتاة التى ستصبح زوجتى؟

عند كل منعطف كان هذا التناقض الواضح بين وجهات

نظرى وانفعالاتى يظل متصاعدا، كنت أعلم أن ما جعلنى أتخذ مثل هذه المواقف الفاترة التى يجسدها قولى «إحم ، ربما» لم يكن هنة فى شخصيتى يمكننى تغييرها ، وإنما أمر وجد حتى قبل أن يكون لى شأن بالأمر، وباختصار كنت أعرف بوضوح أن الخطأ لم يكن خطأى.

لكنى ، لهذا السبب ذاته ، تعودت إخضاع تلك الجوانب من شخصيتي التي كنت مسئولا عنها لنصائح سديدة وعاقلة للغاية ، حتى لتبدو مضحكة، وكجزء من نظام الانضباط الذاتى ، الذى يعود إلى طفولتى ، اعتدت أن أحدث نفسى باستمرار بأنه خير لى أن ألقى حتفى من أن أغدو شخصا فاترا، متجردا من الرجولة، لا يعرف بوضوح ما يحب وما يكره، ينشد أن يعشقه الآخرون فحسب دون أن يعرف كيف يحب، وبالطبع فهذه النصيحة قابلة للتطبيق على تلك الجوانب من شخصيتى التى كنت أحملها على كاهلى، ولكن فيما يتعلق بالجوانب الأخرى ، التى لم أكن مسئولا عنها، كانت هذه النصيحة شيئا مستحيلا منذ البداية ، هكذا فإنه فى الحالة الراهنة ما كانت قوة شمشون لتكفى لجعلى أتخذ موقفا رجوليا وحاسما إزاء سونوكو.

هكذا إذن فإن هذا الرجل الفاتر الذى كانت سونوكو تراه الآن ، ذلك الشىء الذى بدا لى شخصيتى أثار تقززى ، وجعل

وجودى بكامله يبدو لى بلا قيمة، ومزق ثقتى بنفسى إربا، أرغمت على نزع ثقتى بكل من إرادتى وشخصيتى ، أو على الأقل فيما يتعلق بشخصيتى لم أستطع إلا الاعتقاد بأنها شىء زائف. من ناحية أخرى ، فإن هذه الطريقة فى التفكير، التى تشدد على الإرادة ، هى فى ذاتها مبالغة ، توشك أن ترقى إلى مرتبة الوهم ، فحتى الشخص العادى لا يستطيع أن يحكم سلوكه بمقتضى الإرادة وحدها ، وأيا كان مقدار عاديتى فمن المحقق أن هناك سببا للشك فيما إذا كنت وسونوكو مناسبين فى كل شىء لحياة زوجية سعيدة سبباً كان يمكن أن يبرر رد ذاتى العادية نفسها بالقول : «إحم ، ربما» . لكنى كنت قد اكتسبت عمدا عادة صم أذنى، حتى فى مواجهة مثل هذه الافتراضات الواضحة، كأنما كنت أرغب فى ألا أهدر هذه الفرصة لتعذيب نفسى ... وتلك حيلة مبتذلة، غالبا ما يلجأ إليها الأشخاص الذين حيل بينهم وبين سبل الهرب الأخرى، فيتراجعون إلى ملاذ آمن ، يتمثل فى نظرهم إلى أنفسهم باعتبارهم موضوعات لمأساة..

قالت سونوكو بصوت هادىء:

ـ لا تقلق، لن تلقى مصرعك ، وحتى لن تصاب بجرح خفيف ، فى كل ليلة سأصلى لليسوع من أجلك ، وصلواتى دائما مقبولة .

ـ أنت قوية الإيمان ، ألست كذلك؟ ربما هذا هو السبب فى أنك تحظين بمثل هذا السلام الذهنى ، إنه يخيفنى.

تساءلت ناظرة إلىّ بعينين سوداوين حكيمتين:

ـ ولِمَ؟

سقطت أسيرا بين نظرتها وسؤالها البرىء ، الخاليين كلاهما من الشك ، خلو قطرات الندى منه ، فغلبتنى الحيرة ، وعجزت عن التفكير فى رد، كنت حتى ذلك الوقت قد أحسست برغبة قوية فى هز هذه الفتاة ، التى بدت وكأنها غرقت فى نومها فى تلافيف سلامها الذهنى، أظل أهزها حتى تستيقظ ، لكنما نظرة عينيها هى التى أيقظت شيئا كان هاجعا فى أعماقى...

حان وقت ذهاب أختى سونوكو للمدرسة ، فأقبلتا لتوديعى، لم تكد الأخت الصغرى تمس راحة يدى وهى تقول إلى اللقاء ، وهرعت بالابتعاد عبر الأبواب، حاملة صندوق طعامها القرمزى ذى الابزيمين الذهبيين ، فى هذه اللحظة عينها تصادف أن أشرقت الشمس مطلة من بين الأشجار ، فرأيتها تلوح بصندوق طعامها لى عاليا فوق رأسها.

جاءت الأم والجدة معا لوداعى ، لذا كان فراقى لسونوكو

عند المحطة عابرا وبريئا، رحنا نتبادل النكات ونتصرف برباطة جأش، سرعان ما جاء القطار ، فاحتللت مقعدا إلى جوار النافذة، كانت فكرتي الوحيدة متمثلة في صلاة لرحيل القطار سريعا..

ناداني صوت صاف من اتجاه غير متوقع، يقينا كان صوت سونوكو، ونظرا لتعودى سماعه عن قرب أذهلني سماعه كصيحة بعيدة مطلقة السراح، تدفق إدراك أنه صوت سونوكو إلى قلبي كسنا الشمس في البكرة، حولت عينيّ نحو الاتجاه الذى جاء منه .. كانت سونوكو قد تسللت خلسة من بوابة الحمالين ، وتشبثت بالسياج الخشبى الأسود القريب من الرصيف، كانت كتلة من زخارف قميصها الخارجي منسربة من سترتها محكمة الإغلاق وترف مع النسيم، كانت عيناها المفعمتان بالحيوية تحدقان نحوى على اتساعهما ، شرع القطار فى التحرك، بدت شفتاها الثقيلتين هونا كما لو كانتا تشكلان كلمات، وعلى هذا النحو اختفت من أمام ناظرى.

سونوكو! سونوكو! رحت أكرر الإسم لنفسى ، مع كل اهتزازة من اهتزازات القطار ، رن غامضا على نحو لا يمكن اجتراح نطقه . سونوكو! سونوكو! مع كل تكرار يزداد قلبى ثقلا. مع كل نبضة من اسمها يتعملق إعياء قاطعاً ، مفعماً بالعقاب،

ممتدا، عميقا، وغائرا في أعماقي كان الألم الذي استشعره جليا، لكن طبيعته فريدة وعصية الإدراك ، حتى أنه ما كان بوسعي إيضاحها، وإن حاولت ذلك جاهدا ، كان بعيدا عن الدرب المطروق للانفعالات الإنسانية ، حتى أنني وجدت صعوبة في إدراكه باعتباره ألما، ولو أني حاولت وصفه لما كان بوسعي ألا أن أقول إنه ألم كذلك الذي يحسه شخص ينتظر في ظهيرة مشرقة هدير مدفع الظهر، وحينما يمر وقت إطلاق المدفع في صمت ، يحاول اكتشاف الخواء المنتظر في مكان ما من زرقة السماء. إن ألمه هو نفاد الصبر الممزق ، النابع من انتظار شيء طال الحنين إليه. وحل أوانه ، هو الشك المفزع في أنه قد لا يجيء في النهاية أبدا ، إنه الرجل الوحيد في الدنيا الذي يعلم أن مدفع الظهيرة لم يطلق عاجلا في منتصف النهار.

غمغمت لنفسي:

ـ انتهى كل شيء ، انتهى كل شيء.

حاكى حزني ذلك الحزن الذي يحس به طالب أخفق في اجتياز اختبار، فتصدع فؤاده: أخطأت! أخطأت! ببساطة لأنني لم أحل ذلك الطرف المجهول في المعادلة، أصاب الخطأ كل شيء . لو أنني أوجدت فحسب حلا لذلك الطرف المجهول، منذ البداية، لسار

كل شيء على مايرام ، لو أننى استخدمت تلك الطرق الاستدلالية التى يلجأ إليها الآخرون كافة لحل معادلات الحياة الرياضية. كان أسوأ ما فعلته أن سرت حتى المنتصف على درب المهارة والحذق، فقد اعتمدت وحدى على المنهاج الاستقرائى ، ولهذا السبب البسيط أخفقت.

كانت حالة الجيشان الذهنى التى أعانيها من الوضوح، حتى أن الراكبتين الجالستين فى المقعد المقابل شرعتا ترمقاننى فى تشكك. كانت إحداهما ممرضة بالصليب الأحمر، ترتدى زيا رسميا قاتم الزرقة ، والأخرى قروية فقيرة ، بدت أم الممرضة. حينما انتبهت لنظراتهما، ألقيت نظرة على الممرضة ، فرأيتها فتاة ممتلئة القوام ، لها بشرة محمرة مثل كرز الشتاء ، فاجأتها وهى تنظر إلىّ مباشرة ، ولتغطى ارتباكها شرعت تلاطف أمها:

ـ من فضلك يا أمى ، إننى جائعة.

ـ لا ، لايزال الوقت مبكرا.

ـ لكننى جائعة ، من فضلك، من فضلك!

ـ لا تكونى لجوجة هكذا!

لكن الأم استسلمت أخيرا، أخرجت صندوق طعامها، جعل بؤس محتوياته غذاءهما أكثر فظاعة ، حتى من الطعام الذى

يصرف لنا فى الترسانة، كان ثمة أرز مطبوخ فقط، وقد مزج بكثير من جذور القلقاس، وتبل بشريحتين من الفجل المخلل، لكن الفتاة شرعت فى ازدراده باستمتاع شديد.

لم تبد لى عادة تناول الطعام بشكل ما مثيرة للسخرية على هذا النحو، فركت عينى، وفى الحال أدركت أن وجهة نظرى تلك جاءت من فقدى للرغبة فى الحياة كلية.

حينما بلغت دارنا فى الضواحى تلك الليلة ، فكرت جديا في الانتحار ، للمرة الأولى فى حياتي، لكن الفكرة غدت مضجرة بصورة متفاقمة، حينما أمعنت التفكير فيها ، أخيرا انتهيت إلى أنها ستكون أمرا مضحكا. كنت أكن كراهية موروثة للإقرار بالهزيمة ، رحت أحدث نفسى بأنه إضافة إلى هذا ما من حاجة تدعونى إلى القيام بمثل هذا العمل الحاسم بنفسى، على الأقل ليس فى وقت يحيطنى فيه هذا الحصاد الوفير من ألوان الهلاك: موت فى غارة جوية ، موت فى موقع العمل، موت فى الخدمة العسكرية، موت فى الميدان ، موت بصدمة سيارة، موت من جراء الإصابة بمرض، يقينا أن اسمى قد أدرج فى إحدى هذه القوائم، والمجرم الذى صدر الحكم بإعدامه لا يقدم على الانتحار، لا ، أيا كان تقليبى للأمر ما كان الموسم مناسبا للانتحار، بالمقابل انتظرت مقدم شىء ما يسدى إلىّ جميل قتلى، ذلك فى التحليل النهائى

يعادل القول بأننى كنت فى انتظار شىء ما يسدى إلىّ جميل إبقائى حيا.

عقب عودتى للترسانة بيومين، تلقيت خطابا ملتهب العاطفة من سونوكو، لم يكن ثمة شك فى أنها غارقة فى هواى. أحسست بالغيرة. كانت غيرتى تحاكى تلك الغيرة عصية الاحتمال التى تشعر بها لؤلؤة صناعية نحو لؤلؤة طبيعية. أم ترى ثمة فى الدنيا شىء كشعور رجل بالغيرة من المرأة التى تحبه بسبب حبها ذاك على وجه الدقة؟..

كتبت تقول إنها، بعد وداعى بالمحطة ، ركبت دراجتها ، عادت إلى العمل، إلا أنها كانت شاردة إلى الحد الذى دفع زملاءها إلى سؤالها عما إذا كانت تشعر بتوعك، ارتكبت أخطاء عديدة فى وضع الأوراق بالملفات، ثم عادت إلى الدار لتناول طعام الغداء، لكن خلال عودتها إلى العمل عقب الغداء قامت بجولة مارة بأرض الجولف، حيث توقفت ، تلفتت حولها، وشاهدت موضع أزهار البابونج التى رقدت تماما كما تركناها، بعد أن داستها أقدامنا، عندئذ وفيما كان الضباب ينجاب لمحت جوانب البركان تلتمع متألقة بلون أكسيد الحديد المحروق، مطلة كأنما غسل الجبل غسلا، ورأت شجرتى البتولا الفضيتين مثلما شقيقتين عاشقتين وأوراقهما ترتعد ، كأنما رهبة من هاجس كالنذير..

وقد كنت في هذا الوقت بعينه في القطار أقدح زناد فكرى باحثا عن طريقة للإفلات من الحب ذاته الذى غرسته بنفسى فى قلب سونوكو!.. مع ذلك كانت ثمة لحظات أشعر فيها بالثقة وأسلم نفسى لحجة تبرير موقفى، التى كانت برغم بؤسها ربما أكثر قربا إلى الحقيقة ، كانت هذه الحجة متمثلة فى أن علىّ الهرب منها ، للسبب ذاته الذى أحببتها من أجله.

واصلت كتابة رسائل متتابعة لسونوكو، وبينما حرصت على ألا أقول شيئا يمكن أن يدفع الأمر قدما، استخدمت فى الوقت نفسه نغمة لا تفصح عن أى تراجع من جانبى. فى خلال أقل من شهر كتبت تخبرنى بأنهم سيمضون جميعا لزيارة كوسانو مرة أخرى فى الفوج، الذى نقل إليه قرب طوكيو، حثنى الضعف على مصاحبتهم ، ومن الغريب أننى ، رغم قرارى الحاسم بالهرب منها، كنت لا أزال مجتذبا على نحو لا يقاوم نحو لقاء آخر.

حينما التقيت بها تبينت أننى تغيرت تماما، فيما ظلت هى على ما كانت عليه دائما، غدا من المستحيل علىّ الآن إلقاء نكتة واحدة ، لاحظت سونوكو وكوسانو ، بل وحتى أمها وجدتها، التغير الذى طرأ علىّ، لكنهم عزوه إلى أنى جاد فى مقصدى، وخلال الزيارة أبدى كوسانو ملاحظة لى جعلتنى أرتجف ترقبا، رغم أنه طرحها بهدوئه المألوف :

ـ سأرسل لك فى غضون أيام قلائل خطابا بالغ الأهمية، فترقبه! هل ستحرص على ذلك؟..

بعد أسبوع مضيت لدار الضواحى ، حيث كانت العائلة تقيم ، فألفيت خطابه قد وصل كتب بذلك الخط الذى يميزه، ويفصح من خلال افتقاره للنضج ذاته عن إخلاص صداقته:

«... تبدى العائلة كلها اهتماما بك وبسونوكو، وقد عينت سفيرا مطلق الصلاحية في الأمر، وما يتعين عليّ قوله ليس كثيرا، أريد ببساطة أن أسألك عن شعورك حيال الأمر، من الطبيعى أن سونوكو تعتمد عليك، وكذلك الجميع أيضا، بل إن أمى شرعت فيما يبدو بالتفكير فى موعد الحفل. ربما كان الوقت لا يزال مبكرا بالنسبة لهذا ولكن أتصور إنه سيكون مما لا غبار عليه أن نمضى قدما ونحدد موعدا للخطوبة الآن، لكننا بالطبع نخمن فحسب ، ذلك هو السبب فى أننى أريد أن أسألك عن شعورك بإزاء الأمر. وترغب العائلة فى تسوية كل شىء، بما فى ذلك إجراء ترتيبات مع عائلتك، بمجرد تلقينا لرد منك لكنى بالتأكيد لا أقصد إجبارك على القيام بخطوة لست مستعدا لها بعد، وما عليك إلا أن تبلغنى بشعورك نحو الأمر، فأكف عن القلق بشأنه، وحتى إذا كان ردك سلبا، فلن يكون ذلك مأخذا عليك، كما لن يغضبنى منك، ولن يؤثر على صداقتنا، بالطبع سأسر إذا كان الرد إيجابا، لكن إحساسى لن

يجرح ، حتى إذا كان الرد بالسلب، ما أريده إنما هو ردك الصحيح، دونما ضغوط. آمل مخلصا أنك سترد، دونما شعور بالإرغام أو الإلتزام ، وفى انتظار ردك سأظل صديقك المخلص.......».

صعقت ، تلفت حولى ، وقد خالجنى شعور بأن أحدا ربما كان يرقبنى ، خلال قراءتى للخطاب.

أبدا لم يخطر لى قط على بال أن ذلك يمكن أن يحدث، لم أضع فى اعتبارى أن سونوكو وعائلتها قد يكون لهم موقف إزاء الحرب يختلف كثيرا عن موقفى. كنت طالبا، لما أبلغ الواحدة والعشرين بعد، وأعمل فى مصنع للطائرات (١). أضف إلى ذلك أنى فكرت كثيرا وقد نشأت عبر سلسلة من الحروب فى التقلب الرومانسى للحرب، غير أنه حتى فى غمار أوقات الكوارث العنيفة كتلك التى مضت بنا الحرب إليها كانت الإبرة المغناطيسية للأمور الإنسانية لا تزال تشير فى الاتجاه ذاته كعهدها أبدا. كنت حتى الآن أظن أننى غارق فى الحب، فلماذا لم أدرك أن الأمور اليومية ومسئوليات الحياة تمضى قدما حتى فى زمن الحرب؟

---

(١) كذا فى الأصل، لاحظ أن ميشيما أشار قبل سطور إلى العمل فى ترسانة بحرية لا فى مصنع للطائرات (هـ . م).

مع ذلك، وفيما كنت أعيد قراءة خطاب كوسانو، تلاعبت ابتسامة غريبة، واهنة، على شفتى، وأخيرا تنامى بداخلى شعور عادى تماما بالتفوق. رحت أحدث نفسى: إننى قاهر. إن شخصا لم يعرف السعادة يوما لا حق له أن يسخر منها، لكنى أفلحت فى اتخاذ مظهر السعادة، لم يستطع أحد أن يرصد فيه صدعا واحدا.. هكذا فإن من حقى أن أسخر منها كالآخرين.

رسمت ابتسامة شيطانية على شفتى، رغم أن قلبى فاض بقلق وأسى لا يوصفان، رحت أحدث نفسى بأن ما علىَّ القيام به هو القفز فوق عائق واحد صغير، كل ما علىَّ إتيانه هو النظر إلى الشهور القليلة الماضية باعتبارها عبثا، واتخاذ قرار بأنه من الآن فصاعدا لن تربطنى صلة الحب بفتاة اسمها سونوكو، ليس بمثل هذه الطفلة الصغيرة، وأن أومن بأن ما دفعنى هو عاطفة تافهة (يا للكاذب!) وأننى قد خدعتها، عندئذ لن يكون هناك سبب يدعونى إلى العجز عن رفضها، يقينى أن مجرد تبادل قبلة لا يلزمنى!..

أبهجتنى الخاتمة التى وصلت بى أفكارى إليها: «إننى لا أحب سونوكو».

يا له من شىء رائع! لقد أصبحت رجلا يستطيع إغواء امرأة، حتى بغير شعور بالحب نحوها، ثم حين يتوهج الحب فى أعماقها ، يتخلى عنها دون أن يعير الأمر كبير اهتمام. ما أبعد ما

كنت عن الطالب المتفوق المستقيم أخلاقيا والورع دينيا الذى كان مظهرى يوحى به ... مع ذلك ما كان ممكنا أن أكون جاهلا حقيقة أنه ليس هناك فاجر يتخلى عن امرأة دون أن يحقق غرضه أولا، لكنى تجاهلت مثل هذه الأفكار. كنت قد اكتسبت عادة صم أذنى تماما، شأن عجوز عنيدة عن أى شىء لا أرغب فى سماعه.

كان الشىء الوحيد الذى تمس الحاجة إليه هو الوصول إلى طريقة للإفلات من الزواج، وقد عكفت على هذه المهمة، تماما كما لو كنت عاشقا غيورا يتصدى للحيلولة دون إتمام الزواج بين الفتاة التى يهواها وشخص آخر.

كانت حديقة الخضر الشاسعة تتألق تحت أشعة شمس الصيف القوية . رفعت صفوف من ثمار البندورة والباذنجان رءوسها الظمأى نحو الشمس متحدية وعلى نحو حاد . واصلت الشمس سكب أشعتها الحارقة كثيفة على الأوراق قوية العروق. على امتداد البصر، كانت الوفرة القائمة لحياة الخضر تنسحق تحت الألق، الذى يهوى على الحديقة، امتدت أجمة من الأشجار ، فيما وراء الحديقة، حول ضريح كان يواجهنى على نحو كئيب، امتد وراء ذلك أرض سهلية كانت قطارات المترو تمضى عبرها دون أن يطالها النظر بين الفينة والفينة ، مفعمة أرجاء الريف بالاهتزازات. لقد ظل اندفاع لاه لعامود القاطرة المرتفع كان السلك يبقى

متأرجحا فى تكاسل، وهو يومض فى سنا الشمس.

فتحت النافذة ، وناديت أمى.

ردا على ندائى ارتفعت قبعة ضخمة من القش ومنديل ذو شرائط زرقاء من قلب حديقة الخضر. كانت أمى. أما خالى الذى يضع قبعة القش على رأسه ، وكان الشقيق الأكبر لأمى، فقد وقف ساكنا ومنحنيا، كأنه زهرة عباد شمس متهدلة، دون أن يلتفت للحظة ناحيتى.

فى غمار طريقة حياة أمى الآن لوحت الشمس بشرتها هونا ما، كان بمقدورى أن ألمح وميض أسنانها الناصعة، فيما هى تقبل نحوى، حينما اقتربت، بحيث يصلنى صوتها، نادتنى بصوت طفولى عالى النبرة:

ـ ماذا هناك؟ إذا كنت تريد محادثتى بشىء فتعال هنا!

ـ إنه أمر مهم، تعالى لحظة!

دنت أمى متمهلة، كأنها تسجل اعتراضها. كانت تحمل سلة مثقلة بالبندورة الناضجة، حينما بلغت الدار وضعت السلة على حافة النافذة، وسألتنى عما أريده.

لم أعرض الخطاب عليها، وإنما حدثتها باختصار عما يتضمنه، فى غمار حديثى نسيت سبب مناداتى لها، ربما كنت

أثرثر لأقنع نفسى فحسب، قلت لها إن من ستكون زوجتى سيتعين عليها يقينا أن تتحمل العيش فى الدار ذاتها مع أبى العصبى اللجوج، وإنه ليس ثمة أمل فى الحصول على دار منفصلة فى أوقات كهذه، إضافة إلى هذا فإنه من المحتمل أن توجد خلافات الدنيا بأسرها بين عادات عائلتنا العتيقة وما وصفته بأسرة سونوكو المتدفقة بالحياة التى تميل للمأخذ السهل للأمور، أما عنى فإننى لا أرغب فى تحمل قلق المسئولية عن زوجة بهذه السرعة... طرحت جميع هذه الاعتراضات المبتذلة ببرود، آملا أن تقرنى أمى، وتعارض فى عناد أى تفكير فى الزواج، لكنها كانت هادئة ومتسامحة كعهدها.

قاطعت حديثى ،كأنها لا تبدى اهتماما كبيرا بالأمر:

ـ تلك طريقة مضحكة للحديث، إذن ما هو شعورك حقا؟ أتحبها أم لا؟

غمغمت قائلا:

ـ بالطبع، فإننى أيضا ... طيب ... لكنى لم أكن جادا بشأن الأمر إلى هذا الحد على الإطلاق، لقد أخذت الأمر بين الجد والهزل فحسب، ثم أصبحت هى جادة، واجتذبتنى إلى منطقة الخطر.

ـ إذن ليست هناك مشكلة. أليس كذلك؟ كلما أسرعت فى إيضاح الأمر كان ذلك أفضل لكما معا، وفى النهاية فإن الخطاب يحاول فحسب تبين شعورك بالنسبة لهذا الأمر، فخير لك أن ترسل ردا واضحا ... سأعود . كل شيء على مايرام الآن. أليس كذلك.

أجبت بتنهيدة قصيرة:

ـ إحم.

مضت أمى حتى البوابة المصنوعة من الخيزران، التى ينمو القمح حولها، ثم عادت مسرعة فى عصبية إلى النافذة حيث كنت، كان التعبير الذى يعلو ملامحها الآن مختلفا.

حدجتنى بنظرة غريبة، كأنها امرأة غريبة تنظر نحوى للمرة الأولى :

ـ إصغ ، فيما يتعلق بما كنا نتحدث عنه توا، فيما يتعلق بسونوكو، أنت ... هى ... لو أنكما كنتما ... طيب ...

أدركت ما تقصد ، ضحكت، وقلت:

ـ لا تكونى حمقا، يا أمى ، أتعتقدين أننى أتيت أمرا كهذا؟ هل ثقتك بى محدودة إلى هذه الدرجة؟

شعرت بأننى لم أضحك قط بهذه المرارة .

عادت إلى مدونها المرح، مخفية حرجها، وقالت :

ـ أوه . كنت أعلم ، لكنى فقط أردت التأكد ، هذا هو واجب الأمهات .... أن يقلقن بشأن مثل هذه الأمور، لا عليك، إنى أثق بك...

فى تلك الليلة سطرت خطاب رفض غير مباشر، بدا مصطنعا ، حتى بالنسبة لى. كتبت أقول إن الأمر كان مفاجئا للغاية، وإن مشاعر لم تمض إلى هذا الحد تماما.

فى طريق عودتى إلى الترسانة وصباح اليوم التالى توقفت عند مكتب البريد لأرسل الخطاب، نظرت المرأة الجالسة أمام شباك البريد المسجل فى تشكك إلى يدى المرتعدتين. رحت أحدق فى الخطاب وهى تمسك به بيديها الخشنتين القذرتين وتختمه بحذق، استشعرت راحة لدى رؤية تعاستى تعالج بمثل هذه الطريقة العملية الموفقة.

غيرت الطائرات المعادية أهدافها الآن ، أخذت تهاجم المدن والبلدان الأصغر، بدا الأمر وكأن الحياة قد اعتقت من الخطر كله ، غدت وجهات النظر المتعاطفة مع الاستسلام شائعة فى صفوف الطلاب، شرع أحد الأساتذة المساعدين الشبان فى طرح إيماءات موحية إلى السلام ، محاولا اكتساب رضا الطلاب. لدى رؤيتى

للطرف المتشامخ لأنفه القصير، فيما هو يعبر عن أكثر وجهات النظر إثارة للتشكك رحت أحدث نفسى قائلا: «لا تحاول خداعى!». وكنت ، من ناحية أخرى ، أزدرى المتعصبين ، الذين لا يزالون يؤمنون بالانتصار. تساوى عندى أن ننهزم في الحرب أو ننتصر. كان الشيء الوحيد الذى أريده هو بدء حياة جديدة.

فيما كنت فى زيارة للدار بالضواحى ، أصبت بحمى شديدة الوطأة ومجهولة السبب، رقدت محدقا فى السقف ، الذى بدا وكأنه يدور بتأثير الحمى ، رحت أردد اسم سونوكو لنفسى بلا انقطاع ، كأنه تعويذة مقدسة ، حينما تمكنت أخيرا من مبارحة الفراش سمعت نبأ تدمير هيروشيما.

كانت تلك فرصتنا الأخيرة، ردد الناس أن طوكيو ستكون الهدف التالى. إرتديت قميصا أبيض وسراويل قصيرة، وجبت الشوارع، بلغ الناس حدود اليأس، وأصبحوا يعكفون الآن على أمورهم بوجوه مرحة، بين لحظة وأخرى كان الشيء المرتقب يواصل الغياب، سادت استثارة مرحة كل مكان، وكنت كمن يواصل نفخ بالون منتفخ بالفعل ويتساءل:

«ترى أينفجر الآن؟ ترى أينفجر الآن؟» ومع ذلك لايقع شيء بين لحظة وأخرى . دامت هذه الحالة عشرة أيام تقريبا، ولو أنها استمرت أكثر من ذلك لما أمكن أن يحدث شيء إلا أن يجن المرء .

ذات يوم شقت بعض الطائرات المموهة طريقها ، عبر نيران المدفعية المضادة الخرقاء، أمضرت من سماء الصيف منشورات دعائية، وقد تضمنت أنباء عن مقترحات الاستسلام، فى ذلك المساء أقبل أبى من مكتبه مباشرة إلى الدار بالضواحى ، عبر الحديقة، تحدث فور جلوسه فى الشرفة .

قال :

ـ إصغ !

أرانى نسخة من النص الانجليزى الأصلى، كان قد حصل عليها من مصدر موثوق به.

أمسكت النسخة بيدى، ولكن حتى قبل أن يتاح لى الوقت لقراءتها كنت قد أدركت بالفعل صحة الأنباء. لم تكن صحة الهزيمة، إنما بالنسبة لى ـ بالنسبة لى وحدى ـ كانت تعنى أن أياما مخيفة تبدأ الآن، كانت تعنى أنه ، شئت أم أبيت ، وعلى الرغم من كل شىء خدعنى، ودفعنى إلى الإعتقاد بأن مثل هذا اليوم لن يأتى أبدا ، فإن علىّ أن أبدأ فى اليوم التالى ذاته تلك «الحياة اليومية» التى يعيشها عضو المجتمع الإنسانى. ولشد ما جعلتنى الكلمات ذاتها أرتعد!

الفصل الرابع

خلافا لتوقعاتى، لم تلح أدنى إمارات بداية تلك الحياة اليومية التى كنت أرهبها، بدا الأمر كما لو أن البلاد كانت غارقة فى ضرب من الحرب الأهلية، لاح الناس وكأنهم يبدون اهتماما أقل بالغد عما كانوا يفعلون خلال الحرب الحقيقية.

أعفى رفيق الدراسة الذى أقرضنى الزى الجامعى من الجيش، فأعدته إليه، عندئذ اعتادنى لبعض الوقت وهم التحرر من إسار الذكريات، من ربقة ذكريات ماض بأسره.

ماتت أختى ، فنالتنى لمسة من راحة ذهنية ، نبعت من اكتشافى أن إنسانا مثلى بوسعه أن يسفح الدمع.

خطبت سونوكو رسميا، وسرعان ما تزوجت إثر وفاة أختى، أتراني أصيب كبد الحقيقة حين أقول بأن رد فعلى إزاء هذا الحدث كان شعورا بأن وقرا أثقل كاهلى قد رفع عنى؟ تظاهرت أمام نفسى بأنى مسرور لذلك، وتفاخرت بإزائها بأن ذلك لا يعدو أن يكون أمرا طبيعيا، حيث أننى أنا الذى نبذتها، لا هى.

كنت أصر منذ وقت طويل على تفسير الأمور، التى يجبرنى القدر على إتيانها ، باعتبارها انتصارات لإرادتى وذكائى، الآن

نمت هذه العادة السيئة، فغدت صلفا مجنونا. كمنت، في غور ما كنت أدعوه بذكائي ، لمسة من شيء غير مشروع، لمسة من الدعي الدجال الذي اعتلى العرش من خلال صدفة نادرة، وما كان بوسع هذا الدعي الأبله أن يتنبأ بالانتقام الذي سيحل لا محالة بطغيانه الأحمق.

أمضيت العام التالي بمشاعر غامضة، متفائلة ، كانت هناك دراساتي للقانون، التي رحت أمارسها دونما حماس، وترددي جيئة وذهابا على الجامعة .. لم أكن أكترث بشيء، ولم يكن شيء يبدي اهتماما بي. اكتسبت ابتسامة مجرب، كتلك التي ترتسم على شفتي كاهن شاب، راودني شعور بأني لا أموت ولا أحيا، بدت رغبتي السابقة في الموت الانتحاري الطبيعي والعضوي وكأنها قد تآكلت تماما، وأدركها النسيان.

الألم الحق يقبل تدريجيا فحسب ، إنه كالسل تماما، من حيث أن المرض يكون قد تمكن من المريض ، قبل أن يدرك أعراضه.

ذات يوم توقفت في مكتبة، حيث كانت إصدارات جديدة تعاود الظهور بالتدريج، تصادف أن وقعت في يدي ترجمة ذات غلاف ورقي خشن، كانت مجموعة من عبارات بليغة لكاتب فرنسي، فتحت الكتاب بصورة عشوائية، وأمام عيني احترق أحد السطور، إقتحمني شعور حاد بعدم الارتياح، فأجبر ني على طي الكتاب وإعادته إلى الرف.

صباح اليوم التالى، فى طريقى إلى الكلية ، تملكنى شىء ما فأرغمنى على التوقف عند المكتبة ذاتها، التى كانت قريبة من البوابة الرئيسية للجامعة، وابتياع الكتاب الذى رأيته خلسة، وضعته أمام كراستى المفتوحة، وطاردت السطر ذاته عبر الصفحات ، الآن جعل هذا السطر شعورا أكثر تدفقا بالقلق ينتابنى بالمقارنة بشعور الأمس:

... إن معيار قوة امرأة ما هو درجة المعاناة التى يمكن أن تعاقب بها عاشقها.

كان لى صديق بالجامعة يربطنى الود به، كانت أسرته تمتلك حانوتا عريقا لصنع الحلوى، للوهلة الأولى بدا طالبا مجدا ، لا يثير الاهتمام، أثارت النغمة الساخرة التى كان يستخدمها فى مواجهة الناس والحياة ، وكذلك بنيته الهشة المماثلة لتركيبى الجسدى، انجذابا متعاطفا فىّ نحوه، لكن فيما كانت نزعتى الكلبية تنبعث من رغبة خلق الانطباع بهذا عنى، وكانت موجهة للدفاع عن الذات ، فإن الموقف ذاته عنده بدا وكأنه يضرب جذوره فى شعور أكثر تجذرا بالثقة فى النفس، رحت أتساءل عن المصدر الذى يستمد منه ثقته، بعد انقضاء بعض الوقت خمن أنى لست على خبرة بالنساء ، فاعترف لى ، وهو يتحدث فى مزيج من الاستعلاء الغلاب واحتقار الذات، بأنه يرتاد المواخير، ثم مالبث أن

عبر عن مشاعرى إزاء هذا الموضوع.

ـ ... هكذا فإن أحببت الذهاب ذات مرة فما عليك إلا مكالمتى هاتفيا، وسأصحبك إلى هناك فى أى وقت.

أجبت قائلا: إذا أحببت الذهاب ، ليكن ... ربما ... سأحسم رأيى قريبا.

بدا مرتبكا، لكنه رغم ذلك لاح مبتهجا بالفوز ، عكس التعبير الذى ارتسم على ملامحه شعورى بالخجل، بدا كما لو كان يتفهم تماما حالتى الذهنية، وأنه يتذكر ذلك الوقت الذى عايش فيه على وجه الدقة المشاعر ذاتها، إنتابنى الضيق، كان هناك ذلك الشعور القلق غائر الأعماق فىّ بالفعل بالرغبة فى أن أحس بالإحساس الذى يظن أنى أعيشه.

ليس الاحتشام المفرط إلا شكلا من أشكال الأنانية وسبيلا لحماية الذات ، تقتضيه قوة رغبات المرء ، لكن رغباتى الحقيقية كانت مغرقة فى السرية، حتى أنها ما كانت لتسمح لى حتى بهذا العكوف على الذات، وفى الوقت ذاته سمحت لى رغبات خيالية، أى فضولى البسيط والمجرد بشأن النساء ، بتلك الحرية الباردة التى تجذرت حتى لم تسمح بمجال لهذه الأنانية فى تلك الرغبات الخيالية بدورها ، ليست هناك فضيلة فى الفضول، بل إنه فى الحق

قد يكون أكثر الرغبات التى تنتاب الرجل تجردا من الأخلاق.

ابتدعت ممارسة سرية بائسة، كان قوامها اختبار رغبتى ، بالتحديق فى ثبات إلى صور نسوة عاريات .. كانت رغبتى ، كما يسهل التصور، لا ترد بالإيجاب أو السلب، لدى انغماسى فى عادتى السيئة تلك كنت أحاول ضبط رغبتى، أولا من خلال كبح جماح أحلام يقظتى، ثم عقب ذلك باستدعاء صور عقلية لنسوة فى أكثر الأوضاع فحشا عنوة، فى مرات بدت جهودى مكللة بالنجاح ، لكن الزيف كان يكتنف هذا النجاح ، فيسحق قلبى سحقا، ويحيله رمادا.

وصلت إلى القناعة بأن الأمر غدا قضية حياة أو موت، اتصلت هاتفيا بصديقى، طلبت منه مقابلتى فى أصيل يوم من أيام الآحاد، فى الساعة الخامسة، عند أحد مشارب الشاى ، كان ذلك فى حوالى منتصف يناير فى العام الثانى لانتهاء الحرب.

ضحك مبتهجا عبر الهاتف، قال:

ـ هكذا حسمت الأمر أخيرا؟ ليكن ، سأكون هناك، إسمع، سأكون هناك بالتأكيد ، لن أسامحك إذا لم تأت...

بعد أن وضعت سماعة الهاتف فى موضعها، ظل صوته الضاحك يتردد فى مسمعى ، كنت أدرك أننى عجزت عن مقابلة

ضحكه إلا بابتسامة حفية متشنجة، رغم ذلك شعرت بشعاع من الأمل ، أو فلنقل قناعة خرافية، كانت خرافة خطرة، فالغرور وحده يجعل الناس يركبون المخاطر، وفى حالتى كان الغرور المألوف القائم على رغبتى في ألا يعرف عنى أننى لا خبرة لى بالنساء فى الثانية والعشرين من عمرى.

الآن فيما أتفكر فى الأمر، أذكر أنى فى يوم ميلادى قررت على هذا النحو أن أتجلد لمواجهة هذا الاختبار.

حدق أحدنا فى الآخر، كما لو كان كل منا يحاول سبر غور ذهن الآخر، اليوم أدرك صديقى بدوره أن وجها متجهما أو ابتسامة عريضة سيكونان بلا معنى بالدرجة ذاتها، فراح يمج دخان السيجارة مسرعا من شفتيه، اللتين تجردتا من أى تعبير ، عقب كلمات تحية قلائل شرع فى الحديث بصورة غير شخصية، عن النوعية المتدنية للحلوى التى تقدم فى هذا المشرب. لم أكن أصغى إليه ، فقاطعت ملاحظاته:

ـ أتساءل عما إذا كنت قد حسمت رأيك بدورك ، أتساءل عما إذا كان الشخص الذى يصحب أحدا لمثل هذا المكان للمرة الأولى يصبح صديقا طوال الحياة أو عدوا على امتدادها.

ـ لا تخيفنى ، تعلم أى جبان أنا ، ولست أدرى كيف أقوم

بدور العدو طوال الحياة .

خففت وطأة الحديث ، قاصدا، مدعيا الشجاعة.

قال، وقد بدا جادا ، كأنه رئيس لإحدى اللجان : طيب ، إذن ، علينا أن نمضى إلى مكان ما لنحتسى شرابا فالأمر لا يثقل على المبتدىء إذا كان مخمورا .

شعرت بوجنتى تتثلجان ، فقلت:

ـ لا ، لا أريد شرابا، سأذهب دون احتساء كأس واحد، فأعصابى ستكون متماسكة بدونه.

فى تتابع سريع توالت مسيرة بعربة كابية ، محطة مرتفعة غير مألوفة ، شارع غريب، منعطف اصطفت عنده البنايات السكنية المهلهلة، وأضواء وردية وحمراء ، بدت وجوه النساء تحتها منتفخة . كان العملاء يمضون على امتداد شارع رطب ، يمر أحدهم بالآخر صامتا ، ووقع أقدامهم مكتوم ، كأنهم حفاة ، لم أشعر بأدنى رغبة ، لم يكن هناك ما ينخسنى الآن غير شعور بعدم الارتياح ، تماما كما لو كنت طفلا يتبهل من أجل الحصول على وجبة خفيفة فى الأصيل .

قلت : سيفى أى مكان بالغرض ، سيفى أى مكان بالغرض ، أقول لك .

شعرت كما لو كنت أرغب فى التحول عائدا والإسراع بالهرب من الأصوات الخشنة الاصطناع للنسوة اللاتى يقلن: توقف لحظة يا حبيبى، انتظر لحظة فحسب أيها الحبيب...

ـ الفتيات فى هذه الدار خطرات ... أتروقك هذه؟ يا إلهى، أى وجه هذا! لكن تلك الدار ـ على الأقل ـ آمنة بصورة طيبة.

قلت : الوجه لا يخلق فارقا.

ـ ليكن ، إذن ، سآخذ الفتاة الجميلة لمجرد تحقيق فارق ، لا تحسدنى على ذلك فيما بعد!

لدى مقدمنا، هبت المرأتان ، كما لو كان شيطان قد تملك ناصيتهما، دلفنا إلى الدار ، التى كانت من الصغر بحيث أن رءوسنا بدت كما لو كانت تمس السقف فيما كنا ندخل، اقتادتنى المرأة النحيلة ذات اللهجة الريفية، وهى تبتسم مفترة عن أسنانها الذهبية ولثتها، إلى غرفة صغيرة ذات ثلاث حشايا.

دفعنى شعور بالواجب إلى معانقتها، أمسكت بها بين ذراعى ، أوشكت على تقبيلها، فاهتز كتفاها الثقيلان فى جنون الضحك.

ـ لا تفعل هذا! سيلطخك أحمر الشفاه، هكذا.

فتحت العاهرة فمها الواسع وأسنانها الذهبية التى يؤطرها

طلاء الشفاه، أبرزت لسانها القوى كالعصا، حذوت حذوها ، أبرزت لسانى أيضا ، فتسافد طرفا لسانينا...

ربما لن يفهمنى أحد حينما أقول إنه كان هناك خدر يحاكى ألما وحشيا، شعرت بجسدى كله يصيبه الشلل ، إذ يخترمه ألم من هذا النوع، ألم حاد، رغم ذلك لا يمكن الشعور به على الإطلاق ، أسقطت رأسى على الوسادة.

بعد عشر دقائق لم يعد هناك شك فى عجزى ، اصطكت ركبتاى ، لفرط شعورى بالعار.

أعتقد أن صديقى لم يساوره شك فيما حدث، خلال الأيام القليلة التالية أسلمت نفسى على نحو مذهل لمشاعر النقاهة المريرة، كنت كمن يعانى مرضا مجهولا، ويعذبه الخوف، ذلك أن مجرد معرفته باسم مرضه ، حتى وإن كان لا علاج له ، يمنحه شعورا مدهشا بسكينة عابرة، رغم ذلك فإنه يعرف تماما أن هذه السكينة عابرة، أضف إلى ذلك أنه يستشعر فى قلبه يأسا أعمق، لا نجاة منه، يمنح بطبيعته ذاتها شعورا أكثر دواما بالسكينة، لربما توقعت بدورى ضربة أكثر استحالة من حيث إمكانية تجنبها، أو إذا شئنا التعبير عن الأمر على نحو آخر لقلنا إنى كنت أتوقع شعورا لا نجاة منه بصورة أكبر بالسكينة.

التقيت بصديقى فى الأسابيع التالية بالكلية مرات عديدة ، لكن أيا منا لم يشر لهذا الحادث. عقب شهر من وقوعه ، أقبل ذات مساء لزيارتى ، مصطحبا طالبا آخر، هو من بين معارفنا المشتركين، كان اسمه يبدأ بحرف «ت». وكان من المولعين بالنساء، يجتاحه الغرور ، فيتباهى دائما بأن بوسعه الإيقاع بأية فتاة فى خمس عشرة دقيقة، سرعان ما تحولت دفة حديثنا إلى الموضوع الذى يخصنى .

قال «ت». محدقا فىّ عن كثب : لم يعد بمقدورى مواصلة الحياة دون هذا الشىء ببساطة لم أعد أستطيع التحكم فى نفسى، وإذا كان أى من أصدقائى عاجزا فإنى أحسده حقا ، بل وأنحنى أمامه .

رأى صديقى لون وجهى يتبدل، فحول الحديث إلى موضوع جديد مخاطبا «ت»، قال:

– لقد وعدت بإعارتى أحد كتب مارسيل بروست ؟. أتتذكر ذلك ؟ أهو كتاب مثير؟

قال «ت». مستخدما الكلمة الأجنبية: أقول بأنه مثير، فبروست لوطى ، وكانت له غراميات مع الخدم.

تساءلت : «ما معنى لوطى؟» أدركت أنى باصطناعى الجهل

كنت أضرب الهواء بمخالبى ، يائسا، متشبثا بهذا السؤال الصغير لأتماسك ، محاولا التوصل إلى مفتاح لأفكارهما، إلى إشارة ما تنم عن أنهما لم يتشككا فى فضيحتى.

ـ اللوطى هو اللوطى ، ألا تعلم ، إنه «دانشوكوكا».

ـ أوه ... لكنى لم أسمع أبدا أن بروست كان كذلك.

كان بوسعى أن أحدس أن صوتى يرتجف، لو بدا الضيق علىّ لكان ذلك مماثلا لتقديم دليل إيجابى لرفيقىّ، خجلت من قدرتى على الاحتفاظ بمظهر كهذا المظهر المخجل، القائم على التجاهل ، كان من الجلى أن صديقى قد اشتم سرى بشكل ما. بدا لى أنه يفعل كل ما بوسعه ليتجنب النظر إلى وجهى.

أخيرا غادر زائراى الرجيمان الدار فى الساعة الحادية عشرة، فأغلقت الباب على نفسى، لأقضى ليلة مؤرقة فى غرفتى، بكيت منتحبا، إلى أن طافت بى تلك الرؤى المخضبة بالدماء، لتحمل لى العزاء، عندئذ أسلمت نفسى لها، لتلك الرؤى الوحشية على نحو مقيت ، التى كانت أكثر أصدقائى حميمية وقربا منى.

كان بعض التغيير أمرا ضروريا، فبدأت بصورة معتادة فى ارتياد اللقاءات التى تشهدها دار صديق قديم، عارفا بأنها لن تترك شيئا فى ذهنى إلا ذكرى الحوار البليد والمذاق الماسخ لما بعد

الأحداث، كنت أذهب إلى هناك، لأن أولئك المترددين على هذه الحفلات من علية القوم ـ على عكس رفاق الدراسة ـ على قدر من الود، وكان من اليسير التعرف بهم ، كان من بينهم العديد من الشابات المتكلفات ، مغنية سوبرانو شهيرة، عازفة بيان متفتحة كالزهرة ، والعديد من الزوجات الشابات اللاتى لم يتزوجن إلا حديثا. كان هناك الرقص وقليل من الشراب، والقيام بألعاب سخيفة، من بينها ضرب مثير قليلا من ضروب لعبة المطاردة، وفى بعض الأحيان كانت الحفلات تستمر حتى الفجر.

كنا نجد أنفسنا فى الساعات الأولى للصباح، وقد داهمنا النعاس، فيما نحن نرقص، ولكى نبقى على يقظتنا كنا نمارس لعبة . تعتمد على إلقاء الوسائد على أرض القاعة والرقص حولها فى دائرة ، إلى أن يتوقف الحاكى فجأة، عند هذه الإشارة كان علينا أن نجلس كل اثنين منا على وسادة، ومن يفشل فى العثور على وسادة يجلس عليها كان عليه أن يؤدى عملا بهلوانيا، وكان الراقصون يحدثون جلبة عظيمة وهم يلقون بأنفسهم متكومين على الوسائد، مع احتدام اللعبة لتكرارها مرارا عديدة كان الجميع ـ حتى النساء ـ يفقدون اهتمامهم بمظهرهم.

لربما كان الأمر يرجع إلى أن أجمل الفتيات كانت مخمورة قليلا، لكنى أذكر أنى رأيتها ذات مرة تضحك، على نحو مثير، دون

أن تلاحظ أنه فى غمرة الاضطراب الناشىء عن السقوط على الوسائد ، ارتفعت تنورتها عاليا، فانبلج فخذاها، كان لحم فخذيها يتألق بياضا، ولو أن ذلك حدث قبل وقت قصير لربما قلدت النحو الذى يخجل به الشبان الآخرون من رغبتهم ، فى مثل هذه المواقف، وباستخدام كل مهارتى فى تمثيل دور لم أنسه للحظة واحدة، كنت سأشيح بناظرىّ على الفور، لكنى تغيرت منذ هذا اليوم، فدون أدنى شعور بالخجل، أو بالأحرى دون أدنى خجل فى أعماق صفاقتى المتصلبة، رحت أحدق فى هذين الفخذين بهدوء، كأننى أفحص مادة جامدة.

فجأة أصابنى ذلك الألم القابض، الذى ينبع من التحديق لوقت أطول مما ينبغى فى شىء ما ، صاح بى الألم: لست بشرا، إنك كائن عاجز عن التفاعل الاجتماعى، لا تعدو أن تكون مخلوقا لا إنسانيا، تدعو إلى الرثاء، على نحو غريب.

كان وقت التأهب لامتحانات الخدمة المدنية قد أزف، لحسن الحظ، وكان على أن أكرس كل طاقاتى لدراسة جافة كالتراب استعدادا لاجتيازها، مكننى هذا بصورة تلقائية جثمانيا وذهنيا من إبعاد الأمور الأكثر تعذيبا عنى ، لكن هذا التنصل لم يكن فعالا إلا لفترة قصيرة فى البداية.

عاودنى ذلك الشعور بالإخفاق، الذى ثار فىّ تلك الليلة

تدريجيا، انتشر إلى كل منعطفات حياتى، فأصابنى الاحباط، ولأيام بطولها عجزت عن مد يدى إلى أى شىء، بدت الحاجة إلى أن أبرهن لنفسى على أننى أتمتع بضرب من القوة أكثر إلحاحا كل يوم، بدا أنه من المستحيل أن أواصل الحياة دون مثل هذا البرهان ، مع ذلك لم أستطع أن أكتشف فى أى مكان مفتاح غرابتى الكامنة فى أغوارى، لم تتح هناك فرصة لإشباع رغباتى غير العادية حتى فى أكثر صورها اعتدالا.

أقبل الربيع. تصاعدت عصبية مسعورة خلف واجهة الهدوء التى كنت أصطنعها، بدا كما لو أن الفصل ذاته يناصبنى العداء ، معبرا عن عدائه برياحه المتربة، ولو أن سيارة أوشكت أن تدهمنى لعنفتها بصوت عال قائلا: طيب ، لم لا تمضين فتمرين فوقى!

سرتنى الدراسة الشاقة والوجود الأسبرطى الذى فرضته على نفسى ، فى بعض اللحظات خلال دراستى كنت أتريض ، غالبا ما كنت أدرك أن الناس ينظرون متسائلين إلى عينى الحمراوين، حتى حين كان من يرانى يعتقد أنى أراكم يوما حافلا بالاجتهاد فوق آخر، كنت أعلم فحسب ذلك الإرهاق القارض الذى يتخذ من الانحدار والتحلل والبلادة مطلقة التعفن قواما له ، وطريقة للحياة لا تعرف الغد سبيلا . لكن ذات

أصيل وفى نهاية الربيع كنت فى حافلة، فجأة شعرت بخفقة قلب حادة، بدت أنفاسى معها وكأنها قد توقفت.

كان ذلك لأنى. فيما كنت أنظر إلى الركاب الواقفين بالحافلة، لمحت سونوكو، جالسة على الجانب الآخر من الحافلة. هناك، تحت حاجبيها الطفوليين ، كان بوسعى أن أرى عينيها المخلصتين الوادعتين، برقتهما التى لا سبيل إلى وصف عمقهما، كنت على وشك النهوض حينما ترك أحد الركاب الواقفين النطاق المطاطى الذى كان ممسكا به، وشرع فى التحرك نحو باب النزول، عندئذ تكشف وجه الفتاة، لم تكن سونوكو.

قلبى كان لايزال على اهتياجه، كان يسيرا أن أوضح لنفسى أن خفقات القلب تلك كانت راجعة إلى المفاجأة، أو إلى الضمير المثقل بالذنب، غير أن مثل هذا الإيضاح ما كان بوسعه أن يطيح بنقاء الشعور الذى عايشته للحظات، فتذكرت للتو المشاعر التى خالجتنى عند مشاهدة سونوكو، ذات صباح فى شهر مارس ، كان الأمر تماما كما عشته الآن، الشىء ذاته، الأمر عينه، حتى فيما يتعلق بذلك الشعور بالأسى الذى اخترم قلبى.

أصبحت هذه الحادثة الهينة أمرا لا ينسى، فأيقظت خلال الأيام القليلة التالية فيضا من الاستثارة فى أعماقى. من المؤكد

أننى لا يمكن أن أكون على عشقى لسونوكو، من المحقق أننى عاجز عن عشق النساء ، حتى اليوم السابق كانت تلك القناعات أتباعى المطيعين، والموثوق بهم الوحيدين، الذين كنت على يقين من ولائهم، أما الآن فإنهم بدورهم يتمردون علىّ.

بهذه الطريقة استبدت بى ذكرياتى فجأة، كان انقلابا اتخذ شكل عذاب محض، فجأة تعملقت الذكريات «التافهة» التى كان علىّ أن أزيلها تماما، وألقى بها بعيدا، قبل عامين، استردت الحياة على نحو غريب أمام ناظرىّ ، تماما مثل ابن سفاح نسى أمره، ثم عاد وقد اكتمل نموه، لم تكن هذه الذكريات مشوبة بأجواء «العاطفة الرقيقة» التى افتعلتها، فى تلك المناسبات العديدة، أو بذلك المناخ العملى، الذى استخدمته فيما بعد للتخلص منها، وإنما كانت ممتزجة بمناخ واحد قاطع، قوامه العذاب، ولو أن الشعور الذى خالجنى كان إحساسا بالندم لكان بوسعى التوصل إلى سبيل لاحتماله ، بالسير على الدرب ذاته الذى أثاره من سبقونى إلى مثل هذا الموقف ، لكن ألمى كان عذابا جليا، وليس ندما غائما، كان الأمر كما لو أجبرت على التحديق من نافذة في انعكاس ألق شمس الصيف ، الذى يقسم الطريق إلى مفارقة حادة بين الشمس والظل .

ذات أصيل غائم، خلال موسم المطر، تصادف أنني كنت أسير في حي أزابو في مهمة، وكان حيا من أحياء المدينة نادرا ما طرقته ، فجأة ناداني أحدهم من خلفي ، كانت سونوكو، حينما التفت وأبصرتها، لم تعترني الدهشة ، على نحو ما حدث لي في الحافلة. حينما خلطت بينها وبين فتاة أخرى. بدا هذا اللقاء طبيعيا تماما كأنني تنبأت به طوال الوقت، أحسست بأنني كنت أعرف كل شيء عن هذه اللحظة منذ وقت طويل.

كانت ترتدي رداء بسيطا، تحليه زهور نمطية كتلك التي تحلي أوراق الجدران الراقية، ولا تتحلى إلا بقلادة ، تتدلى على فتحة الرداء عند الصدر، لم يكن هناك ما ينم عن أنها أصبحت الآن امرأة متزوجة . ربما كانت عائدة إلى الدار ، إثر الحصول على حصص الطعام ، التي توزع بالبطاقات، حيث كانت تحمل دلوا، وتتبعها كذلك خادم عجوز تحمل دلوا آخر، صرفت الخادم إلى الدار، وسارت متجاذبة أطراف الحديث معي.

ـ أصبحت أنحف قليلا، أليس كذلك؟

ـ آه . بسبب العكوف على الدراسة تمهيدا لاجتياز الامتحانات.

ـ هكذا ؟ اعتن بصحتك!

سادنا الصمت لبعض الوقت، تسللت أشعة الشمس الرقيقة إلى الشارع الهادىء، الذى أفلت من القصف، إنسلت بطة مبللة بالماء من باب أحد المطابخ، مضت صاكة بصياحها السمع عبر الوحل أمامنا، شعرت بالسعادة.

تساءلت : ماذا تقرأين هذه الأيام؟

ـ أتعنى الروايات؟ طيب ، قرأت رواية تانيزاكى «البعض يفضلون الأشواك» ثم... قاطعتها: «ألم تطالعى ......؟» وذكرت اسم رواية كانت ذائعة وقتها.

قالت: تلك التى تعلو غلافها امرأة عارية؟

قلت مندهشا: أوه؟

ـ إنها مثيرة للاشمئزاز، صورة الغلاف تلك.

قبل عامين ما كان بمقدورها أن تنظر فى وجه أحد وتقول «امرأة عارية». جلبت حقيقة أنها استخدمت هاتين الكلمتين، وهى حقيقة تافهة فى ذاتها، إدراكا واضحا، على نحو مؤلم، معها، لكون سونوكو لم تعد تلك الفتاة الخفرة التى عرفتها.

توقفت، حينما بلغنا منعطفا، وقالت: هنا ينبغى علىّ الانصراف، فدارى فى نهاية هذا الشارع.

استشعرت ألما إزاء فكرة مفارقتها، نكست رأسى، تطلعت إلى الدلو الذى كانت تحمله، كان مليئا بالكنياكو، كتلة هلامية رجراجة، تسبح فى سنا الشمس، تبدو كجلد امرأة، لوحته الشمس على شاطىء البحر.

قلت: سيفسد الكنياكو، فلا يعود بالوسع تناوله، إذا تركته فى الشمس طويلا.

ردت سونوكو بصوت عال ضاحك: هذا صحيح ، إنها مسئولية كبيرة.

ـ طيب ، إلى اللقاء.

ـ نعم، حظا سعيدا .

قالتها ، وشرعت فى المسير بعيدا .

ناديتها ، سألتها عما إذا كانت تذهب لزيارة عائلتها، ردت فى يسر بأنها ستذهب إلى هناك يوم السبت المقبل.

افترقنا، للمرة الأولى لاحظت شيئا مهما، بدت اليوم وكأنها قد صفحت عنى ، لماذا غفرت لى؟ أيمكن أن تكون هناك إهانة أعظم من مثل هذه الشهامة؟ حدثت نفسى بأن ألمى قد يكف إذا ما أهانتنى إهانة جلية مرة أخرى.

تثاقل يوم السبت فى إقباله، كان كوسانو يدرس فى جامعة كيوتو، ولكن شاء الحظ أن يعود للدار فى زيارة عائلية، فمضيت لمقابلته أصيل يوم السبت.

فيما كنا نتبادل الحديث، سمعت صوت عزف بيان، لم يكن العزف متعثرا كعهدى به حينما كنت أزور دار سونوكو قبل زواجها، وإنما كان عارم الزخم ، مفعما بالترددات ، التى بدت محلقة فى انطلاق ، متئمة بالنغم، متألقة البريق.

تساءلت: من الذى يعزف؟

رد كوسانو، دون أن يدرى من الأمر شيئا: إنها سونوكو فى زيارة لنا اليوم.

فى ألق مؤلم عادت الذكريات العتيقة تترى واحدة إثر الأخرى.

أثر فىّ أن كوسانو، لمشاعره النبيلة نحوى، لم يقل كلمة واحدة عن رفضى غير المباشر لسونوكو، أردت دليلا واحدا على أنها قد جرحت مشاعرها. فى ذلك الوقت، شاقنى أن أكتشف بعض التعاسة يتفق مع تعاستى، لكن «الزمن» تدخل مرة أخرى ، متعملقا كالأعشاب البرية، حائلا بينى وبين كوسانو وسونوكو،

أصبح من المستحيل علينا أن نعبر صراحة عن مشاعرنا، دون أن يلونها الكبرياء أو الغرور أو التعقل.

توقف العزف، كان لكوسانو من الذكاء ما تساءل معه عما إذا كان بوسعه أن يدعوها للإنضمام لنا، خرج، عاد بعد قليل معها، شرع ثلاثتنا فى الثرثرة، التى صاحبها الكثير من الضحك المجرد من المعنى عن المعارف فى وزارة الخارجية ، حيث كان زوج سونوكو يعمل.

سرعان ما نادت أم كوسانو ولدها . فمضى ليلبى النداء ، تركنا أنا وسونوكو وحدنا معا فى الغرفة، تماما على نحو ما كنا قبل عامين.

حدثتنى ، بغير قليل من الكبرياء ، عن كيف أن جهود زوجها هى التى أنقذت دار آل كوسانو من المصادرة على يد سلطات الاحتلال، من البداية وجدت تفاخرها جذابا، ذلك أن المرأة بالغة التواضع تفتقد الجاذبية ، تماما كالمرأة المغرورة، كانت ثمة أنوثة بريئة حييه فى تفاخر سونوكو الهادىء مكبوح الجماح.

قالت ولازال حديثها هادئا : بالمناسبة، هناك أمر أردت بإلحاح أن أسالك عنه. لكنى لم أستطع طرحه من قبل، ظللت

أتساءل لماذا لم نتزوج ، بعد أن تلقيت الرد الذى أرسلته إلى أخى لم أستطع فهم شىء على الإطلاق عن هذا العالم، لم أكن أصنع شيئا كل يوم إلا التساؤل والتساؤل، حتى الآن ليس بمقدورى أن أفهم لِمَ لم نستطع الزواج...

أشاحت بوجهها قليلا عنى ، وقد وسم الغضب ملامحها ، فبدت وجنتاها متوردتين ، ثم مضت فى حديثها، كما لو كانت تطالع بصوت عال:

ـ أكان ذلك لأنك كرهتنى؟

بدا سؤالها مباشرا، كأنه سؤال فى العمل ، فاستجاب له قلبى بضرب من البهجة العنيفة والمؤلمة، فى لمحة تحولت هذه البهجة المنتصرة إلى ألم، كان ألما مراوغا حقا، ثمة قدر من الألم كان أصيلا ، ولكن فيما وراء ذلك كمن أيضا عذاب الكبرياء الجريح ، لدى اكتشاف أن بعث الأحداث «التافهة» التى انقضت قبل عامين ، أمكن أن يجعل قلبى يتألم، على هذا النحو ، أردت أن أتحرر منها ، لكنى وجدت ذلك مستحيلا ، كذى قبل.

قلت لها: مازلت تجهلين كل شىء عن أمور الدنيا ، تلك إحدى مزاياك، جهلك بأمور هذا العالم، لكن أصغى إلىّ، هذا

العالم لم يخلق ليكون بمقدور عاشقين أن يتزوجا فيه دائما ، هذا هو على وجه الدقة ما كتبته إلى أخيك، إضافة إلى ذلك ...

شعـرت بأننـى مقـبل على قول شـىء أنثوى ، لكنى لم أستطع التوقف .

ـ ... إضافة إلى ذلك ، فإننى لم أقل صراحة فى أى موضع من رسالتى إلى أخيك إنه لا موضع للحديث عن الزواج، كما قلت فالأمر يرجع إلى أننى كنت لاأزال فى الحادية والعشرين من عمرى أواصل دراستى ، كان الأمر مفاجئا ، فيما كنت مترددا مضيت أنت فتزوجت بمثل هذه السرعة.

ـ طيب ، فيما يتعلق بى ليس لدى سبب يدعونى للندم، فزوجى يحبنى وأنا أحبه كذلك ، إننى سعيدة حقا، ليس هناك المزيد مما أريده، رغم ذلك وربما كان أمرا سيئا أن أفكر على هذا النحو أتساءل أحيانا ـ ترى ماهى خير طريقة لقول ذلك ـ أحيانا أرى فى صقال مرآة خيالى أنى على وشك قول شىء لا يتعين علىّ قوله ، أحس بأننى بين يدى التفكير فى أمر لا ينبغى أن أفكر فيه، ويضايقنى الأمر حتى لا يعود بوسعى احتماله، وزوجى يقدم لى عونا عظيما في مثل هذه الأوقات، إنه يعاملنى برفق، تماما كما لو كنت طفلة.

ـ قد أبدو مغرورا، لكن هل أحدثك بما أعتقد؟ فى تلك الأوقات تكرهيننى ، إنك تكرهيننى بعنف .

لم تكن سونوكو تعرف معنى الكراهية، برفق، بجدية تظاهرت بالتقطيب، قالت:

ـ بمقدورك أن تعتقد ما يحلو لك.

على حين غرة، وجدتنى أبتهل ضارعا لها، كما لو كان هناك ما يدفعنى دفعا، قلت : ألا نستطيع أن نلتقى مرة أخرى، نلتقى معا بمفردنا؟ لن يكون هناك ما نخجل منه ، سيرضينى أن أرى وجهك فحسب، لم يعد لى الحق فى أن أقول شيئا، حتى إن لم تقولى كلمة سأكون مغتبطا، حتى ولو كان اللقاء لنصف ساعة.

ـ وما جدوى اللقاء؟ على أية حال إذا ما التقينا مرة ألن تقول فلنلتق مرة أخرى؟ فى الدار تلتزم حماتى موقفا متشددا، وفى كل مرة أغادر الدار تسألنى إلى أين أمضى ومتى أعود، وأن نلتقى بمثل هذه المشاعر القلقة... ولكن إذا ...

تعثر حديثها اللحظة، أضافت: طيب ، هناك شىء اسمه القلب البشرى، وما من أحد يعرف ما يجعله يخفق.

ـ هذا صحيح، لكنك رقيقة ومتشائمة كعهدك دائما ، ألست

كذلك؟ لم لا تفكرين بأشياء أكثر مرحا وانطلاقا؟ (أية أكاذيب كنت أطلقها!)

ـ هذا مناسب لرجل، لكنه ليس كذلك بالنسبة لامرأة متزوجة ستفهم الأمر تماما حينما تكون لك زوجة، لا أظن أن بوسع المرء أن يكون حريصا فيما يتعلق بأمور كهذه.

ـ الآن يبدو حديثك كحديث الأخت الكبرى، وهى تسدى النصح...

عندئذ على وجه الدقة عاد كوسانو ، وانقطع حوارنا .

حتى خلال حوارنا، كان ذهنى يحفل بأسراب لا نهاية لها من الشكوك، أقسم بالله أن شعورى بالرغبة فى لقاء سونوكو كان شعورا حقيقيا، لكنه لم يكن يتضمن أدنى رغبة جنسية، فأية رغبة إذن جعلتنى أريد مقابلتها على هذا النحو؟ ألا يحتمل أنه خداع النفس مرة أخرى كانت تلك العاطفة التى تجردت على هذا القدر من الوضوح من الرغبة الجنسية؟ أيمكن فى المقام الأول أن يكون هناك حب بلا أى أساس جنسى من أى نوع؟ أليس ذلك عبثا واضحا جليا؟

لكن خاطرا آخر راودنى عند ذاك : لو أننا سلمنا بأن العاطفة الإنسانية تمتلك القدرة على الارتفاع عن كل عبث، فكيف

يمكن إذن القول بأنها تتمتع بالقدرة على الارتفاع عن ضروب عبث العاطفة ذاتها؟

منذ تلك الليلة الحاسمة ، نجحت بمهارة فى تجنب النساء، منذ تلك الليلة لم أمس شفتىّ امرأة واحدة، وما مست الشفاة الاغريقية ، التى كانت محط رغباتى حقا، حتى حينما كنت أجد نفسى فى موقف يصبح فيه من الصفاقة ألا أفعل ذلك ... ثم تهدد مقدم الصيف عزلتى ، على نحو يفوق الربيع، وساط الصيف فى سمته جياد رغبتى الجنسية، فالتهمت لحمى وأوغلت فيه عذابا، لذت بعادتى السيئة لأتحمل هذا العذاب، عاكفا عليها فى بعض الأحيان خمس مرات فى اليوم الواحد.

أنارت ظلمة جهلى قراءة نظريات هيرشفيلد، الذى يفسر عشق المثل باعتباره ظاهرة عضوية بسيطة، أصبحت أدرك أن تلك الليلة الحاسمة ذاتها كانت نتيجة طبيعية، وأنه ليس ثمة ما يدعو للشعور بالعار، اتخذ اشتهائى التصورى للفتية، على الرغم من أنه لم يتحول لمرة إلى ممارسة، شكلا محددا أظهر الدارسون أنه سائد بالدرجة ذاتها، ويقال إن الدافع ذاته الذى استشعره ليس بالأمر غير المألوف بين الألمان، وتقدم مذكرات الكونت فون بلاتين نموذجا مجسدا بصورة مثالية، وكان فينكلمان كذلك، وإذا ما اتجهنا إلى إيطاليا عصر النهضة لوجدنا أن من الجلى أن مايكل

انجلو كانت له الدوافع ذاتها التى استشعرها.

لكن ذلك لا يعنى أن حياتى العاطفية قد استقامت من خلال الاستيعاب الفكرى لهذه النظريات. كان من العسير أن يصبح اللواط واقعا فى حالتى، لأن الدافع ما كان يتجذر فى أعماقى إلى أبعد من الجانب الجنسى، لم يكن يتجاوز كونه دافعا مظلما، يصرخ عبثا، مكافحا فى عجز وعماء ، بل إن الاستثارة التى كان يثيرها فىّ فتى جذاب المحيا كانت تقف دون مجرد الرغبة الجنسية، ولأطرح تفسيرا سطحيا أقول إن روحى كانت لاتزال تنتمى إلى سونوكو. وعلى الرغم من أن الأمر لا يعنى قبولى للمفهوم صراحة، فإن بمقدورى أن استخدم بصورة مواتية تصوير العصور الوسطى للصراع بين الروح والجسد لجعل المعنى الذى أقصده جليا : كان فى أعماقى انقسام محض وبسيط بين الروح واللحم، بدت سونوكو لى تجسيدا لحبى للعادية ذاتها، لعشقى لأشياء الروح، عشقى للأمور الخالدة.

لكن مثل هذا التفسير البسيط لا يتخلص من المشكلة، فالانفعالات لا تميل إلى النظام الثابت، ولكنها شأن جسيمات فى الأثير تحلق طليقة، تسبح كيفما اتفق، وتؤثر أن تظل متأرجحة للأبد.

انقضى عام قبل أن أفيق أنا وسونوكو، اجتزت امتحانات

الخدمة المدنية بنجاح، تخرجت فى الجامعة، عينت فى وظيفة إدارية بإحدى الوزارات. خلال ذلك العام التقينا عدة مرات، حينا بالمصادفة وحينا آخر بزعم القيام بعمل تافه، لكن ذلك كان يقع كل شهرين أو ثلاثة شهور، وفى وضح النهار، لقاء لا يحدث خلاله شىء، وافتراق على النحو ذاته، كان هذا هو كل شىء، وما كان بوسع أحد أن يعيب علىّ سلوكى ، كما أن سونوكو لم تتقدم إلى ما يتجاوز التذكارات التافهة أو الأحاديث ضاحكة من وضعنا الراهن، ما كان يمكن أن يطلق على ارتباطنا علاقة عاطفية بل إن المرء ليتردد فى أن يدعوه علاقة ، وحتى حين كنا نلتقى ما كنا لنفكر فى شىء إلا فى كيفية جعل فراقنا قطيعة.

كنت راضيا بهذا، بل كنت أحس بالعرفان نحو شىء ما لهذا الزخم الصوفى لتلك العلاقة التى تفتقر إلى الهدف، لم يكن يوم يمر دون أن أفكر فى سونوكو، فى كل مرة نلتقى كنت أعايش سعادة هادئة، بدا التوتر الهش والتناسق المحض للقاءاتنا كما لو كانا يمتدان إلى جميع منعطفات حياتى ، ويفرضان عليها نظاما جليا وإن كان متزايد الهشاشة.

لكن عاما انقضى، وأفقنا ، اكتشفنا أننا لم نعد نعيش فى روضة من رياض الأطفال، وإنما نحن سكان كون للبالغين ، يتعين أن يصلح فيه أى باب ينفرج قليلا فى الحال، كانت علاقتنا مثل

هذا الباب تماما، باب لا يمكن أبدا أن يفتح إلى ما يتجاوز حدا معينا، وكان من اليقينى أنه سيتطلب الإصلاح إن آجلا أو عاجلا، أكثر من هذا كانت هناك الحقيقة القائلة بأن الكبار لا يمكنهم تحمل الألعاب المملة التى تبهج الأطفال، لم تكن اللقاءات العديدة التى كنا نفحصها واحدا إثر الآخر إلا أمورا نمطية ، كل منها كالآخر حجما وسمكا، حزمة من أوراق اللعب تضم فتنكمش إلى جزء من البوصة إذا ما وضع أحدها فوق الآخر.

أضف إلى ذلك أننى كنت أستل عامدا من هذه العلاقة بهجة لا أخلاقية، كان بوسعى أنا وحدى أن أفهمها، كانت لا أخلاقيتى مراوغة تتجاوز الآثام العادية لهذا العالم، ومثل سم نادر، كانت فسادا محضا، وبما أن اللاأخلاقية هى أساس طبيعتى ذاتها ومبدئى الأول فقد وجدت مذاقا متفاقم الشيطانية حقا الخطيئة السرية فى سلوكى التقى، فى هذه العلاقة التى لا لوم عليها مع امرأة ، في سلوكي المشرف ، وفى كونى ينظر إلىّ باعتبارى رجلا له مبادىء سامية.

كنا قد مددنا أيدينا أحدنا نحو الآخر، وبأيدينا المتضامة أسندنا فيما بيننا شيئا ما ، لكن هذا الشىء الذى كنا نمسك به كان كنوع من الغاز الذى يوجد حينما تؤمن بوجوده، ويتبدد حينما تشك فى هذا الوجود ، وللوهلة الأولى بدت مهمة إسناده يسيرة،

لكنها كانت تقتضى بالفعل صفاء فى التقديرات وحذقا بالغا، استحضرت «عادية» مصطنعة لتحل فى ذلك الفراغ بين أيدينا، ودفعت بسونوكو إلى المشاركة فى عملية خطرة، قوامها محاولة الإبقاء على «عشق» وهمى تقريبا من لحظة إلى لحظة أخرى، بدت كأنها أصبحت شريكة في المؤامرة ، دون أن تدرى ، ولربما كان افتقارها ذاك للإدراك هو السبب الوحيد فى أن عونها كان فعالا على هذا النحو.

لكن سونوكو سرعان ما أصبحت تعى، على نحو معتم ، بالقوة الغلابة لهذا الخطر، الذى لا اسم له، هذا الخطر الذى يختلف تماما عن الأخطار الخشنة المألوفة لهذا العالم، فى أنه له زخم محدد، ولا مجال لسبر غوره.

ذات يوم فى أخريات الصيف ، سونوكو كانت قد عادت لتوها من منتجع جبلى وكان ذلك فى مطعم يدعى توك دور، وما أن إلتقينا حتى أخبرتها باستقالتى من الخدمة المدنية.

ـ الآن ماذا ستصنع؟

ـ أوه ، دعى المستقبل يهتم بذاته!

ـ طيب ، إنها مفاجأة.

لم يكن عندها شىء آخر تقوله حول هذا الأمر ، وكان ذلك

ضربا من قواعد السلوك يقوم على عدم التدخل، كان قد استقر العمل به بالفعل بيننا.

كانت شمس الجبال قد لوحت جلد سونوكو، فقد بياضه المتألق هناك عند مطالع نهديها، اعتمت اللؤلؤة الضخمة فى خاتمها بصورة كابية، أما رنين صوتها العالي، الذى كان دائما مزيجا من الحزن والتراخى ، فقد كان ملائما لهذا الفصل من السنة.

أدرنا فيما بيننا لبعض الوقت حديثا مجردا من المعنى، دائريا بلا انتهاء، يفتقر للإخلاص، كان يبدو فى بعض الأوقات أنه لا يعدو أن يكون سقوطا فى الخواء، أعطانا الانطباع بأننا نسترق السمع إلى حوار يتبادله غريبان، كان شعورا كذلك الذى يساور المرء عند التخوم بين النوم واليقظة حينما تجعل الجهود اليائسة التى يبذلها المرء للإغفاء مجددا دون الاستيقاظ من حلم سعيد استعادة هذا الحلم أمر أكثر استحالة، اكتشفت كيف أن قلبينا، وكأنما أصابهما فيروس خبيث، كانت تمضغهما اليقظة القلقة التى تدب إلى حلمنا، والبهجة العبثية لحلمنا الذى تراءى على أعتاب الوعى، وكأنما استجابة لإشارة متفق عليها هاجم المرض فؤادينا معا فى الوقت ذاته، رددنا بإظهار المرح، كما لو كان كل منا يرهب ما قد يقوله الآخر فى أية لحظة فمضينا، نهيل النكات إحداها فوق

الأخرى.

رغم أن بشرتها التى لوحتها الشمس أضفت لمسة غير مألوفة عليها، فقد كمن تحت قناع تجميلها الحديث الشامل الهدوء ذاته، الذى كان يتدفق كعهده أبدا من عينيها الرقيقتين وشفتيها الثقيلتين هونا، وحينما كانت النسوة الأخريات تعبرن مائدتنا كن دائما يرمقن سونوكو، كان ثمة ندل يتحرك عبر القاعة حاملا صحفة فضية صفت عليها حلوى مثلجة صنعت على شكل بجعة، كانت سونوكو تداعب برقة قفل حقيبتها المصنوعة من المطاط فى رقة والخاتم يتألق فى أصبعها.

تساءلت : أتشعرين بالملل من هذا؟

ـ لا تقل ذلك!

بدا صوتها مثقلا بالإعياء ، الذى كان غريبا بشكل ما ، بل كان يمكن أن يوصف بأنه جذاب ، التفتت ، راحت تتطلع عبر النافذة إلى الطريق الغارق فى شمس الصيف، حينما تحدثت مرة أخرى تتاهت كلماتها وئيدة.

ـ فى بعض الأحيان أحس بالحيرة ، أتساءل لم نلتق على هذا النحو، رغم ذلك فإنى دائما أقابلك مرة أخرى.

ـ ربما لأن ذلك على الأقل ليس سلبا لا معنى له ، حتى وإن

كان إضافة عبثية بالتأكيد.

ـ لكنى لدىّ شىء يسمونه زوجا ، تذكر ، وحتى إذا كانت الإضافة عبثية فلا ينبغى أن يكون هناك مجال لأية إضافة على الإطلاق .

ـ إنها معادلات رياضية مضجرة، أليست كذلك؟

أدركت أن سونوكو قد وصلت أخيرا إلى مدخل الشك، شرع الإحساس يراودها بأن الباب الذى ترك مواربا لا يمكن أن يظل على ماهو عليه. ربما لأنه الآن تسلل هذا الضرب من الحساسية إزاء الفوضى، ليمتص المشاعر التى كانت سونوكو تشاركنى إياها، كنت لا أزال بدورى بعيدا عن العمر الذى يغدو فيه المرء على استعداد لقبول الأمور على نحو ما هى عليه.

رغم ذلك ، بدوت كما لو كنت قد جوبهت ببرهان ساطع على أن خوفى الذى لا اسم له قد تسلل إلى وعى سونوكو، بل وأن الشىء الوحيد الذى كنا نشترك فيه هو مؤشر هذا الخوف، من جديد عبرت سونوكو عن هذا الخوف، حاولت ألا أصغى، لكن فمى لم يفه إلا بردود، هى من قبيل الثرثرة ، لا غير.

قالت: إذا مضينا على هذا النحو فماذا تظن أنه سيحدث ألن ندفع إلى منعطف لا مهرب منه؟

ـ أظن أنى أحترمك ، وأنه ليس هناك ما يخجلنا أمام أحد، ما الخطأ فى أن يلتقى صديقان.

ـ سار الأمر على هذا النحو حتى الآن، كان تماما على نحو ما تقول، أعتقد أنك تصرفت على نحو مشرف للغاية، لكنى لا أدرى ماذا يمكن أن يقع فى المستقبل، حتى إن كنا لا نأتى شيئا نخجل منه فإن أحلاما مخيفة لا تزال على نحو ما تراودنى، ثم أنى أحس بأن الله يعاقبنى على خطايا المستقبل.

جعلنى الصوت الحازم، الذى ترددت به كلمة المستقبل، أرتجف.

واصلت حديثها قائلة: إذا ما مضينا على هذا النحو، فإننى أخشى أن يحدث أمر يلحق الضرر بكلينا يوما، وبعد ذلك ألن يكون أوان الاستدراك قد فات؟ أو ليس ما نفعله مشابها للعب بالنار؟

ـ ما الذى تقصدينه حين تتحدثين عن اللعب بالنار؟

ـ أوه ، كل ضروب الأشياء.

ـ لكنك لا تستطيعين اعتبار ما نفعله لعبا بالنار، إنه فحسب كاللعب بالماء.

لم تبتسم ، كانت خلال لحظات الصمت العريضة تزم شفتيها بضراوة.

قالت : بدأت أشعر أخيرا بأنى امرأة فظيعة، لا أستطيع أن أفكر فى نفسى إلا باعتبارى امرأة سيئة ، وضيعة الروح ، حتى فى أحلامى ينبغى ألا أفكر فى أحد إلا فى زوجى، لقد حزمت أمرى، وقررت أن أعمد هذا الخريف.

أعتقد أن سونوكو فى هذا الضرب المتراخى من ضروب الاعتراف الذى يرجع إلى حد ما إلى تخدير رنين كلماتها، كانت تقترب من اللغز النسائى المتمثل فى قصد عكس ما تقوله، وكانت ترغب بصورة غير واعية فى أن تقول ما لا ينبغى أن يقال، لم يكن لى الحق فى الابتهاج لهذا أو الحزن إزاءه، ففى المقام الأول كيف كان يمكننى ، أنا الذى لم أشعر بأدنى غيرة من زوجها، ممارسة هذه الحقوق، سواء بالمطالبة بها أو برفضها؟ التزمت الصمت. أفعمنى مرأى يدى البيضاوين النحيلتين فى سمت الصيف باليأس.

قلت أخيرا : والآن؟

خفضت صوتها قائلة: والآن؟

ـ نعم ، الآن ، فيمن تفكرين؟

ـ ... زوجى.

ـ إذن فليس العماد ضروريا، أهو كذلك؟

ـ أوه ، إنه كذلك ... فيما أخشى ، فلازلت أشعر بأننى أهتز بعنف.

ـ هكذا الآن؟

ـ الآن؟

رفعت سونوكو عينيها الجادتين، كأنها تطلب النجدة من أحد، اكتشفت فى بؤبؤيها بهاء لم أره من قبل أبدا، كانا بؤبؤين عميقين ، لا يطرفان، قدريين مثل غديرين يشدوان أبدا بعواطف لا تفتأ تتدفق، ضاعت منى الكلمات كعهدى دائما حينما كانت تحول هاتين العينين تجاهى، فجأة مددت يدى نحو منفضة السجائر عبر المائدة، وأطفأت سيجارتى التى لم أدخن إلا نصفها، فيما كنت أقوم بذلك انقلبت آنية الزهور الرشيقة فى منتصف المائدة فبللتها بالماء.

أقبل نادل ، وأزال آثار هذا الإضطراب. جعل مرأى مفرش المائدة المبلل وهو يجفف شعورا تعسا يراودنا، مما منحنا تعلة للإنصراف مبكرين قليلا.

كانت الطرقات التى لفها الصيف بردائه مزدحمة على نحو يثير الضيق، مرّ عشاق يزهون بعافتهم قريبا منا، وقد برزت صدورهم وتعرت أذرعتهم، شعرت بأن كلا منهم كان يسخر منى

وكانت السخرية قوية كضياء شمس الصيف الذى كان يحترق منصبا علىّ.

بقيت نصف ساعة على موعد فراقنا، ليس بمقدورى القول بما إذا كان الأمر يرجع إلى الألم النابع من فراقنا على وجه الدقة، لكن ضيقا كئيبا وعصبيا، يحاكى ضربا من ضروب العاطفة، أثار شعورا بالرغبة فى طلاء نصف الساعة ذاك بألوان غليظة كاللوحات الزيتية. توقفت أمام مرقص كان مكبر الصوت فيه يمج دفقات وحشية من موسيقى الرومبا إلى الطريق، فجأة ذكرت بأحد أبيات قصيدة كنت قد طالعتها منذ وقت طويل.

... *لكنها كانت دائما رقصة بلا نهاية*...

كنت قد نسيت بقية البيت، لابد أنه من قصيدة لأندريه سالمون.

على الرغم من أن مثل هذا المكان كان خارج نطاق خبرة سونوكو، فإنها أومأت موافقة. وصحبتنى إلى المرقص لنمضى نصف ساعة من الرقص.

كانت القاعة تغص بموظفى المكاتب، الذين كانوا يرتادون هذا المرقص كل يوم لقضاء ساعة أو ساعتين من الرقص، مضيفين إلى ساعة الراحة وتناول الغداء على النحو الذى يناسب مزاجهم.

لطمت وجوهنا حرارة متقدة، كانت الحرارة المحمومة، الخانقة ، الراكدة فى المكان تثير ضبابا لبنيا من ذرات الغبار بإزاء الأضواء المنعكسة، ويضاعف من تأثير ذلك نظام التهوية المعيب والستائر الثقيلة المسدلة ، التى كانت تحجب الهواء الطلق، وما كان المرء بحاجة إلى القول أى نوع من الناس أولئك الذين كانوا يرقصون هناك غير مبالين بالحرارة، ومصدرين روائح العرق والعطور الرديئة ودهون الشعر الرخيصة، فشعرت بالأسف لإحضارى سونوكو إلى هذا المكان.

لكن أوان التراجع كان قد فات، شققنا طريقنا دونما حماس وسط الجمع الراقص، لم تفلح حتى المراوح الكهربائية القليلة فى جلب نسمة هواء، كان فتية يراقصون المضيفات، وقد تلاصقت خدودهم المتصببة عرقا، إسمرت جوانب أنوف الفتيات، وبدا زرور وجوههن الغارقة فى العرق كحب الشباب على بشرتين، أما ظهور أثوابهن فقد بدت أكثر اتساخا وابتلالا من مفرش المائدة قبل قليل، وسواء رقص المرء أم لا فقد كان العرق ينتشر فيغلل جسده، كانت سونوكو تلتقط أنفاسا لاهثة ، كأنها تختنق.

مضينا بحثا عن هواء متجدد ، عبر مجاز مقنطر، محلى بزهور عتيقة إلى الباحة، اقتعدنا مقعدين خشنين، كان الهواء هنا متجددا حقا، لكن الأرض الأسمنتية كانت تمج حرارة كثيفة،

امتدت حتى المقاعد الموضوعة فى الظل، كان مذاق شراب الكوكاكولا عالقا بلعابينا، بدت سونوكو بدورها وقد ألزمها الصمت العذاب ذاته الذى كنت أحسه ، والنابع من مقت كل شىء فى هذا المكان ، بعد قليل لم يعد بوسعى احتمال هذا الصمت، فشرعت فى النظر فيما حولى.

كانت فتاة لحيمة تستند إلى الجدار فى تراخ، وهى تجلب الهواء إلى صدرها بمنديل، كانت الفرق الموسيقية تعزف لحنا سريعا، بدا وكأنه ينصب من آلاتها صبا. فى الباحة كان هناك بعض النباتات دائمة الخضرة فى مزهريات ترتفع ناتئة من الأرض الأسمنتية، التى وضعت عليها، شغلت جميع المقاعد فى ظلال الظلة، فلم يكن أحد يرغب فى مواجهة أشعة الشمس.

غير أنه كانت هناك جماعة واحدة تجلس تحت أشعة الشمس، وأعضاؤها يثرثرون معا، كأنهم وحدهم فى المكان، كانت تضم فتاتين وشابين، راحت إحدى الفتاتين تدخن سيجارة على نحو متكلف، أظهر أنها لم تعتد التدخين ، مصدرة سعالا خفيفا عقب كل مجة من دخان السيجارة، وكانت الفتاتان كلتاهما ترتديان ثيابا غريبة، بدت وقد أعدت نقلا عن مادة كيمونو صيفى، لاحت الثياب بلا أكمام، تكشف عن سواعد حمراء كسواعد بائعات

السمك، وقد رقشتها هنا أو هناك لدغات الحشرات، فى كل مرة كان الفتيان يلقيان بنكتة خشنة كانت الفتاتان تنظر إحداهما إلى الأخرى ، ثم تضحكان فى تكلف، ولم يبد أن شمس الصيف الوحشية التى كانت تلهب رءوسهم تضايقهم بشكل خاص.

كان أحد الفتيين يرتدى قميصا مزركشا ، كان شائعا للغاية فى ذلك الوقت بين عصابات الشبان فى المدينة، كان وجهه شاحبا، ماكر الملامح، لكن ذراعيه كانا قويين، وابتسامة شهوانية تطوف بلا انتهاء على شفتيه، ظاهرة ثم معاودة الاحتجاب، كان يدفع الفتاتين للضحك بدفع أصبعه بين نهودهن.

ثم لفت الفتى الآخر انتباهى، كان شابا فى الحادية والعشرين أو الثانية والعشرين، له بشرة خشنة، وإن كانت رائقة وداكنة، كان قد نزع قميصه، وقف هناك نصف عار، لف زنار حول وسطه، غرقت المادة القطنية الخشنة فى العرق، اكتسبت لونا رماديا فاتحا، بدا وكأنه يتلكأ عمدا فى مهمته ويشارك باستمرار فى الثرثرة والضحك مع رفاقه، وشى صدره العارى بعضلات بارزة، كاملة النمو ، محكمة التركيب، كان فلع عميق ينطلق بين عضلات صدره المتينة نحو معدته، كانت أوتار لحمه الغليظة الشبيهة بالقيود تضيق، منسدلة إلى أسفل من شتى الاتجاهات ،

نحو جوانب صدره، حيث كانت تتداخل فى طيات محكمة، بدت كل طية متتالية من الزنار القطنى الملوث وكأنها تسجن فى إحكام وقسوة الكتلة الساخنة لجذعه الرقيق، أما كتفاه العاريان اللذان لوحتهما الشمس فقد تألقا، كأنما كان الزيت يكسوهما، برز شعر الإبطين الأسود من ثناياهما، متشبثا بنور الشمس، متجعدا، ومتألقا بومضات من ذهب.

أحدقت بى رغبة جنسية إزاء هذا المشهد، وفى المقام الأول إزاء نبات الفاوانيا الموشوم على صدره، جمدت نظرتى المحمومة على هذا البدن الخشن الوحشى، الذى لا مثيل لجماله رغم ذلك، كان صاحبه يقهقه هناك تحت الشمس، حينما ارتد برأسه إلى الوراء، استطعت مشاهدة عنقه العضلى الغليظ، اخترقت رعدة غريبة سويداء قلبى، وما عاد بوسعى أن أرفع ناظرى عنه.

كنت قد نسيت وجود سونوكو، رحت أفكر فى شىء واحد : فى انطلاقة إلى طرقات الصيف تماما على نحو ما هو عليه، نصف عار واشتباكه فى شجار مع عصابة منافسة، فى خنجر حاد يغوص فى ذلك الزنار، مخترقا ذلك البدن، فى جثته الملطخة بالدم مسجاة على حامل مرتجل من إحدى النوافذ ، ثم تجلب إلى هنا...

بلغ صوت سونوكو المرتفع الحزين مسامعى، فالتفت نحوها

متعجبا: «لم تبق إلا خمس دقائق».

في هذه اللحظة انشطر شيء ما بداخلي شطرين بقوة وحشية، كان الأمر كما لو أن صاعقة انقضت فأطاحت بشجرة تتدفق بالحياة وبالنسغ، سمعت البناء الذي كنت أشيده بكل ما أملك من قوة قطعة فقطعة ينهار على نحو بائس إلى الأرض، شعرت وكأنني شاهدت اللحظة التي انقلب فيها وجودي إلى ضرب مخيف من ضروب العدم، أغمضت عينيّ، بعد لحظة تملكت ناصية شعوري الجليدي بالواجب.

ـ خمس دقائق فحسب؟ كان من الخطأ إحضارك إلى مثل هذا المكان، أغاضبة أنت؟ إنسانة مثلك لا ينبغي لها أن تشاهد سوقية مثل هؤلاء الناس، لقد سمعت أن هذا المرقص لا يتمتع ببراعة مراضاة عصابات السفلة، وأنهم قد شرعوا في فرض أنفسهم ليرقصوا مجانا أيا كان الرفض الذي يجابهون به.

لكني كنت وحدي أنظر إليهم ، أما سونوكو فلم تلاحظهم، كانت قد دربت على عدم رؤية الأمور التي لا ينبغي أن تشاهد، كانت قد ثبتت نظرتها في شرود على الظهور العارقة التي كان أصحابها يتابعون الرقص.

لكن رغم ذلك بدا مناخ المكان وكأنه أفرز شيئا كيمائيا من

قبيل التغيير فى قلب سونوكو بدورها، دون أن تدرك ذلك ، فى التو لاحت مطالع شىء كالابتسامة على شفتيها الخجولتين ، وكأنها كانت تستمتع مسبقا بما توشك على قوله.

ـ من المضحك طرح هذا السؤال، لكنك مارست الحب بالفعل، ألم تفعل ذلك؟ بالطبع مارسته أليس كذلك؟

كنت مرهقا تماما ، مع ذلك كان فى ذهنى ما يدفعنى للانتباه فيرغمنى على تقديم رد مقبول بأسرع مما يقتضيه التفكير.

ـ آه ، لقد قمت بذلك بالفعل، ويؤسفنى قول ذلك.

ـ متى؟

ـ فى الربيع الماضى.

ـ مع من؟

أدهشنى مزيج السذاجة والتعقد فى سؤالها، كانت عاجزة عن تصورى مرتبطا بفتاة لن تعرف اسمها.

ـ لا أستطيع إخبارك باسمها.

ـ هيا ، قل ، من كانت؟

ـ من فضلك لا تسأليني!

صمتت على الفور، ربما لأنها سمعت الابتهال الغارق فى

العرى خلف كلماتى، بدت وكأنما أخافها الأمر، كنت أبذل كل جهد بمقدورى القيام به للحيلولة دون ملاحظتها لانسحاب الدم من وجهى، كانت لحظة الفراق تقف فى الانتظار، على نحو قلق، انسابت فى الزمن نغمات حزينة خفيفة، ألفانا رنين الصوت العاطفى المنسكب من المكبر جامدين بلا حراك.

نظرت وسونوكو إلى ساعتىّ معصمينا، فى اللحظة عينها، على وجه التقريب...

كان الأوان قد جاء ، نهضت، اختلست نظرة أخرى إلى تلك المقاعد تحت الشمس، كانت المجموعة قد مضت فيما يبدو للرقص، والمقاعد شاغرة تحت بريق الشمس ، كان نوع من الشراب منسفحا على سطح المائدة، وكانت ترتد عنه انعكاسات متألقة ، مفعمة بالوعيد .

تمت

الفهـرس

الهـــلال

تصدر أول كل شهر

- ملتقى الإبداع الثقافى والفكرى لكل مفكرى الوطن العربى
- نبض الحركة الثقافية المعاصرة
- تضم كل ألوان الأدب وفنونه بأقلام كبـــار المفكرين والأدباء فى مـــصـــر والوطن العربى
- فكر حر مستنير . وأراء بناءة على طريق التنوير الذى ســـارت على دربه طوال مائة عام

الثمن رئيس التحرير

جنيه واحد مصطفى نبيل

رقم الإيداع : ٣٥٩٧ / ١٩٩٤
I . S . B. N
977-07-0323-0

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى ٣٠/ جنيها فى ج.م.ع
تسدد مقدماً نقداً أو بحوالة بريدية غير حكومية ـ
البلاد العربية ٢٥ دولاراً ـ أمريكا واوربا وآسيا
وافريقيا ٣٠ دولاراً ـ باقى دول العالم ٤٠ دولاراً .
القيمة تسدد مقدماً بشيك مصرفى لأمر مؤسسة
دار الهلال . ويرجى عدم ارسال عملات نقدية
بالبريد .

● وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت : السيد/ عبدالعال بسيونى زغلول ، الصفاة ـ ص . ب رقم ٢١٨٣٣
للحصول على نسخ من كتاب الهلال اتصل بالتلكس : 92703 Hilal.V.N

هذا الكتاب

هذه الصفحات الماثلة بين يدى القارىء ليست إلا كتاباً شيقاً يتصدى بجرأة لليأس والموت والدمار من خلال محاولة جادة لفهم أفضل للحياة وهو سيرة ذاتية كتبها المؤلف قبل أن ينتحر .

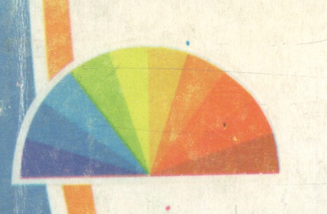
وكتاب الاعترافات من أرقى الكتب للأديب اليابانى المعروف ميشيما . الأكثر تألقا فى النصف الثانى من القرن العشرين لقد تعذب طويلا وعميقا ، ثم عرف كيف يخلق من عذاباته فنا رفيع المستوى .

الكثيرون من النقاد يرون فى «الاعترافات» شكلا شديد الخصوصية من أدب الاعترافات ، فهم ينظرون إليه باعتباره تقليدا ساخرا للاعتراف ، ويعدونه الكتاب الأكثر تعبيرا عن ميشيما لا لأنه صنع شهرته المدوية ، أو لأنه قمة شامخة فى أعماله التى تصل إلي مائة عمل ، وانما لأنه الكتاب الأكثر ايغالا فى فهم العالم الداخلى لمؤلفه ..

وهناك فريق من الدارسين يميلون إلى تصور أن البطل الحقيقى للاعترافات هو يابان ما بعد الحرب نفسها . اليابان فى عجزها عن الانفصال عن ماضيها ، ولكن فى الوقت نفسه فى افتقارها للقدرة على التواصل مع المستقبل .

وثمة من يميل إلى النظر للاعترافات باعتبار أنها محاولة لتفسير الكل من خلال الجزء ، ورحلة تستهدف التوصل إلى تفسير كلي للوجود ، من خلال دراسة العلاقة بين البطل وقدره ، وتحديد هامش الحركة الانسانية .

ومن المحقق أن عملا يقبل التفسير على مثل هذه الجبهة العريضة ، وبمثل هذا العمق . واحتدم من أجله النقاش جدير بمزيد من الاهتمام ، وجدير بالاقتناء .



كونيكا

Konica



كاميرات
أفلام
معامل طبع وتحميض
شرائط ڤيديو





الوكيل
شركة إساى

٩٦ شارع أحمد عرابي - المهـ ... ين

تليفون: ٣٤٤٠٥٨٣ فاكس: ٣٤٦٦٥٩٣

